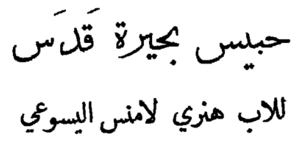
حبيس بحيرة قَدَس



حبيس بحيرة قَدَس

للاب هنري لامنس اليسوعي

نقلها الى العربيَّة

المعلِّم رشيد الخوري الشرتوني

نشرت في أعداد مجلَّة المشرق

بيروت
بالمطبعة الكاثوليكية
١٩٠٣

القسم الأوَّل

١

هلمَّ بنا الى النصف الثاني من القرن الخامس عشر لأنهُ في ذلك العهد قد جرت حوادث الرواية التي نقصُّ اليوم أخبارها :

في ذات يوم من شهر شباط قارس البرد وغزير المطر شوهــد خيَّال راقياً في الطريق المؤدية من برج صافيتا الى حصن سليمان في جبل اللكَّام المعروف اليوم بجبل النصيرية . وكان الخيَّال رجلاً عظيم الجثة مُحكم الخَلق قويَّ العضَـــل لفَّ رأسهُ بكوفيَّة كبيرة وعقد فوقها عقالاً ضخماً أسمر اللون وكانت لهُ لحية كثيفة سوداء كالفحم تبين من تحت الكوفية محيطةً بوجهٍ أشرقت عليهِ أمائر الشجاعة وشدَّة القلب . وكان حاملاً بيسراهُ رمحاً طويلاً ومُرخياً فوق عباءة لهُ من الصوف الاسمر المُعلَم بخطوط بيضـاء حمالةً تتدلَّى منها قوس وجُعبة . وكانت القوس والجعبـة في ذلك العهد

السلاح المألوف عند اللبنانيين فلم يكن رجال الحرب منهم يتركونهُ لا في إقامة ولا في سفر(١

وكان الخيَّال قاعدًا على سرج مقعَّر كثير الارتفاع من ناحية طرَفيهِ ورجلاهُ في ركابين من النحاس العريض يرنّان كلّما مسّا خاصرتي الفرس. أما الفرس التي تحتهُ فكانت من الخيل العربية الاصيلة وقد بلَّل العرق بدنها اكثر من المطر الذي لم ينقطع لهُ خيط ومع ذلك كانت راقيةً بنشاط في الطريق المتعوجة ما بين غابات السنديان والصنوبر الكاسيّين لمنحدرات الجبل. غير انَّها لما انتهت الى عطفة في ذلك الشِعْب الضيق أجفلت بغتةً كأنها رأت شيئًا غير منتظر فالتفت الخيَّال ليتبيَّن سبب خوفها فشاهد صورة بشريَّة تنساب بين الأدغال القائمة على يسار الطريق فاوقف فرسهُ ونادى قائلًا: « مَن الرجل » ولما لم يسمع جوابًا نادى مرةً ثانيةً وأخرج من جعبتهِ سهمًا فوضعهُ على وَتَر قوسهِ. وكأنَّ الرجل المجهول سمع هذه الحركة فخرج من بين تلك الاشجار الملتفَّة ووقف على يسار الخيَّال وكان عظيم القامة وحشيَّ المنظر ذا لحية سوداء طويلة وعينين برَّاقتين من فوق أنف طويل كأنهُ منقار النسر ولو كان الخيَّال ممن سبقت لهم عادة بمشاهدة سكان جبل اللكَّام لعرف ان ذاك المجهول هو أحد الشيعة الاسماعيليَّة قطَّاع الطرق الذين بثُّوا مخافتهم في كل الناحية

حينئذٍ قال اللبناني بصوت شديد: ما وراءك ومن انت أصديق ام عدوّ ؟. قال هذا وقد وجَّه سنان رُمحهِ الى صدر الرجل المجهول

— اني مسافر مسكين دهمتهُ الزوبعة. وقد أتيتُ من حصن سليمان

---

١) راجع مؤرخي القرون الوسطى كيعقوب دي فتري ص ٣٢٠

— أَمن حصن سليمان أَتيت ؟ . قل لي اذاً كم يبعد حصن سليمان من هنا

— اذا لم تكن فرسك تَعِبةً تصل اليهِ قبل مضي نصف ساعة

— هل الاب يوحنا في الدير ؟

— كان في هذه الأيام بقصر القليعة غير انهُ عاد امس الى مقرّه

— اذهب الآن في سبيلك ولكن ايَّاكَ ان تتعرَّض مرَّة أُخرى لتخويف فرسي والَّا عاد عليك الامر وبالًا

— أسأل الله ان يسهل طريقك

ولمَّا تباعد الخيَّال قليلًا اخذ الاسماعيليّ يقول : « لقد اصبت حظًّا ايها الكلب اللبناني . ولو لم تكن راكبًا فرسًا من احسن الخيل ومتسلحًا بعدَّةٍ كاملة لرأيت مني الموت الزؤام . وتربةِ سيدنا راشد الدين (١ انك لن تصل الى حصن سليمان . آه لو استطيع ان أُنبه رفقائي الذين شتَّتهم الزوبعة »

وما كاد ان يفرغ من هذه الكلمات حتى دخل ما بين الادغال . ثم صفر صفرةً كريهةً كأنهُ ينادي اصحابهُ غير انهُ لم يسمع جوابًا

امَّا الخيَّال اللبناني فكان يُصَعِّد في الجبل مطمئن البال وهو يترنَّم بالاغنية الآتية التي تذكر محاسن وطنهِ وأَرزهُ العظيم

لبنان ملجــا النصارى مأمن الرهبانْ

حصنٌ حصينٌ وحامي حوزة الايمــانْ

---

١) راجع المجلَّة الاسيوية سنة ١٨٧٧ الجزء الاوَّل

الحسن فيـه تجمَّعْ وارزهُ فتَّانْ
وماؤهُ كوثريٌّ وأهلـهُ شجعـانْ
في وسطهِ بشراي ذات العُلى والشانْ
مدينةُ القدَمينَ وافرس الفرسـانْ

وهي مِن جنس الاغاني التي تعوَّد اللبنانيُّون انشادها على طريقـة « المواليا » وكل احد يعرف انها تبعث على الغم والحزن بلحنها الشجي. ومع ذلك انعشت الفرس فنفضت ما تعلَّق من المطر على عُرفها وأخذت بنشاط ترتبقي تلك الطريق الصخريَّة كأنها تسير في ارضٍ مطمئنة سهلة

وما زال الخيَّال يجدّ في الارتقاء حتى وصل الى دارة الجبل لما توارت الشمس في الحجاب. وفي الدارة المذكورة وهَيْدة تشتمل على خراب هيكل قديم يُدعى بيتو كيكي ويعرف عند سكان الجبل باسم حصن سليمان فحينئذٍ دقَّ خاصرتي الفرس بالركاب فطارت بهِ مسرعةً حتى اوصلتـهُ في اقل من لمح البصر الى السور العظيم المبني بالحجـارة الضخمة حول هيكل المشتري غير انَّ المحلَّ المذكور لم يكن الغـاية المقصودة من سفرهِ فضلًا عن انهُ كان قليل الرغبة في مشاهدة الآثار العتيقة التي وقع منها تحت نظره انموذج غريب يستوقف الابصار (١

وعليهِ دخل وهو راكب فرسهُ من الباب الشمالي الى باحة فسيحةٍ تراكت فيها الحجارة الضخمة والعمَد المتكسرة مع بقايا من اكلّة العمَد والنقوش. وبينما هو سائر في تلك الباحة صدم سُنبك الفرس رأس تمثال

---

١) راجع مقالتنا في هذا الشان بمجلة الشرق المسيحي سنة ١٩٠٠ ص ٣٠٤ (Revue de l'Orient Chrétien)

صنعةُ القدماء لابولُّون او لمينرڤة فتدحرج على البلاط دون ان يبالي بهِ ثم تقدَّم الى الداخل حتى وقف تجاه هيكل او معبد مسقوف كائن بالتقريب في وسط الباحة الكبيرة وكان في هذا الهيكل قديمًا تمثال عظيم للبعل المعبود في بيتوكيكي يُصعد اليهِ بسلّم بديعة الصنعة

غير ان البناية المذكورة مع كونها اعظم اثر باقٍ في سورية بعد قلعة بعلبك لم تستوقف الخيال المحكي عنهُ للتأمل فيها فنظر اليها نظرةَ رجل غير حافل بشيء من محاسنها ولوى عنان فرسهِ الى اليسار ذاهبًا الى بنايةٍ أُخرى واسعة الارجاء تبعد عنها نحو مئة خطوة

وكانت هذه البناية جامعةً بين اوصاف قلعةٍ ودير معًا لان حجارة جدرانها تضاهي بضخامتها حجارة هيكل المشتري السابق ذكرهُ وقد حُفر ضمن دائرةٍ على بابها الكبير رسمُ صليب جميل . فلما انتهى اليها الخيال ذهب منهُ الطرب كل مذهب وصرخ قائلًا: « ها قد ادركتُ الوطر ونلت المبتغى فلا ريب عندي ان الصليب الذي أُشاهدهُ دليل على ان هذا البناء هو دير القديسة تقلا وقد حان لي ان استريح من مشقة السفر . فمن برج صافيتا الى هنا ما زلت أُكافح المطر والبرد فطيبي نفسًا يا غزالتي »

قال هذا مخاطبًا فرسهُ التي كان يلاطفها بإمرار يدهِ على عُرفها ثم أتمَّ كلامهِ معها وهو يقول: « ستجدين وراء هذا الباب معلفًا مملوءًا بالشعير ويجد خيَّالكِ المأوى والراحة اللذين اصبح كلانا في حاجة شديدة اليهما »

وكان الليل قد قرب وأُوصدت الابواب وانذرت الزوبعة بمزيد الاشتداد وكان الرهبان قد اجتمعوا لصلاة المساء فخاب الأمل الذي توقعهُ الخيال من المبيت في الدير. بيد انهُ حاول تنبيه من فيهِ بالصراخ والنداء فلم يسمعهُ احد لان الجدران كانت عاليةً ولم يكن في الخارج لا جرس

ولا مطرقة فغضب وقلّب الرمح وضرب الباب بزُجّهِ ثلاث ضربات لعل أحداً يجيبهُ . وكان الباب من خشب الزيتون مدرَّعاً بصفيحة ثخينةٍ من الحديد فلم تحدث الضربة فيهِ غير دويّ رنَّ صداهُ في مماشي الدير وحمل الكلاب التي في ساحتهِ الداخليَّة على النباح الشديد

وكان الخيـال شابًا تغلي حرارة دمهِ في عروقهِ فاستشاط من الغيظ وأخذ يتأفف من اضطرارهِ الى المبيت تحت الفلاء في تلك الليلة الباردة وبينا هو يربط فرسهُ الى جذع شجرة من الخروب قريبة منهُ شاهد رأساً عليهِ قبعة قد ظهر من نافذة صغيرة فوق الباب حجبتها عنهُ ضخامة الحائط فبعد ان نظر نظرة تحفُّظ واحتراز ولم يشاهد غير رجـل مسافر تقدَّم حتى بانت لحيتهُ البيضـاء فقال: من الطارق وماذا تريد ؟

— اني رجل مسافر بل ضيف ساقتهُ العناية الالهيَّة الى هنا ومرادي ان ابيت الليلة في الدير

فعندها تفرس الراهب في سلاح الخيَّال ولم يصدّق انهُ ضيف بسيط ثم قال لهُ : ألا تعلم ان ابواب الدير تُغلق بعد غياب الشمس لان الأيام التي نحن فيها قد كثرت فيها القلاقل والاضطرابات

— انَّ فتحها يتعلق بك يا حضرة الاب والأنسب للروح المسيحي بل الاليق بدعوتك ان تُدخلني لاقضي ليلتي براحةٍ والَّا عرضتني للموت بردًا على باب الدير

— أقصر ايها الخيَّال عن هذا التوبيخ الذي ليس تحتـهُ طائل فاننا لا نحتاج الى من يبصّرنا بواجباتنا فقد طالما اضفنـا الناس وأويناهم في ديرنا . نعم انك تنزعج كثيرًا من قضاء ليلتك تحت المطر والبرد ولكن ما العمل والقانون لا يجيز لنا ان نفتح الابواب بعد مغيب الشمس الَّا باذن

الرئيس وترخيصهِ. تربَّص قليلًا فها انا ذاهب اليهِ لأُفاوضهُ في الامر

— حسناً قلتَ فان لي مع الرئيس مسألة وقد أتيت في شأنهـا من لبنان

— فقال الراهب: هذا ما كان يجب ان تصرّح بهِ منذ الابتداء فقد عرفنا الآن انـك صديق...!

ثم ادخل رأسهُ من نافذة المراقبة وأغلقها ومضى

وبعد دقائق قليلة سمع المسافر صوت مفتاح في داخل القفل الكبير ولما كان الصدأ قد علا اسنانهُ صرَّ صريرًا مزعجًا ثم انفتح الباب وخرج منهُ الراهب ودعا الخيَّال للدخول فدخل جارًّا فرسهُ بلجامها

وبعد ان جاز ممشيَيْن معقودين وصل الى باحة الدير الداخليَّة فغرز رمحهُ في الارض وسلّم الفرس الى أحد الخدم ومشى بعض الرهبان امام الرجل الغريب وهم يحملون مشاعل من خشب الارز كان لهيبهـا العَطِر ينوس فوق رؤوسهم وما زالوا يُدخلـونهُ الغُرَف الفسيحة ويجيزونهُ المماشي الطويلة حتى أوصلوهُ الى المعهد المخصص بالضيوف وهو عبارة عن غرفة كبيرة معقودة لا زينة لها سوى بعض رسوم في الجـدران على النسق البيزنطي مع بعض آيات من الكتاب المقدس بالسريانيَّة

وقد كتبت الآيات المذكورة على حيطان ناصعة البيـاض بحروف اسطرنجيلية جميلة لها لطافة اللون الازرق الاصلي وازدهار اللون القرمزي الخالص. وكان في السقف قنـديل من سبع شُعَب دلالةً على مواهب الروح يرسـل نورًا غير متساوٍ على جهات الغرفة فتضيء بعض انحائها بنورٍ لامع ولا يبعث الى الانحاء الأُخرى بسوى ضوء خفيف

وما كاد الخيَّال يدخل الغرفة المذكورة حتى خلع عباءتهُ المتبلّلة بالمطر

وبادر الرهبان فاتوا بنار ادفاء لضيفهم الذي خدّله البرد الشديد في تلك الجبــال ولما استراح هنيهةً جاؤوه بطعام مؤلف من بعض البقول وشيء من اللبن وبعض الاثمار الناشفة واضافوا اليهـــا كأساً من الخمر الذهبية اللبنانية حفاوةً بالقادم

وكان الخيَّال في تلك الاثناء سَكوتًا عبوسًا لا يجيب الرهبان على ما خاطبوهُ بهِ من عبارات المجاملة والايناس الزائد بغير السلام الاعتيادي ولكنهُ لما فرغ من الاكل وتناول الخمر التي قُدّمت لهُ انطلق لسانــهُ

٢

فأخذ يتكلم قائلًا اني آتٍ من بشراي مُكلَّفًا بإبلاغ امرٍ مهمّ الى حضرة رئيس الدير من قبل سيدي ومولاي المقدَّم رزق الله بن جمــال الدين بن سيفا

فعند هذه الكلمات هاجت في الرهبان رغبـــة الوقوف على الأمر الذي أرســل في شأنهِ وتاقوا الى الاطلاع عليهِ. وكان كثيرون منهم لبنانيي الاصل فتحركت عند ذكر وطنهم عاطفة الشوق اليهِ. ومحبة الوطن كما لا يخفى هي آخر ما ينطفئ في قلوب رجال الله من العواطف البشرية

واما المقدَّم رزق الله فان جميع الرهبان كانوا قد سمعوا باخبــارهِ بل ان اكثرهم كانوا يعرفونهُ شخصياً فلهــذا ودّوا ان يعلموا من الخيَّال فوق ما علموا غير انهم لم يتجاسروا على سؤالهِ لانَّ عظم قامتهِ والشجاعة التي كانت انوارها تتلألأ ساطعةً على جبينهِ اوقعت في قلوبهم هيبةً لهُ ووقارًا

وبعد أن مضى زمن والجميع سُكوت استأنف الخيــالُ الكلام

قائلًا : بما اني مضطرٌّ الى السفر غدًا عند طلوع الفجر ارغب لو سمحتم لي بمواجهة حضرة الرئيس في هذه الليلة لاقدم لهُ واجبات الاكرام وابلغهُ المهمّة التي انا آتٍ في شأنها

فما نطق بهـذا الكلام حتى اجاب الرهبـان كلهم بصوت واحد قائلين : اننا لا نسمح اصلًا بسفرك. وان اصررتَ عرَّضتَ نفسك للعطب قبل مشاهدة لبنـان. ألا تسمع زئير الزوبعة وصفير الارياح

وكأنَّ السماء ارادت وقتئـذٍ ان تؤيد كلامهم فقصف الرعد قصيفًا هائلًا اهتزَّت لهُ جوانب تلك البنـاية العظيمة وزادت الزوبعة شدَّةً وارسلت السماء سيولًا من المطر حتى تحوَّل وادي حصن سليمان الى شبه بحيرة من ماء

وكان الرجـل الغريب يشتهي ان يستريح من اتعاب السفر الشاق الذي عاناهُ فوقع عندهُ الحاح الرهبان ببقائه عندهم موقع القبول. ثم تناول كأسًا ثانيـةً من الخمر فزادت لسانه انطلاقًا وجرأتهُ على مفاوضة الرهبـان في اصل ديرهم قائلًا : اي شيءٍ حبَّب اليكم الإقامة في هذه الجبال الموحشة البعيدة كثيرًا من لبنان

فاجابهُ كبير الرهبان ان اصل هذا الدير قديم جدًّا ولا ريب انك عند وصولك الى هنا لاحظت أخربة الهيكل الكبير ففي هذا الهيكل كان الفينيقيُّون يعبدون اله البعل الذي عبدهُ الرومـانيُّون بعدهم ولقبوهُ بالمشتري. وقد كان هذا الهيكل كسائر المباني الوثنية المشيدة في الجبال عشًّا للدعارة ومرتعًا لانواع الفساد. فلما اكتحل قسطنطين الكبير بضياء النصرانيَّة صرف همتهُ في بادئ الامر الى ازالة هذا الشر فأصدر أوامرهُ الشديدة بهدمهِ ولكن لم يوجد من يجسر على تنفيذها لان الاهالي

المقيمين في جوارهِ كانوا متعلقين بهِ محبين لبقائهِ على حالتهِ ولذلك طردوا اقبح طردٍ من ذهب اليهم من المرسلين اصحاب الغيرة ليزيلوا اوهامهم في شأنهِ لا بل انهم جرَّعوا بعضهم كاس المنيَّة ايضاً. وكان برج صافيتا يدعى وقتئذٍ « أرجير وكسترون » ولم يكن يُشاهَد المسيحيُّون في محل سواه من هذه الجبال لانهُ كان مركز الحاكم العام على الناحية من قبل الامبراطور. ودام هذا الهيكل نحو قرن بعد وفاة الامبراطور غير ان عدد زائريهِ كان قد تناقص قليلاً فأمر الامبراطور ثاودوسيوس الكبير بهدمهِ وقلب ما كان فيهِ من الأصنام

— وهل أتت اعمالهُ بما كان مأمولاً من النجاح ؟

— ان كل ذلك لم يُسفر عن شيء لانهُ بقي في هذه الجبال عدد غفير من الوثنيين كانوا يزورون خرَب الهيكل ويقدُمون فيهِ الضحايا على مذابح ينصبونها في الفلاء. فلما علم بما هو جارٍ اساقفةُ حمص وحماة واريتوزه (الرستن) ولاريسا ولاذقية لبنان(١ وابومنية وباعنتل ومريمين وسائر المدن اخذوا يجدُّون في البحث عن افعل الوسائل واقواها لاستئصال ما كان باقياً من الآثار الوثنية. وكان ذلك بعد سنوات قليلة لوفاة القديس المعظم مارون الناسك الذي كانت كل سوريَّة الشماليَّة تتحدث وقتئذٍ بفضائلهِ السامية وكيف انهُ اقام مع تلاميذه بالقرب من هيكل للاصنام فحوَّلهُ الى كنيسة لعبادة الأله الحقيقي (٢ فقرَّت اراء الاساقفة على معالجة داء هذه الجبال بالعلاج الذي اصاب نجاحاً في بلاد قورش. وكان بالقرب من هيكل بيتوكيكي بناء كبير

١) لاريسا تدعى الان شيجر ولاذقية لبنان كان مركزها في تل نبي مند

٢) راجع ثاودوريطوس في تاريخ الرهبان

لسكنى كهنة الهيكل المذكور فحوّلوه الى دير للرهبان وفي عهد الصليبين التجأ اليهِ فريق من ابناء القديس مبارك الذين نحن خلفاؤهم الآن في هذا المقام

— قد فهمتُ كل ما اوضحتهُ لي ايها الاب المحترم وعرفت الآن نوع الهندسة الملتزمة في هذا البناء وبان لي سبب تصوير الجنّ والنسور التي اراها منقوشةً على جدران هذا الدير ٠ وبينما كان احد الرهبان يهمّ ان يملأ لهُ الكاس للمرة الثالثة حوّلها عنهُ قائلًا : يكفي ما قد شربتهُ ايها الاب المحترم وينبغي ان لا اذهل اني في نهار غدٍ لا بدّ لي من مبارحة حصن سليمان وكل عاقة تحصل تأتي بضرر بليغ فان القوم في بشراي يعدُّون ساعات غيابي عدًّا وينتظرون عودتي بفارغ الصبر

فلما رأى الرهبان الحاح ضيفهم قام أحدهم مسرعًا الى غرفة الرئيس فلم يجده فسار الى الكنيسة فرآه مقبلًا على التأمل والصلاة العقلية ٠ وكان الرئيس رجلًا فاضلًا وراهبًا تقيًّا لا يخرج من قلايتهِ الّا الى الكنيسة للصلاة او الى املاك الدير القريبة لمزاولة اعمال الفلاحة

٣

كان الاب يوحنا رئيس دير مُرْت تقلا شخصًا نادر المثال يبدو على وجههِ من ملامح الاعيان والكبراء وفي حركاتهِ من اساليب الكياسة والظرف التي كان يجتهد في اخفائها تحت برقع السذاجة ما يدل دلالةً واضحةً على انهُ خالط الاشراف قبل لبسهِ الثوب الرهباني وفضلًا عن ذلك فقد تجمَّل بمعارف واسعة وكان ما خلا العربيَّة والسريانية واليونانية يجيد كثيرًا من لغات المغرب

واما قامته فكانت مع طولهـا مستقيمة كعالية الرمح بالرغم عن بلوغهِ الخامسة والسبعين من العمر وفي بعض الاحيـان كانت تلوح في عينيهِ ومحيّاه هيأة السلطة والامر غير انهُ كان ينتبه لها في الحال فيقطعها بالابتسام. ولو قدرنا انهُ لم يكن رئيساً لكان من الممكن تمييزهُ حالًا عن الرهبان المحيطين بهِ فقـد كان يفوقهم بسامي مداركه اكثر مما كان يفوقهم بطول قامتهِ

ولم يكن احد من الرهبان يعرف اصل الاب يوحنا معرفة اكيدةً. وكان اذا تكلم العربيـة يظهر في كلامهِ شيء من الرطانة ينبئ بكونهِ غريباً عن اللغة. وغاية ما كان قدماء الرهبان يعلمونهُ عنهُ هو انهُ منـذ اعوام عديدة اتى من لبنان طالباً قبولهُ في دير حصن سليمان . اما قبـل ذلك فلم يكن احد يدري بشيء من امره لاسيّما وانهُ كان يحترز كل الاحتراز من التصريح باسمهِ قبل ترهبه ولهذا كان اخوتهُ الرهبان يتوقون بمزيد الرغبة الى تمزيق حجاب الخفاء عن حقيقة حالهِ. وكان قد شاع بينهم انهُ رجل من ابناء أُسرة شريفة جداً في بلاد الغرب قام منها عدد من الملوك فحكموا اورشليم في عهـد الصليبين وانهُ لما جاء ذات يوم الى زيارة قبر السيد المسيح احبَّ ان يدفن مجد اجدادهِ وفخارهم بالحيازه الى الرهبانية

هذا ما كان يتحدث بهِ الرهبان المذكورون وقد اتفق لأحدهم انهُ اشار ذات يوم بحضور الرئيس المذكور الى شرف أُسرته اشارات طفيفـة فلاقى منهُ توبيخاً مرّاً اذ قال لهُ: هل تجهل ايهـا الاخ ان الراهب ينبغي ان يموت عن الدنيا وانهُ ما عاد يحق لنا ان ننتبه الى ما وضعهُ المجد العالمي من الامتيازات واذا كانت المسـاواة واجبةً على أحد فهي على الرهبان

اوجب لانَّ الفضيلة في الدير هي الوسيلة الوحيدة للامتياز

غير انهُ بالرغم عما اتصف بهِ الاب يوحنا من الاتضاع كان الاعتبار المحفوف بهِ من قبل بطريرك لبنان والمقدم رزق الله والاب غريفون يُدني الاشاعات السابق ذكرها الى الصدق ويقرّبها من الحقيقـة لاسيَّما وقد عُرف انهُ تولَّى مدة من الزمن تهذيب اولاد مقدَّم بشراي. ولما شاهـد اللبنانيين يغالون في اكرامهِ فرَّ الى احدى المحابس في وادي قديشا فاختبأ بها. وكانت محبسته هناك عبـارة عن غارٍ من الصخر معلق بين السماء والارض فقضى زمناً وهو يعيش عيشة الملائكة الابرار. ولكن لما دري بهِ الناس بادر في الحال فاتى يطلب ملجأً في هذه الناحية المجهولة من جبل اللكَّام حيث صار قدوةً للرهبان ومثالاً لهم في التواضع والكفر بالذات

وكان الاب الموما اليهِ مع بلوغهِ الخامسة والسبعين من سنهِ يحافظ كل المحافظة على الصيامات بأسرها سواء كانت مفروضة من الكنيسة او من قانون رهبانيَّتهِ ولذلك لم يكن يخـلّ بشيء منها بل كثيرًا ما كان يبالغ فيها. ثمَّ انهُ بالرغم عن خشونة عيشهِ وشدَّة تقشُّفاتهِ كان بشوش الوجه كثير المؤانسة للرهبان مرؤوسيهِ ولغيرهم من الناس واماَّ الفقراء فقد كان يحبهم محبة خاصةً ويجزل لهم الصدقات. وكان في علائقه مع عظماء الارض وقورًا حازماً ولكن مع لطف ودمـاثة اخلاق. يرقّ لمن اصابهُ الدهر بحوادثهِ فيخاطبهُ بما لا مزيد عليهِ من الاكرام ولم يأتهِ قط منكوب الّا واسعفهُ بما استطاع اليهِ سبيلاً مع الاعتذار لهُ عن عدم مقدرتهِ على اكثر من ذلك

وكان في سنوات الخصب يأخذ من غـلال الدير ما يكفي لمعيشة الرهبان ويخصِص البـاقي للمحتاجين والفقراء من ايَّة امَّة كانوا. ولهذا

كان المذكورون من مسيحيين واسماعيليين ونصيريَّة يأتون افواجاً الى باب الدير طالبين السماح لهم بالاقامة في املاكهِ ليخلصوا من ناب الفقر ومظالم الوجهاء في تلك الناحية فكان يجيب سؤلهم بكل قبول مُفيضاً عليهم كنوز شفقتـــهِ وواضعاً تحت تصرفهم ما لهُ من المعارف الطبيَّة . ولمَّا فشا الطاعون في سوريَّة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر جعل ديرهُ كمستشفى للمصابين اذ اخذ هو ورهبانهُ يخدمونهم نفساً وجسماً بما لا مزيد عليهِ من العنـــاية والرحمة حتى ذهب الكثيرون من الرهبان شهداء الغيرة والمروءة

وبالنظر الى هذه الفضائل والاعمال العظيمـــة انتشر صيت الرئيس المشار اليهِ وعلَت كلمتهُ في كل الجهات المجاورة حتى ان جميع السكَّان في كل من جبل عكار وجبل اللكام وجبل لبنان كانوا ينزلونهُ منزلة قديس ويجلُّونهُ ويعتبرونهُ كذلك وكان هو مع ذلك وديعاً متَّضعاً كأنهُ يجهل فضل نفسهِ ولا يعلم بشيء من تلك السمعة المستطيرة والوجاهة الكبيرة اللتين اكسبتهُ اياهما محامدهُ واحساناتهُ الى ذوي البأساء

وكان اذا اقبل على الصلاة ومناجاة الخالق عزَّ وجلَّ فضَّلها على كل خير في الدنيا فكانت تمرُّ عليـــهِ الساعات الطوال دون ان يفتكر في الرقاد . وكثيرًا ما كان اخوتهُ الرهبان متى هبوا صباحاً يجدونهُ جاثياً أمام الهيكل مثلما تركوه بعد صلاة نصف الليـــل . اما الغنى الذي يطمح اليهِ الناس وينضون ركاب الجد لاجل تحصيلهِ فكان يمقتهُ مؤثرًا عليـــهِ الفقر والحاجة ولهذا لم يرضَ قط ركوب الخيول الاصيلة التي كان منها عدد غير قليـــل في اصطبل الدير مهدًى اليهِ من مقدمي الجبل وامرائهِ بل كان اذا

عانى سفرًا الى النواحي المحيطة بالدير لاجل نشر بشارة الانجيل يذهب ماشيًا او يركب حمارًا

فلمَّا دخل هذا الاب القديس الى قاعة الضيوف بادر الرسول فوقف اجلالًا وقبَّل يديهِ ثم جثا سائلًا اياه ان يصلّي على رأسهِ . فبعد ان سألهُ الاب عن سفرهِ واستعلم منهُ عن اخبار المقدَّم رزق الله قال لهُ الرسول :

ان سيدي ومولاي المقدَّم رزق الله يلثم يديك ويقدّم لابوتك واجبات الاحترام ولمَّا كان قد نُكب بوفاة شقيقهِ المقدّم عبـد المنعم فهو يلتمس منك ومن سائر الرهبان الصلاة من اجلهِ . وبما ان الشعب اللبناني باسرهِ قد اختارهُ ليكون خلفًا لشقيقهِ المذكور في القدَّمية يرجو من ابوتك ان تتكرَّم عليهِ بزيارةٍ لانهُ يريد في مبادئ حكومتهِ ان يرتشد بمشوراتك ونصائحك الحكيمة . وهو يعلم حق العلم كم تأبى التداخـل في المسائل الدنيويَّة وكم يشقّ عليك ترك ديرك والانقطاع عن معيشة المطالعة والتأمل غير انهُ يتوقع منك ان لا تضنَّ عليـهِ باسعافك ونجدتك في هذا الوقت الصعب والزمن الحرج . واذا شاءت ابوّتك ان تتكرَّم بقراءة هذه الرسالة المخطوطة بيد المقدم رزق الله عرفتَ منها صوابيَّة طلبهِ الذي يعود بلا ريب الى مجد الله

٤

قال الرسول هذا الكلام واخرج من جيبهِ رسالةً عليها من خارج ختم المقدَّم رزق الله ودفعها الى الاب يوحنا الذي بعد ان اجال طرفهُ فيهـا ظهرت على وجههِ امائر الحزن الشديد فتنهد وبكى حتى سقطت دموعهُ على خدّيه مبلّلةً لحيتـهُ البيضاء الطويلة ثم صرخ قائلًا :

يا لشقائك يا لبنان وماذا حلَّ بايمان اجدادك الصلحاء آه كيف دخلت الذئاب الخاطفة الى حظيرة الشاء

فلمَّا سمع الرهبان كلام رئيسهم اخذهم الرعب والقلق فتجمَّعوا حولهُ وسألوهُ باحترام ان يخبرهم عن داعي حزنهِ . فاجابةً لالحاحهم قرأ لهم نصَّ رسالة المقدَّم رزق الله

وكانت تشتمل على اخبار مؤلمة تمزق القلوب وتفتّتها حسرةً على سلامة الايمان لانَّ المقدَّم انبأ فيها الاب يوحنا الذي علَّمهُ وهذَّبهُ وكان بمقام والدهِ ان اليعاقبة الذين ابعدهم اخوهُ وشتَّتهم ومنعهم عن نشر تعاليمهم الفاسدة بين اهالي لبنان اخذوا من بعد وفاة اخيهِ المذكور يرفعون رؤوسهم فاستقدموا من القدس الشريف احد اساقفتهم المدعو ديوسقوروس (١ وانتشروا في اكثر نواحي الجبل يبثون سموم عقيدتهم الملتوية وقد استولوا على ثلاثة اديار ويُخشى ان تزيد صولتهم ويتسع نفوذهم فيعسر كبحهم . وختم المقدَّم رسالتهُ بقولهِ انهُ مستعدٌ لتضحية كل نفيس محافظةً على سلامة الايمان الكاثوليكيّ وتوطيدهِ غير ان الظروف تقضي عليهِ بان يستعمل كل احتراز ممكن لسببين مهمَّين: اولهما ان ابن اخيهِ قد اظهر ميلًا عظيماً للشيعة اليعقوبيَّة . وثانيهما ان سلطتهُ لم تكن قد توطدت على اركان راسخة لان نائب طرابلس (٢ ابى ان يعترف بترقيتهِ الى مقام المقدَّميَّة زاعماً انهُ قد تلقى اوامر من مصر بعدم اقرارهِ في هذه الرتبة . وقد صرَّح ان ذلك كلهُ ناتج عن مساعي اليعاقبة اعدائهِ ولذلك يسأل الاب يوحنا ان يذهب اليهِ لكي يمدَّهُ بنصائحهِ الحكيمة

وكانت في اسفل الرسالة كتابة أُخرى باللسان الافرنجي هذا تعريبها:

---

١) تاريخ الموارنة للدويهي ١٣٩ ٢) راجع صبح الاعشى للقلقشندي

« لا تتأخر عن القدوم الينا لان مجد الله يستدعي حضورك واملي عظيم انك تضحّي طمأنينتك الشخصية في سبيــل الديانة . اخوك بالرب فرا غريفون الفلمنكي الراهب الفرنسيسي قاصد الكرسي الرسولي . من محبسة مار سركيس في بشرّاي »

فلمّا فرغ الاب يوحنا من قراءة الرسالة التفت الى الرهبان المحيطين بهِ قائلًا : « ماذا ترون ايها الاخوة الاحباء هل بعد ثلاثين سنة صرفتُها في الوحدة استطيع ان اقتحم ضوضاء العالم وهياجهُ او ليس الاحرى بي ان اسمع وصيّة الانجيــل « فاترك الموتى يدفنون موتاهم » أبدوا لي رأيكم ايها الاخوة وخلّصوني من الحيرة التي انا واقع فيها

امّا الرهبان فقــد اجمعوا على القول بانهُ لا يستطيع فقط بل يجب عليهِ ان يسارع لنجدة الديانة المهدَّدة . ثمَّ زاد احد متقدّمي الرهبان على كلمات الباقين قولهُ : « كيف تقدر على الارتياب متى كان رجل فاضــل قديس مثل فرا غريفون يدلُّك على ما يجب عملهُ ؟ . وقد كان في امكانهِ ان يأمرك امرًا باسم الكرسي الرسولي ولكنهُ رأى ان الظروف ومحبتك للكنيسة هي سبب كافٍ . فاذهب اذًا يا ابتِ لان الله هكذا يريد »

فأثّرت كلمات الراهب في الاب يوحنا ذاهبةً من قلبهِ كل مذهب واعتقد ان الله اوضح لهُ ارادتهُ بفم الراهب المذكور فالتفت الى الرسول قائلًا :

تسافر غدًا وتبشّر مولاك بقدومنــا ونحن نلحق بك مجدّين في السير على قدر ما تسمح لنا الشيخوخة بالسرعة

— ان مولاي قد امرني ان اعود في صحبة ابوّتك محافظةً عليــك ووقايةً لك من الاخطار . ولا يخفى عليك ايها الاب المحترم انهُ لا امان

في الطرق التي نمرُّ عليها. وقد حرَّضني الكثيرون عند قيامي من برج صافيتا ان ألازم الحذر والانتباه فقد بلغهم ان زمرة من خيالة الاسماعيليين خرجت من قلعة مصياد واقامت الكمائن على طول الطريق اصطيادًا لابناء السبيل

— لا بل ترجع يا ولدي حالًا الى مولاك المقدَّم في بشراي لاني واثق بان الله تعالى اذا كان معنا لا نخاف من احد حسب آية داود النبي التي رتلناها في صلاة هذا المساء بعينهِ. ثمَّ اننا نحن الرهبان المساكين اي شيء نخشاه من قطاع الطرق. وفضلًا عن هذا فاني اعرف امير قلعة مصياد وقد عالجت بكر اولادهِ وباذن الله شفيتهُ من مرض عضال. واماَّ النصيريَّة فانهم كثيرًا ما يزورون كنيستنا المشيَّدة على اسم القديس جرجس ويأتون اليهِ بتقادمهم وفي اغلب الاحيان ينذرون لهُ ابكار قطعانهم حتى بناتهم ايضاً ثم يشترونها منهُ بالدراهم التي يؤدونها بكل امانة لكنيسة الدير. وفي كل سنة يتجوَّل رهباننا في قراهم ليجمعوا نذورهم للقديس (١ وعلى ذلك فأرِح بالك من هذا القبيل واذهب الان فارقد مطمئنًا لانك آتٍ من محلّ بعيد ومضطرّ ان تعود اليهِ غدًا

فقبَّل الرسول يد الاب يوحنا ووضعها على رأسهِ وتنحَّى وذهب الاب المذكور مع رهبانهِ الى الكنيسة لاقامة صلاة الليل. وكانت الزوبعة ذاك الحين تزيد هياجاً واحتداماً والريح تتضاعف شدَّة وهبوبًا والامطار تسقط سيولًا جارفة يصاحبها قصيف الرعود التي كان لصداها زمجرة هائلة في الوهاد القريبة من الدير

وكانت تراتيل الرهبان تتغلَّب في بعض الاوقات على صوت

---

١) تاريخ وديانة النصيريَّة للمسيو دوشو

الزوبعة . فتتصل الى آذان المسافر الذي ما لبث ان تسلّط عليهِ النعاس فنام مستسلماً للاحلام وما عاد يسمع لا اصوات الصلاة ولا زمجرة الرياح

٥

ولمّا لاحت انوار الفجر على ذرى الجبال التي قامت من فوقها قُبب مزارَيْ النبي متّى والنبي صالح كانت الظلمة مخيّمةً بعــدُ على وادي حصن سليمان وديرُ القديسة تقلا كأنّهُ راقد ما بين الغابات المحيطة بهِ من شجر السرو والشربين . ففي تلك الساعة فُتحت بوّابة الدير فخرج منها الخيّال الذي كان قد دخل في الليلة السابقة فبعد ان سقى فرسهُ من العين الصافية النابعة في جوار المحل بادر الى امتطائها عائدًا الى برج صافيتا . وكانت الزوبعة قد هدأت وارسلت غابات الصنوبر عرفًا عطريًا منعشًا فكان الخيّال يستنشقهُ بلذة وهو ينشد الاغنيــة التي سبق لهُ انشادها بالامس :

لبنانُ ملجا النصارى مأمنٍ الرهبان
حصنٌ حصين وحامي حوزة الايمانْ
الحسن فيهِ تجمّعْ وارزهُ فتّانْ
وماؤهُ كوثريٌّ واهلهُ شجعانْ

وما كان غير قليل حتى قُرعت الاجراس فوقف الخيّال ورسم علامة الصليب باحترام ثم نزل في شِعب ضيّق كثير الانحدار مع وعورةٍ

وفي الوقت نفسهِ امتلأت كنيسة الدير انوارًا وعلت فيها التراتيل والتسابيح وبدأ الرهبان بتلاوة صلاة الصبح

وكانت هـــذه الكنيسة فسيحة الارجاء جميلة الشكل على نسق الكنائس المارونيَّة القديمة اي انها كانت منقسمة الى ثلاثة اسواق ينتهي كل واحد منها بحنية وقد صوَّروا الله الصباؤوت في الحنيـــة المتوسّطة جالساً على عرش العظمة كما رآهُ النبي حزقيال ومن حول العرش اربعـــة حيوانات ومزَّية مع الملائكة وقوفاً يقدّمون لهُ البخور في مباخر من ذهب ويترنّمون لهُ بالتسابيح والتماجيد

وكان المذبح منصوباً في وسط الخوروس وهو عبارة عن بناء مستقيم الزوايا تعلوهُ قبَّة جميـــلة المنظر على اربعة اعمدة في رأس كلّ عمود تمثـــال يشخّص الملائكة وفوق القبة تفاحة من ذهب وفوق التفاحة صليب

وكان الخوروس مفصولًا عن الدار بدربزين من خشب ذي نقوش وثقوب على مثال الشعريَّة وقد فُتحت فيهِ ثلاثـــة ابواب في مقـــابلة الاسواق الثلاثـة لاجل الدخول منها الى القدس. وكان الدربزين مزَّيناً بصور كثيرة على الاسلوب البيزنطي تمثل السيد المسيح والعذراء المباركة والرسل مع القديسين المعروفين في جبل لبنان

وكان سقف الكنيسة مع جدرانها من داخل مصوَّراً بصور بديعة بينها كتابات كثيرة سريانية خُطَّت بالقلم الاسطرنجيلي وكان يتدلى من السقف بسلاسل من نحاس مُذهب قناديل كثيرة من الفضة مع عدد من بيض النعام. ولم يكن في اسواق الكنيسة من زينة سوى ما تقدَّم ذكرهُ لانها كانت خاليةً فارغة لا مقاعد فيها ولا كراسي. وقد نُصب بالقرب من الدربزين كرسي للرئيس ولهذا كان الرهبـــان مدَّة صلواتهم الطويلة

لا يستندون الى غير العكاكيز التي هي عبارة عن عصي طويلة تنتهي بخشبة معترضة (١

هذه هي من داخل كنيسة حصن سليمان التي كانت في القديم معبدًا لاله الشمس ثم تحوَّلت الى هيكل للاله الحق على اسم القديس جرجس

فلمَّا تمت الصلاة لبس الرئيس غفارة كبيرة مع سائر ملابس القدس وشرع في تلاوة القدَّاس الالهي على موجب الطقس السرياني القديم يعاونهُ اثنان من الرهبان لابسان بطرشيلين طويلين فكان يقول الالحان السريانية بوقار وجلال والرهبان يجاوبونهُ على ذلك. ولمَّا حان وقت التناول اقتربوا الى المذبح فاتخذ الرئيس ملعقة صغيرة من الذهب وقرَّبهم سرَّ الافخارستيا المقدَّس تحت الشكلين (٢

وفي ختام القداس ترنموا ايضًا ببعض انغام سريانية ورتلوا شيئًا من المزامير ثمَّ خرجوا من الكنيسة واحدًا بعد آخر ذاهبين الى الاهتمام باعمالهم اليومية التي كانت عبارة عن فلاحة الارض ونسخ الكتب العديدة السريانيَّة

واذ ذاك همَّ الاب يوحنا بالسفر فهيَّأ في الحال ما يلزمهُ وامر ان يؤتى بالحمار الذي كان لهُ عادة بركوبهِ. واذ ذاك حضر شاب فخرَّ راكعًا على قدَمي الاب المذكور وسأَلهُ بالحاح ان يأذن لهُ في مصاحبتهِ

وكان الشاب من بلاد جبيل اتى من بضعة اشهر الى الدير منساقًا

---

١) راجع منارة الاقداس للدويهي ١: ١٠٢ و١٠٤ و ١١٣ و ١٢١ — والمشرق ٣ — كنائس لبنان القديمة

٢) راجع مقالة المشرق المعنونة قرا ثريفون (١ : ٥٩) ثمَّ كتب الموارنة الطقسية من مطبوعة ومخطوطة

اليهِ بما سمع عن الاب يوحنا من العلم الجزيل والقداسة الرائعة. وكان اسمهُ جبرائيل بن القلاعي (١

ومع انهُ قد اتى الدير ناويًا ان يعتنق الحياة الرهبانية اقام فيهِ كل تلك المدة مختبرًا دعوتهُ ولذلك استمرَّ لابسًا ملابس العوام لانهُ كان يودّ قبل الجزم بالامر ان يستشير فرا غريفون ويعمل بموجب نصيحتهِ وبما ان الاب يوحنا كان يحبهُ كثيرًا نظرًا لما تزيَّن بهِ من الاوصاف الحسنة رضي عن طيبة خاطر ان يصحبهُ في رحلتهِ هذه

وكان ابن القلاعي كما تقدم القول شابًا غضَّ الاهاب وقد عرضت لهُ مع حداثة سنّهِ بليَّة تستحقّ الذكر وهي انَّهُ لمَّا كان وحيدًا لابوين من ذوي الثراء واليسار خطبا لهُ ابنة من ذوات قرباه جميلة المنظر. فلمَّا وافت ليلة العرس واحتشدت النساء حول الصبية المخطوبة يجلونَها حسب عادة اهل البلاد حدث ان احداهنَّ أدنت اليها من غير انتباه قنديلًا فعلق اللهيب باطراف منديلها فسرى الى سائر ملابسها وتسارعت النساء اليها لاطفاء النار فما قدرنَ على شيء وهكذا ماتت الصبية بعد ساعة من احتراقها ما بين آلام مخيفة تتفطَّر لها المرائر حزنًا واسفًا

فلمَّا أُصيب جبرائيل بهذه البليَّة التي جرحت اعزّ عواطفهِ واحبَّها اليهِ زهد في الدنيا وودَّعها وداعًا ابديًا وفي اليوم التالي غادر سرًّا وطنهُ لحفد ذاهبًا الى جبل اللكام

وكان الرئيس قد اقام الاب جرمانوس وكيلًا عنهُ في ادارة شؤون الدير مدَّة غيابهِ ولذلك كرَّر عليهِ قبل السفر ما كان قد اوصاهُ بهِ قبلًا من العناية بالفقراء والمحتاجين واضافة المسافرين واكرامهم مع اكمال نسخ

١) تاريخ الدويهي ٣١٢

الكتاب الذي كان قد بدأ هو نفسهُ بنسخهِ . وكان تأليفًا تاريخيًا جزيل الاهميَّة لاحد قدماء كتبة الموارنة المعروف بقيس الماروني وموضوعهُ اصل الدنيا والمدن والامم وملوك الروم وغيرهم مع ذكر اخبارهم وهو ينتهي بذكر خلافة المكتفي (١ . وبما ان نُسَخهُ كانت قد عزّت كثيرًا لم يتوصَّل الرئيس الى نسخةٍ منهُ الّا بعد الجهد والمشقَّة والبحث الكثير فابتاعها بثمن غالٍ وابتدأ بنسخها

وبعد ذلك غادر الدير مع رفيقهِ وما كان غير قليل حتى غابا عن الابصار ما بين اشجار الغاب

٦

وكان قصر المقدم رزق الله في اجمل موقع من لبنان بالقرب من منبت الارز القديم في وادي بشرَّاي الذي يسبي الابصار بحسنهِ (٢ فهناك عيون باردة تتسلسل من الثلوج المكلِّلة لهام الجبال القريبة فتتفرَّع الى جداول غزيرة تسقي تلك الاراضي الخضرة او تتجمَّع الى احواض طبيعية في تجاويف الصخور . وهناك اشجار عظيمة تبسط اغصانها في كلّ جهةٍ وناحيةٍ فتارةً ترسلها الى بعيد وطورًا تسمق بها نحو السماء كأنها اهرام من الخضرة

فتحتَ هذه القبة الناضرة تشيَّدت منازل المدينة مرصوصةً بعضها فوق بعض على دارةٍ صغيرة وقد اشرفت عليها قُبَب الكنائس الكثيرة

١) المسعودي : كتاب التنبيه والاشراف (ص ١٥٣)

٢) ليكيان في الشرق المسيحي

وقصر المقدَّم وسائر قصـور الامراء بني عمّهِ. والى الشمال الشرقيّ صخور كلسيّة بيضاء قد انتصبت في الجوّ بهيئة عموديّة ونُقرت فيها معـابد ومحابس عديدة منقوش على ابوابها رسم الصليب المقدّس (١ وابهج هذه المعابد واعظمها رونقًا كنيسة مار سركيس وهي كلها منقورة في الصخر (٢. وقد اغتنم القوم وجود نتوء خفيف في الصخر فبنـوا بعض غرف يُقيم فيهـا الان راهب من قانون الآباء الكرمليين. وفي القرن الخامس عشر كان فرا غريفون ورفيقهُ فرا فرنسيس (٣ قد اتخذا هذه الغرف نفسها محلًّا للسكنى وقتما كانت الشؤون الرسولية لا تستدعيهمـا الى التجوال في لبنان

امَّا المقدَّم رزق الله فكان قد شيَّد قصرًا فسيحًا في الطرف الغربي من بشرَّاي عند مدخل وادي قاديشا وكان الى جانبهِ من احدى الجهات منحدَر خفيف يضمّ الصخر الذي قام عليـهِ القصر الى دارة الجبل ومن الجهة الاخرى كان لهُ سور عالٍ ينتهي بصخر عظيم منتصب عموديًّا فوق هوَّة هـائلة جدًّا. وقد عُني البناؤون ففتحوا للقصر في انحائهِ الاربعة طيقانًا وشبابيـك تُطلّ عددَ الساعات على مناظر مختلفـة الاشكال ومشاهد تفتن العين وتسبي البصر مثل هوَّة وادي قديشا وغابة الارز مع كثير من الحدائق والمروج النضرة

وكان اذا جاء الصيف انتشرت في تلك الانحاء مشـاهد الخصب والريف فتتصل الاثمار بالقطاف والزروع بالدياس. واذا دنوتَ من ابواب

---

١) بروكارد والدويهي
٢) المشرق ٣. كنائس لبنان القديمة
٣) المشرق ١ . فرا غريفون ولبنان

المنازل المعلّقة في جانب الجبل رأيت الدوالي مشتبكةً على شجر السنديان والجوز ومرسلةً فوق المجازات والمعابر اقواساً من الخضرة

وكان لقصر المقدَّم باب مقبَّب يؤدي الى باحة داخلية وفوق الباب صورة اسد منقوش وهو شعار اتّخذهُ الامراء في سوريَّة من عهد السلطان بيبرس (١ واماَّ الاسوار فقد بُنيت من حجارة ضخمة تضاهي حجـارة الابنية التي شيَّدها الجبابرة القدماء. وكان في وسط الباحة المذكورة فسقيَّة من الرخام الابيض باربعة عمد من الحجر المانع اتوا بهـا من خراب احد الهياكل القريبة. وكانت هذه الباحة عادةً مجتمعاً للخيل والحمير والجمال. فالخيل الاصيلة المختصة بمشائخ الجبل تُربط وحدها في حلقات من الحديد مغروسة بالحيطان وكانت مزيَّنة بالسروج المذهبة والحلي الفضيَّـة على رؤُوسها واعناقها. والى جانبهـا تُربط خيل التجاَّر الوافدين من طرابلس والبترون ثمَّ الحمير المختصة ببعض الرهبـان. وحول الفسقية تبرك الجمال وتتناول علفها من اكياس ملأى بالكرسنـة تُفرش امامها ثم تأخذ في الاجترار رافعةً اعناقها الطويلة ومُسمعةً اصوات الجلاجل المعلقة فيها

وكان المكارية والجمَّالة يجلسون بالقرب من دوابهم يتجـاذبون اطراف الحديث او يلعبون بالمنقـلة تقطيعاً لساعات الانتظار الطويلة وكانت امركة وقتئذٍ محجوبةً بغياهب الخفـاء فلم تكن قد جادت على العالم بتحفة التبغ لاجل تدخينه في ساعات الفراغ

وقد شوهد اذ ذاك في احدى زوايا الباحة رجل غريب الحركات علاهُ الوسخ وزكبتهُ القـذارة الكريهة. وكان لهُ انف احجن اشبه بالقوس

---

١) راجع مجلة المجمع المصري Institut égyptien سنة ١٨٨٠ ص ٨٣ . والمشرق ٢ : ٣٠

وذؤابتان تنوسان ابدًا فوق صدغيه فكان كل من يراهُ يظنّ انهُ يهودي ويتقوّى ظنّهُ بذلك اذ يعلم انهُ يُدعى نثنائيل. ولم يكن احد يعرف من امر هذا الرجل واقامتهِ هناك سوى انهُ قد سعى مرارًا في مواجهة الامير غير ان الامير كان يجاوب دائمًا انهُ يكره مقابلة المرابين. ومع هذا فان المذكور لبث منتظرًا دون ان يظهر ملالةً او مساءةً من اقوال التهكُّم والاستهزاء التي يسمعها من المكارية والخدم. وكان جامدًا ساكنًا كالجارح من الطير يرصد الفرصة للانقضاض على الفريسة وفي مدّة اقامتـــهِ الطويلة بباحة القصر لم يغفــل عن ملاحظة الواردين والذاهبـــين باهتمام لا مزيد عليهِ. وهذا كل ما كان في امكانهِ عملُــهُ لانّ نظرهُ كان محجوبًا برواق يفصل هذه الباحة الاولى عن الباحة الثانية التي في اقصاها قام القصر الحاوي معاهد الامير رزق الله وأُسرتهُ

امَّا هندسة القصر المذكور فمتداخلة مختلطة فقد كانت فيهِ قناطر على النسق العربي القديم وحنائر على النسق الغوطي صنعها البنَّاؤون الافرنج الذين رمّموهُ في مدة حروب الصليب. وكانت في واجهتهِ بعض افاريز ضاعت معها مساواة الخطوط وأُقيمت عليها رواشن رشيقة يتخيَّلها الناظر منتصبة في الهواء وقد ارتبط بعضهــا مع بعض بعمد صغيرة من الرخام الابيض. امَّا داخل القصر فكان عبارة عن قاعات فسيحة مبلطة بانواع مختلفة من المرمر وفوق القاعة الوسطى قبة من الزجاج الشفاف و بواسطة الدار الواسعة تتصل كلّ اقسام هــذه البناية العظيمة الجامعة بين اوصاف قصر وقلعة ومتنزَّه

٧

وكان أنَ الربيع في هـذه السنة وفد على اعالي لبنان قبل اوانهِ لان ريحًا حارة شرقيّة ما زالت تنفخ اياماً عديدة متوالية حتى اذابت الثلوج من وادي بشرّاي فبدأت الاشجار تكتسي باوراق واثمار واخذت شقائق النعمان النابتة على ضفاف النهر المتعوّج تفتح كؤوسها مستقبـلةً شمس اذار المنعشة وبخور مريم يزين الصخور والسطوح بورقهِ الجميل. وكانت الجبال القريبة تلمع ساطعةً وهي تتقطّع بين مسافـة واخرى بنُـكَت كبيرة سوداء من اشجار الارز والعذر والشربين التي كانت قد القت عنها الكفن الابيض الذي اندفنت تحتهُ مدّة الشتاء بطولهِ

وكان القوم في قصر بشراي في حركة واضطراب لان السعـاة من رجالةٍ وخيَّالة كانوا بين دقيقـة واخرى يخرجون منتشرين في الطُرق والشعاب المؤدية الى هذه المدينة الصغيرة. ولم يكن من سبب لهذه الحركة سوى الاب يوحنا الذي بلغهم خبر مجيئهِ منذ ايّام لكنَّهُ لمّا ابطأ قلقت الافكار عليهِ فسار الخيالة فرقاً فرقاً يطلبونهُ حتى التقت بهِ كوكبـة منهم عند زغرتا فاعادت احد افرادها على عجل لكي يبشر الامير بقرب من قد طالما توقّع قدومهُ

وكان ذاك النهار في قصر بشرّاي اشبه بيوم عيد بل اعظم فاستقبلوا الاب يوحنا بما لا مزيد عليهِ من التجلّة غير ان القادم بالنظر لما تحلّى بهِ من التواضع العميق والفضائل المسيحية الحقة التي سبق بيانها ودّ لو لم يحصل لهُ شيء من ذلك ولو كان في امكانهِ اجتنابهُ لما تأخر

ومن بعد وصولهِ صرف عدَّة ايام في مداولات طويلة مع المقدَّم رزق الله ولم يكن بينهما ثالث غير فرا غريفون وقد قرَّر الثلاثة اتخاذ ما يلزم من التدابير الفعَّالة منعًا لغـارة البدعة اليعقوبيَّة على الجبل. ثم ان الاب يوحنا وفرا غريفون أفهما المقـدم رزق الله الذي كان حتى ذاك الاوان متردّدًا ان وحدة الايمان هي اوكد واحسن وسيلة لحماية لبنـان وانهُ اذا استولى الانقسام على العقول والضمائر لا يلبث ان يظهر اثرهُ في الخارج فيبـذر في كل محلّ بذور الشقاق

ولقد ذهب هـذا الكلام كل مذهب في عقل المقدم ورآهُ صوابًا لاسيَّما وان الغاية التي كان يهتم بها في جميع اعمالهِ واجراءاتهِ هي ان يجعـل الوحدة سائدة بين اللبنانيين جميعًا موارنة كانوا او ملكيين بنوع ان يصير الكل شعبًا واحدًا رغمًا عمَّا بينهم من الاختلافات العرضيَّة

والحق يقال ان هذه الاختلافات كانت في تلك الايام طفيفةً بالنسبة الى ايامنا الحاضرة لان الطائفتين كانت لهما لغة واحدة طقسيَّـة وهي السريانيَّة فضلًا عن خروجهما من اصل واحد ارامي

غير انَّ المساعي في إحكام عرى الوحدة كانت لسوء الحظ تلاقي المعارضات والمقاومات من قبل بطاركة القسطنطينيَّة الذين كانوا يحاولون نشر لواء سلطتهم في سوريَّة. فلاجل التوصل الى هذه الغاية رأوا انهُ لا يكفي إبعاد الملكيين عن الغربيين بل يجب ايضًا ابعادهم عن كل ما ليس لهُ اصل يوناني بحت ومن ثمَّ اعلنوا الحرب على اللغة السريانيَّة في سوريَّة وعلى ليتورجيَّة القديس يعقوب التي عيبها الوحيد عندهم انهـا لم تكن مستعملة في القسطنطينيَّة (١

١) راجع في المشرق (٣: ٢٧٢) شهادة تيودور بلسامون وغيره.

وبينا البطاركة المذكورون ينسجون هذه الدسائس كان المقدم رزق الله يحرض الملكيين سكان الكورة وسائر اخوانهم المنبثين في بلاد جبيل والبترون (١ على ان يعترفوا بمجمع فلورنسة الحديث ويرسلوا وفدًا من قبلهم الى رومية

واحب المقدم رزق الله ان يقوي الامتزاج بين طوائف لبنان فعمد الى ترويج احد كبار اخصائهِ المسمَّى زين مع وريثة احدى العائلات الملكيَّة الوجيهة في لبنان وعرض هذا الخاطر على كلٍّ من فرا غريفون والاب يوحنا فاستحسناهُ وحثَّاهُ على اتمامهِ

غير انَّ المقدَّم كان قلقًا من جراء تصرف ابن اخيهِ عبد المنعم الذي تظاهر بالميل الى ضلال اليعاقبة (٢ ووقف كحجر عثرة في سبيل سلطة عمهِ فخاف عمهُ عواقب مقاومتهِ واطلع الاب يوحنا على ما كان. فذهب الاب يوحنا الى عبد المنعم وكان عمهُ قد سمَّاهُ مقدَّمًا لجبيل فوعدهُ هذا بقطع كل علاقة مع اليعقوبيَّة وحلف لهُ على الاناجيل المقدسة انهُ يحافظ على الامانة لعمهِ وعلى ايمان اجداده

٨

وكان في جملة الكبراء اللبنانيين النازلين وقتئذٍ في قصر بشرَّاي زَين مقدَّم البترون وهو من ابطال الجنود أظهر كثيرًا من مآثر البسالة رغمًا عن حداثة سنِّهِ. وكان عظيم القامة مفتول العضل قوي الساعد نادرةً في

---

١) الدويهي ٣٠٧   ٢) الدويهي

الشجاعة والاقدام وقد ضمَّ الى هذه الاوصاف استقامة الضمير وكرم الطباع فكانت الرعيَّة في امارتهِ الصغيرة تحبهُ وتحترمهُ وكان هو يعاملها باللطف والعدل

وقد رغب ان يصون قومهُ من غارات التركمان المقيمين في قلعة المسيلحة بوادي نهر الجوز فرمَّم من مالهِ سور البترون وقلعتها التي من بناء الصليبيين . ولاجل هذه الغاية عينها وتمكين سُبل الاتصال مع اعالي لبنان وحماية وادَيي دوما وتنورين المشهورين بخصبهما انزل جنودهُ في مركز قلعة الحصن فوق بشعلة ومار يعقوب وهكذا ايضاً فعل بقلعة سمار جبيل

فهذه الاعمال كلها مع ما تحلَّى بهِ المقدَّم زين من الاوصاف التي مرَّ بيانها جعلتهُ اخلص الاعوان واوفاهم لمقدَّم مدينة بشرَّاي فحبًّا بمكافأة اخلاصهِ ورغبةً في توثيق عرى الاتحاد بين الطوائف النصرانيَّة في الجبل احب الامير رزق الله ان يزوّجهُ براحيل احدى البنات المثريات في البلاد . وكانت تنتمي الى اسرة كبيرة من طائفة الملكيَّة يرتقي اصلها الى عيلة افرنجيَّة تُعرف بعيلة لامبرياك (١ كانت في ايام حروب الصليب قد حكمت مدينة جبيل . وكان للابنة المذكورة شقيق اسمهُ موسى يقيم لدى بطريرك الملكيَّة الانطاكي الذي رقَّاهُ الى درجة ارشيدياكون اي رئيس شمامسة (٢

وكانت راحيل آيةً في حسنها وانموذجاً مكمَّلًا في فضائلها المسيحيَّة لان ابويها عُنيا كل العناية بتربيتها وتعليمها وتهذيب عقلها . وكانا يقيمان

---

١) وكانت تدعى ايضاً « جبلة » باسم مدينة جبيل التي حوَّلها الافرنج الى هذه الصورة (راجع تأليف دوكانج Ducange)

٢) المشرق ١ : ٦١

اكثر ايام السنة في طرابلس وكانت في طرابلس مدارس مشهورة واساتذة اهل علم وصيت فكانت راحيل تدرس عليهم. ثمّ ان شقيقها الارشيدياكون الذي كان من عداد العلماء الفحول (١ تمم تثقيفها وتنويرها بالمعارف فجاءت أفضل بنات جنسها في ذلك العصر. وما عدا اللغة الافرنجية كانت تجيد التكلم باليونانيَّة والعربيَّة فضلًا عن إلمامها بعلم الفلك والرياضيات.

وقد طلب الامير رزق الله الى الاب يوحنا ان يبارك هذا القران ويقوم بحفلة الاكليل ولمَّا كان هذا الرجل القديس صديقًا لاسرة لامبرياك اجاب الطلب وتمَّت الحفلة بابهة عظيمة ورونق ما عليهِ مزيد ودامت الاعياد والافراح اياماً بلياليها. وكان كلٌّ من العروسين لائقًا بالاخر كأنهُ لم يكن يصلح الّا لها وهي لم تصلح لسواهُ

وفي مدَّة الحفلة كلها كان واقفًا بالقرب من راحيل ابوها وهو شيخ جليل القدر عبث البياض بلمّتهِ ودلَّت ملامحهُ على شرف حسبهِ فما زال هذا الشيخ يذرف الدموع حتى انتهت صلاة الاكليل فحينئذٍ فتح ذراعيهِ وضمَّ العروس قائلًا لها:

— يا ابنتي العزيزة قد اقترنتِ بمن كنت تحبينهُ وقد نجزت الآن مهمَّتي

ثم رفع يدهُ الى العلاء فقال: انَّ والدتكِ المسكينة تنتظرني فوقُ فباسمها وباسمي اباركَكما جميعاً

فقاطعتهُ راحيل وانطرحت بين ذراعيهِ قائلةً:

---

١) المشرق ١ : ٦١ و ٦٣

دع عنك يا والدي العزيز هذه الافكار المقلقة فها قد اجتمعنا الآن اثنين على محبتك واحترامك وسترى مني ومن زَين اجزل الوداد لمن هو افضل الوالدين فبدّد اذًا غيوم الانزعاج عن بالك

غير انَّ سليل اسرة لامبرياك لم يقوَ على الانعتاق من التـأثير الذي اصابهُ الّا بعد حين ثمَّ ارسل نظرة حبٍّ والديَّ في محيًا ابنتـهِ المُشرق بالجمال وعينيها الزرقاوين وغدائرها المنعقدة كأكاليل من ذهب فوق جبينها الوضَّاح وبعد ان قبَّلها بحنوّ اب شفيق قال لها :

يا عزيزتي ويا عزائي الوحيد في ايام نكبتي كوني مباركةً يا ابنتي والله تعالى اسأل ان يحفظكِ ويحميكِ

وفي اليوم التالي عاد الى قصبة اميون في ناحيـة الكورة حيث كان يقيم مدّة الصيف وكانت البركة التي جاد بها على ابنتهِ راحيل آخر بركاتهِ عليها لان ايامهُ لم تطُل بعد ذلك كما سترى

امَّا العروسان فانهما بعد تتمَّة الحفلة أقاما زمنًا قصيرًا في دار المقدَّم رزق الله ثمَّ ودَّعاهُ وذهبا الى البترون . وامَّا الاب يوحنا فسأل الامير ان يأذن لهُ في العودة الى ديرهِ فتمنَّع في بادئ الامر وحاول كثيرًا ان يبقيهُ لديهِ ولمَّا رأى ان لا فائدة من الحاحهِ التزم بالقبول واصحب الاب يوحنا بكثير من الهدايا والنفائس . على انَّ الراهب القديس كان كلما شاهد في طريقهِ فقيرًا او محتاجًا أعطاهُ ما يكفي لسدّ حاجتهِ ومن ثمَّ لم يصل الى دير مُرت تقلا الَّا وكان قد وزَّع جميع ما نفحـهُ بهِ المقدَّم رزق الله من الصلات على البائسين . ومما يحق ذكرهُ بنوع خاص هو انَّهُ قبـل وصولهِ ببضع ساعات الى الدير شاهد رجلًا ملقىً على الطريق مثخنًا بالجراح فبعد ان عالجهُ بما استطاع اليهِ سبيلًا اعطاه حمارهُ ليركبهُ وكان آخر شيء قـد

بقي معهُ . ثم انهُ بالرغم عن شيخوختــهِ ارتقى الطريق المؤدية الى ديرهِ وهو فرِح محبور

امَّا جبرائيل بن القلاعي الذي رافقــهُ فانهُ بقي في بشرَّاي وعمــلًا بمشورة فرا غريفون سافر بعد ذلك الى القدس الشريف حيث انتظم في سلك الرهبان الفرنسيسيين (١ . نعم انَّ جبل لبنان خسر هذا الشــاب الغيور على صحَّة الايمان ولكن الى حين لانهُ عاد اليــهِ فيا بعد وكان من جملة عمد الديانة فيهِ واركانها العظام

امَّا رهبان دير القديسة تقلا فانهم قابلوا رئيسهم المكرَّم بغاية الفرح والتبجيل غير انهُ كان يكره الاكرام ويعدُّه منافياً للروح الرهباني ومن ثمَّ عاد الى مسلكهِ السابق كأَنَّهُ لم يكن شيء ممَّا كان فجعل يقضي اوقاتهُ في الصلاة والمطالعة والعمل . وليقينهِ انَّ الراهب لا يجوز لهُ ان يهتم بامور الدنيــا التي هجرها تحاشى محادثة مرؤوسيهِ عمَّا عرض من الحوادث في سفرهِ الى لبنان فكانوا اذا طارحوهُ الاسئلة عن شيءٍ من ذلك يجاوبهم محرضاً ايَّاهم على الصلاة من اجل نجاح الديانة والاتحاد ما بين المسيحيين وهذا كل ما كانوا يسمعونهُ منهُ

٩

كان على مسافة ساعة من دير مُرتْ تقلا رابية من الصخر مرتفعة في الجوّ بشبه الصومعة فعــلى هذه الرابية انتصب قصر عظيم يدعى « القليعة » يرتقي تاريخهُ الى حروب الصليب . وهو من عداد القــلاع التي

١) الدويهي : تاريخ الموارنة

تشيّدت من طرابلس حتى وادي العـاصي فوق مضايق الجبال وقد بقي منها الان برج صافيتا وحصن الاكراد كانموذجين يدلّان على ما كانت عليهِ من القوّة

غير ان القصر الذي نحن في صددهِ لا يُقاس بالقلعتـين الاخيرتين ولا يُشبَّه بهما . وكانت ايدي الخراب قد عملت فيهِ اثناء حوادث الرواية التي نكتبها لكنَّ ابراجهُ كانت قائمة وقتئذٍ تطلّ على جميع ما حولها من الضواحي . وكان في وسطهِ بناية عظيمة تشتمل على منازل الامير واعوانهِ وخدمهِ وغرفة فسيحة للسلاح مع معبد لقضاء الفروض الدينيَّة

وقد حُفرت في جوانب الصخر الذي قام عليهِ القصر مخـازن عديدة وصهاريج كبيرة وحُوّط الكل بسور منيع تقطعـهُ الابراج المدوّرة . وكان هناك مضيق يربط تلك الصومعة الصخريّة ببقيَّة الجبل وفي ذاك المضيق حُفر خندق عميق وأُلقي على الخندق جسر نقَّال يُرفع ويوضع على حسب المشيئة وشُيّد في اعلاهُ حصنان قويّان لا يُرامان

امَّا الزينة في داخل القصر فكانت بسيطةً وكالحةً على حدّ امثالهـا من قصور امراء ذلك العهد ببلاد اوربّة فكان فرش القاعات لا يزيد على الطنافس الثمينة مع مجموعات من الاسلحة تذكارًا للانتصارات الماضية. وبما ان قصر القليعة قد بُني لحماية مضيق عين الشمس المؤدي الى وادي العـاصي كان اشبه بقلعة منـهُ بقصر ولذلك لم يكن في داخلهِ شيء من الزخارف واسباب الاسراف التي اشتمل عليها قصر بشرّاي . وكان يقيم فيهِ جوسلين اخصّ اصحاب الناحيـة (١ واعظمهم اقتدارًا وكان هذا من

---

١) كان هذا الاسم جاريًا عنـد اللبنانيين في مبـادئ القرن الخامس عشر . راجع تاريخ الموارنة للدويهي ص ١٣٢

سلالة الفوارس الافرنج القدماء الذين استوطنوا قبلًا هذه الجبال وقد ورث عن اجداده الغربيين اخلاق الحدَّة والاستشاطة والاستعانة في كل حادثة بالسيف. ولم يكن ذلك لشجاعة او بسالة فيهِ بل لانهُ كان حقودًا محبًّا للانتقام. وعلى هذه الطريقة كان يجري مع اتباعهِ ومع الضعفاء بالاجمال. امَّا اذا آنس من خصمهِ شدَّةً ومقاومة وعرف ان القوَّة لا تجدي نفعًا فكان يلجأُ الى الحيلة والخداع

وكان فاسد الاخلاق طمَّاعًا الى الغاية لا يفتر عن الاعتداء على جيرانهِ ضامًّا املاكهم الى املاكهِ الواسعة قاصدًا من ذلك توسيع دائرة ثروتهِ التي كانت من قبل عظيمة غير انها اصبحت الآن عقيب فحشهِ واسرافهِ الجنوني مرهونة عند بعض المرابين من اليهود في طرابلس الشام

ومع ذلك لم يجسر على الاعتداء على اوقاف الكنائس والاديار لا عملًا بعواطف دينيَّة تردعهُ بل خوفًا من بطش المقدَّم رزق الله الذي لم يكن يصبر على شيء من هذا القبيل. وكيف ينقاد الى صوت الديانة وكان قبلًا قد انقاد الى الشيعة اليعقوبيَّة آملًا ان يستعين بها على انفاذ مطامعهِ ونيَّاتهِ الخبيثة

وكان جوسلين هذا واجدًا على رئيس دير مرت تقلا حانقًا عليهِ وسببهُ ان المزارعين في اراضيهِ كانوا يفرّون منها افواجًا لما يلقون من سوء معاملتهِ ويذهبون الى اماكن أُخرى لاجل المساقاة فيها لكنهم كانوا يؤثرون الاقامة في اراضي حصن سليمان حيث كان الاب يوحنا يعاملهم كأولادهِ. وبناء عليهِ عزم جوسلين المذكور ان يثأر لنفسهِ من الاب يوحنا فوضع يده على قطعة قريبة من قصر القليعة كان جدّه قد وهبها لدير القديسة تقلا واحتج بعدم صحَّة الهبة وارسل رجالهُ فاستولوا عليها بالقوة

وكان الاب يوحنا كريمًا حليمًا يهب كل ما في وسعهِ للسائلين ويُعنى اعظم عناية بتخفيف بلايا البائسين ويُسعفهم على دفع غارات الحاجة جهد امكانهِ حتى انهُ اقصى الفقر اقصاء عن جيرة الدير كلها . اما اذا خاصمهُ احد في حقوق الدير واملاكهِ فكان شديدًا حازمًا لا يتنازل عن شيء منها لانهُ كان يعد كل ما للدير من املاكٍ نصيبًا لله ووقفًا للفقراء ويعتبر نفسهُ مدبرًا لها ومطالبًا بالمحافظة عليها فضلًا عن انهُ كان يرى ان اقلّ تهامل في امرها هو مخالف لنيَّات الواهبين الذين وقفوها على الكنيسة غير مريدين اصلًا إلحاقها باملاك الظالمين المستبدين

ولهذا احتجّ احتجاجًا حازمًا على اعتداء جوسلين ولمَّا رأى انَّ احتجاجهُ لم يجدِ نفعًا لزم السكوت غير انهُ اثناء اقامتهِ في بشرّاي اطلع الامير رزق الله على اعمال جوسلين الذي كانت تكاثرت الشكايات من ظلمهِ وعسفهِ فجاء عملهُ الاخير مُسعرًا لغضب الامير الذي عزم في هذه المرَّة على تأديبهِ وايقافهِ عند الحد المرسوم له . وعليهِ أكَّد للاب يوحنا تأكيدًا صريحًا بانهُ سينظر في المسألة ويردّ لهُ الملك المغصوب فسار الاب من عندهِ ممتلئًا ثقةً بحسن المآل وقد قيل في الامثال الانسان يفكّر والله يدبّر وقيل ايضًا ان المستقبل لله وحدهُ فبيدهِ كل شيء

١٠

— اعلم ان جوسلين رجل مقتدر فاحترز منهُ يا صاح . ففي هذا الزمان الذي نحن فيهِ لا بدَّ من ان نحسب حسابًا مهمًّا لصاحب قصر القليعة فانهُ يستطيع متى شاء ان يفرض علينا كل ما يريد من التكاليف

والمشاقّ ويمنعنا من رعاية مواشينا في جميع اراضيهِ فحياتنا اذًا وشرفنا ايضاً وكل شيء لنا هو بين شفتيهِ. واكرّر عليك القول انهُ رجل مقتدر ومرهوب

بهذا الحديث كان يتكلّم في غابات النبي شيت راعٍ قديم الأيام اسمهُ سركيس مخاطباً رفيقاً لهُ اسمهُ عبد الله أصغر سنّاً منهُ فهذا لمّا سمع كلام صاحبهِ اجاب قائلًا:

— اعترف لك انّ جوسلين رجل مقتدر ولا اعارضك أصلًا في انّهُ مرهوب ومخيف. امّا كونهُ عادلًا فهو امرٌ آخر. واعلم ان اميرنا ومولانا رزق الله هو رجل حازم للغاية لا يقوى شيء على الاعتراض في سبيل مقاصدهِ ولم نسمع ان احدًا حتى الان يشكو من عدلهِ واماً جوسلين فالكل . . .

— ألا تعلم ان جوسلين ينتمي الى اعرق واشرف أُسرة في البلاد وانّ اجدادهُ جاؤوا من نحو اربعمائة سنة من وراء البحار فاتخذوا هذه الارض وطنًا جديدًا. ثمّ انهُ غنيّ جدًّا . . .

— وماذا يهمّ الغنى والثروة وقد قال الامير « ان أحقر رعاياهُ يساوي اغنى وايسر مقدَّم تحت سلطتهِ ». وما ذلك الّا لانهُ يريد العدل لا غير

— وكيف تعمل اذا كانت لك ارض محاذية لاراضي جوسلين فامر هذا اتباعهُ ليلًا بان يغيّروا مواقع الحدود فمن اين تسترجع ارضك أما تكون قد خسرتها وتصير مضطرًّا الى الصبر على البلوى دون ان تجسر على رفع صوتك بالشكوى

— وكيف يقدر على عمل كهذا. وهب اني لا املك صكوكاً ووثائق تثبت ملكيّتي فمن اين لهُ وثائق تعارضها ؟ هذا فضلًا عن ان

الناس كلهم يشهدون باني ورثت الارض من آبائي واجدادي

— لا يتجاسر احد على الشهادة لك لان خوفهم من جوسلين يُسكت كل لسان عن ان ينطق بالصدق. أو لم يكن مع الاب يوحنا وثائق تؤيد ملكيَّتهُ فايَ شيء نفعتهُ ؟ أما يشهد لهُ اهل جبل اللكام كلهم ولكن ماذا اجداهُ ذلك هل وقف حاجزًا في سبيل مطامع جوسلين ؟. هذا وعليك الآن ان لا تنسى خطيبتك فاني عالم باهتمامك بها فضحِّ كلَّ شيءٍ في سبيل استردادها

— لا ريب انَّ اختطافها من أقبح الشناعات وافظعها ألم يبقَ اذًا في جبل اللكام رجال من ذوي المروءة والاستقامة ؟ ام هل كفَّ الامير رزق الله عن الولاية ؟ هل ماتت شرائعهُ وهجع عدلهُ ؟ اننا من قديم نعرف لنا الحقَّ في الاحتطاب من غاباتنا غير انَّ خطيبتي دخلت سهوًا منها في حمى جوسلين فاذا كانت قد اقترفت بذلك ذنبًا فكان عليهِ ان يلزمها بالغُرم. ولكنهُ بدلًا من هذا كلهِ حبسها في سجنهِ وحتى الان لم يحاكمها. ولمَّا عرف انها خطيبتي اراد في بادئ الامر ان يرهبني ثم انهُ لمَّا رأى انها جميلة احبَّ أن يغويها مريدًا ان ينزعها مني. وهل تظنّ اني اصبر على عملهِ ؟

— وماذا عسى ان تعمل ؟

— سترى ماذا أعمل لاني اذا لم أُنصَف غدًا اشخص حالًا الى المقدَّم رزق الله في لبنان فانهُ شديد على المذنبين وقد قضى من مدَّة بالاعدام على اثنين من المشائخ لتجرئهم على سلب ابناء السبيل. واخبرني احد اقاربي الذي عاد مؤخرًا من بشرّاي انهُ نسف برج مقدَّم ايطو نسفًا لانهُ كان يصادر المسافرين ويلصهم. وليس جوسلين باكبر من ان ينفذ فيهِ عدلهُ.

ولعلّهُ يظنّ ان ابتعادنا عن لبنان يمنع المظلومين عن ايصال صراخهم الى اميرهم العادل. ولكني سأُريه عكس ما يتوهَّم. ثم ان الاب يوحنا الذي هو ابو جميع المظلومين وعدني بالمساعدة

— الله ومار جرجس يعينانك

ثم التفت الراعي فرأى ان قطيعهُ من الماعز قد تشتَّت وتبدَّد فالتمس العذر من رفيقهِ وبعد ان ودَّعهُ وتمنى لهُ التوفيق ذهب الى جمع الماعز وغاب عن الابصار مختفياً ما بين اشجار الغاب

امَّا الراعي عبد الله فانهُ ذهب في اليوم التالي الى قصر القليعة فوجد الابواب موصدةً كجاري العادة فطلب من الحراس ان يرخّصوا لهُ بمواجهة جوسلين فصدّوهُ واشبعوهُ ضرباً. فصمَّم حينئذٍ على الذهاب الى لبنان فحمل عصاهُ ولفَّ بعض ارغفةٍ في منديلٍ تزنَّر بهِ وسار في طريقهِ وهو ممتلئٌ رجاءً واملاً في عدالة المقدم رزق الله. وكان قد ترك وراءهُ اعزّ الاشياء على قلبهِ اعني خطيبتهُ وقطيعهُ فكان تذكارها يجدّد قواهُ في سفرهِ الطويل الذي لم يُعانِ اعظم منهُ كل حياتهِ

١١

وكان وصولهُ الى بشرَّاي يوم الاحد بعد خروج القوم من سماع القدَّاس الالهي في كنيسة مار سابا اكبر كنائس تلك المدينة. وكان المقدَّم رزق الله في جملة القوم غير انهُ خرج آخر الجميع يصحبهُ بعض الكهنة ومشايخ الجبل وامرائهِ. فبعد خروجهِ جلس في ظل سنديانة كبيرة نابتة قدام الكنيسة وكانت هذه عادتهُ كل ايام الآحاد اي انهُ يجلس لسماع ظلامات

الشعب بنفسهِ فكان كل احد يحقّ لهُ ان يتقدَّم اليهِ ويعرض لهُ ظلامته دون وسيط فيفحص في الحال دعواهُ وينصفه. فلمّا ابصر الراعي الامير رزق الله جالساً والناس يتقدَّمون اليهِ عارضين لهُ امورهم شفاهاً تقدم في جملة الناس. فقال لهُ الامير بعذوبةٍ : ما هي حاجتك

قال : أن تنصفني ايهـا الامير من السيد جوسلين الذي غصبني ملكي واختطف مني خطيبتي

فقال الامير : اجلس — واشار الى حجر كبير بالقرب منهُ — وأخبرني بالتفصيل عن امرك

امَّا الراعي فامتثل الامر وجلس وكان خائفاً مذعوراً لكنهُ ما لبث ان تشدَّد وتشجَّع واخذ يقصّ على المقدَّم رزق الله حكايتـه من اولها الى آخرها مازجاً ايَّاها بتفاصيل عديدة خالية من الفـائدة شان العامَّة في اخبارها

وكان المقدم يسمع بانتباهٍ واصغاء كل كلمة دون ان يقاطعهُ بشيء من حديثهِ الممل فلمَّا اتمَّ الكلام سكت هنيهةً ثمَّ قال :

— تقدَّمت لي شكاوي عديدة على السيد جوسلين فان كان ما قلتهُ صحيحاً وثابتاً فاني غير متأخر عن عقوبتـهِ. ولكنك اذا كنت تخدعني وتغشني فاعلم انَّ قصاصك يكون عظيماً

— اني خاضع لكل قصاص تقضي بهِ ايها الامير

— كفى اننا سننصفك. فعُدْ الآن الى بلادك وتصبَّر والزم الصمت.. وعليَّ البـاقي. لكن اوصيك وصيَّةً واحدة وايَّاك مخالفتها اذهب بعـد اسبوعين الى قصر القليعة وقفْ على بابهِ يومياً. أفهمتَ. بعد اسبوعين.. لا تطلب مزيد شرح

وحينئذٍ قبّـل الراعي يد المقدم وتنحى ولمّا لم يبقَ احد من ذوي الحاجات دخل المقدَّم الى قصره يتبعــهُ موكب من المقدَّمين والامراء وكانوا جميعاً من اتباعهِ وقد استدعاهم في ذلك اليوم لاجتماع فائق العادة فلبَّوا كلهم دعوتهُ ما خلا السيد جوسلين

وكان المقدَّم رزق الله كريم الاخلاق مبغضاً للظلم وعاء. انهُ قبـل ان يتولّى المقدَّميَّة قد شاهد أفعالاً كثيرة منكرة من اهل العتوّ والكبرياء الذين يعتدون على الضعفاء ويهضمون حقوقهم فما صدّق ان قبض على زمام الاحكام حتى يستخدم سلطتهُ في كفّ ايدي ذوي البغي ودفع ظلاماتهم فمن ثمَّ استدعى الى قصرهِ في بشراي جميع الامراء والمقدمين والمشايخ في لبنان وجبل عكّار

وكان في جملتهم مقدَّما جبيل والبترون اللذان سبق شيء من خبرهما مع مقدمي ايطو وحفد والعاقورة . وكان مقــدَّم العاقورة شيخاً وقوراً اشتعل رأسهُ بياضاً في مقارعة الابطال وكفاح الكماة وقد حمى لبنان نحو نصف قرن من غزوات الاكراد وعرب البقـاع ونصيريَّة الضنية (١ بسُطوتهِ وحسن محافظتهِ على معابر جبل المنيطرة التي منهـا كانت تهجم تلك العصائب على قرى الجبل

وكان الكل من مقدَّمين ومشايخ وأعيان لابســين خوذاً من الفولاذ الصقيل بعباءات مفوّفـة بالقصب تبين من تحتها صوارمهم في اغماد مرصعة بالنقوش وكريم الحجارة. وكان لتلك الخوذ المتلألئة والصوارم المذهَّبـة والطيالس الحريريَّة والبرانس المبرقشة منظر بهيج باختــلاطها بملابس

---

١) ابو الفداء وشمس الدين الدمشقي

الكهنة السوداء وثياب رؤساء الاديرة المنسوجة من الصوف الاسمر القاتم

فلمَّا احتشد الكل في ردهة القصر وجلسوا في اماكنهم دخل المقدم رزق الله يصحبهُ اسقف بشرَّاي وكاتب اسراره وفرا غريفون قاصد الكرسي الرسولي. وكان في اقصى الردهة مائدة وضع عليهِ المصلوب بين شمعتين مسرجتين وقبالته كتاب الاناجيل الشريفة مع سيف مسلول

فبعد ان طلب المقدَّم رزق الله من الاسقف ان يبارك الاجتماع نهض واقفًا والقى على الحاضرين الكلمات الآتية :

« بعد ان صارت اليَّ ادارة الشؤون على اثر وفاة اخي المرحوم وجَّهت همي كما تعلمون الى تأكيد سعادة الوطن ورفاههِ واتت مساعيَّ بما اروم من الثمرات كما تشاهدون لان جميع علائقنا مع جيراننا هي بحمد الله على غاية ما نروم ونشتهي. نعم ان نائب طرابلس أطاع في بادئ الامر اقوال الوشاة بنا وتظاهر بشيء من العداء لكنَّهُ ما لبث ان اعترف لنا باسم الحكومة المصريَّة بجميع الحقوق والامتيازات التي كانت للمقدمين سلفائنا وبناء عليهِ لم يبقَ عليَّ سوى ان أوطد اساس الاتفاق القديم بيننا وبين الطائفة الدرزيَّة وامراء الغرب (١ فاصبت بتوفيق الله نجاحًا حتى انهُ لم يقم خلاف بين الفريقين الَّا وتمكنَّا من تسويتهِ بالطرق الحبيَّة . وليسَ في جيراننا من يسلك خطةً معادية سوى النصيريَّة والمتاولة الذين كثيرًا ما تضطرنا الاحوال الى دفع غاراتهم علينا بالقوة

« هذا بشأن احوالنا الخارجيَّة غير ان احوالنا الداخليَّة تستدعي

---

١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى

انتباهاً والتفاتاً خصوصيين. قبل كل شيء أُريد ان يملك الاتحــاد التام بين الشعب اللبناني من اي طائفة ومذهب كان وليس لنا سوى هذه الطريقة حتى نكون اقوياء وقادرين على مقاومة جميع اعدائنا الخارجيين دون ان نرهب منهم بأساً. وينبغي ان تعلموا اني اعتبر كل السكّان رعاياي واولادي سواء كانوا في جبل عكّار او في جبل لبنان في الساحل او في الجبة موارنة كانوا او ملكيين. نعم اني اشتهي ان يسود ايمان واحد في لبنان من اوله الى آخره لان الايمان هو اعظم رابط للقلوب والاذهــان ولاجل هذه الغاية عضدتُ وساعدت بكل مقدرتي الارشيدياكن موسى الذي ارسلهُ غبطة بطريرك الملكيين الى رومية لاجل المداولة في مسألة الاتحاد مع قداسة ابينا العام الحبر الاعظم وهي جارية الآن مجرًى حسناً وعمّا قريب يســافر حضرة فرا غريفون الى المغرب تأكيداً لنجاحهــا. ولا شك ان هذه المساعي كلها التي يقوم بها أُناس مستقيمون اصحاب ضمائر محبّــة للصواب لا يمكن الّا ان تلاقي نجاحاً بشرط ان لا نضع في طريقها عائقاً

« ان الشعب المسكين يرفع عقيرتــهُ بالشكوى وهو مصيب في ما يشكو منهُ لانهُ يئن تحت اثقال التكاليف وليس من العدل كما تعلمون ان تكون جميع الامتيازات في جانب وجميع المجاشم في جانب آخر. وبناء عليهِ لم يكن بدّ من توزيع الحقوق والواجبات توزيعاً متســاوياً وعادلاً. وهذا هو الوقت المناسب لذلك لاننا اذا لم نعمل اليوم طوعاً سيأتي يوم نعمل فيهِ جبراً »

وهنا انقطع المقدَّم هنيهةً عن الكلام وبعد ان اجال نظرهُ في الحضور اتمَّ خطابهُ قائلاً:

« إعلموا اذًا يا أتباعي وأعواني الاحباء اني انّما جمعتكم هنـا لنهتمّ بدفع النكبات والشرور الملمّة بالوطن العزيز وبما اننـا اولياء الشعب يتحتم علينا ان نبدأ باعطاء المثل فيجب ان نلقي في البلاد سلاماً اكيداً سلاماً يريح المظلوم ويكفّ يد الظالم. وقبل كل شيء أُريد توطيد العدل على قواعد ثابتة الاركان. وها انا مستعدّ لاستماع آرائكم والتنقيب بالاشتراك معكم عن العلاج المفيـد لازالة العلّة فتكلّموا اذًا ولا تكتموني شيئاً من افكاركم »

فعندها نهض مقدم العاقورة اكبر السادة الحاضرين عمرًا فقال

اعلم ايها الامير اننا جميعاً قد استصوبنا خطابك وكلنـا نريد إقرار الترتيب والنظام وتعزيز اركانهما بكل ما يلزم من الوسائل وعليهِ فاننـا سلفاً نقبل بكل ما تراهُ موافقاً لبلوغ هذه الغاية

ثمّ وقف المقدم زين فقال : اني ولو كنتُ أصغر الكل سنًّا ومن واجباتي ان التزم السكوت امام هذا الجمع الموقر ارى مع ذلك ضرورةً تدفعني الى اعلان السرور الذي خامرنا من هذه المقاصد الحازمـة التي عزمتَ على اجرائها وانا منذ الآن اتبرأ جهرةً من كل واحد ولو كان اخي يتجرأ على العبث بقواعد السلام التي عزمنا على وضعها. فاعتمد اذًا علينا ايها الامير واعلم ان جميع اتبـاعك من ورائك يقولون قولك ويؤيدون رأيك. او ليس هذا هو الصواب ايها الاخوة ؟

وقد تلقّى الجميع هـذه الكلمات الاخيرة باصوات الاستحسـان مؤيدين صراحة عواطف اكثريّة الحاضرين. وكان بين هؤلاء قوم ميالون الى بقاء الامتيازات الجائرة على حالها لكنهم لم يجسروا على المجاهرة فلبثوا صامتين. ومن ثمّ فاذا كان قد تمّ الاتفاق بين الكل لفظاً واستمرّ في

الضمائر ناقصاً فان بعض السادة اللبنانيين ممن يشبهون جوسلين في مظالمهم وسوء سيرتهم كانوا قد تواطأوا معهُ ومع مقدم جبيل على التريُّث وانتظار الحوادث . غير انَّ المقدم رزق الله لم يكن يدري بشيء من ذلك فظنَّ وقتئــذٍ ان لبنان كلّهُ اصبح في قبضة يديهِ يديرهُ كيف شاء

فلمَّا فرغ المقدم زين من الكلام قام الامير رزق الله فقال:

أقسم بالله القادر على كل شيء انهُ لا يخرج احد من هذا القصر قبــل ان يحلف بانهُ يعطي سلاماً وهدنة للشعب المسكين وان يحامي الضعيف ويعاقب الجرائم ايًّا كان مرتكبها مقدَّماً او شيخاً او وجيهاً او فردًا من العامَّة

قال هذه الكلمات ووضع سيفهُ على مخدَّة من الجلد كانت تجاههُ ثم اكمل الكلام:

— اقسم اني أعاقب بالموت كلّ من يعبث بهــذا السلام. واذا كان بينكم من يأبى هذا القسم فينهض حتى نعرف من هم اعداؤنا او بالحري اعداء شعبنا . قد مضى وقت الامتيازات وجاء الوقت الذي يتساوى فيهِ الكل امام العدالة والشريعة

امَّا الجماعة فقاموا كلُّهم مبهوتين من هول هذا الموقف ولم يفــه احد منهم ببنت شفة فحينئذٍ خاطبهم المقدم رزق الله قائلًا:

اني لأفرح جدًّا برؤيتكم جميعاً متفقين معي ومن الآن فلتسقط كل هفوات الزمان الماضي ولتمت ولتصر نسياً منسياً وامَّا المستقبل فهو لنا

وحينئذٍ حلف الكل بين يدي اسقف بشرَّاي وفرا غريغون قاصد الكرسي الرسولي على ذخيرة حقيقيَّــة من ذخائر الصليب لافظين كلمات القسم التي املاها عليهم سيدهم وولي امرهم مقدم بشراي

فلمّا فرغوا من القسم تناول الامير رزق الله سيفهُ فانتضاهُ قائلًا وتربة اجدادي لا بدَّ من توطيد السلام وعليَّ صيانة الكنائس والاديار وعضد اليتيم والارملة وكل من يحتاج الى الاسعاف والمعونة . وقبل ان يتفرق الحضور طرحت عليهم بعض التدابير التي يجب العمل بها في هذا الخصوص فاثبتها الجميع بخطوط ايديهم . ثم ان المقدمين ودعوا سيدهم ومضى كلٌ الى مركز ولايتهِ وهو على يقين بان المقدم رزق الله يسهر على اعمالهِ وينتبه لكل دقيقة منها فاجرى العدل وسلك بالشعب سلوكًا حسنًا حتى صار الكل يدعون للمقدم رزق الله بالنصر والتأييد وطول العمر

وبعد ان انفضَّ الاجتماع استدعى مقدَّم بشراي احد كتبة اسرارهِ فاملى عليهِ امرًا الى السيد جوسلين بالحضور اليهِ في فرصة ثمانية ايام من بعد وصول الامر لاجل استجوابه عن بعض الشكاوي المقدَّمة عليهِ . غير ان جوسلين لم يحفل بالكتابة ولا بالى بها وكان جبل اللكام بعيدًا عن لبنان . ومع ذلك فانَّ المذكور ما لبث ان عاد اليهِ الانتباه فاخذ يتهيأ للحوادث ورمَّم سور قصرهِ واستدعى رجالهُ لحمل السلاح

١٢

وبعد مضي اسبوعين على الحوادث التي اتينا بذكرها قدم خيَّال طويل القامة فعبر الجسر النقَّال الموصل الى قصر جوسلين وكان متلثِّمًا بكوفية كبيرة ومشتملًا بعباءة سابغة يتدلى من تحتها سيف عريض . فكان في هذه الهيئة شبيهًا بمشايخ البدو او بالحري بمشايخ الشيعة الاسماعيلية الذين

اعتادوا ان يفدوا المدَّة بعد المدَّة على سيّد القصر لاجل مذاكرتهِ في شؤُون مختلفة

وكان الراعي عبد الله من مزار النبي شيت قائماً عند باب القصر المذكور عملًا بالاوامر التي تلقَّاها فلمَّا شاهد الخيَّال ورأى الاب يوحنا رئيس دير القديسة تقلا في صحبتهِ تبادر الى ذهنهِ انهُ المقدم رزق الله فاسرع لتقبيل يده لكنَّهُ ما لبث ان ارتدَّ باشارةٍ من الرجل المجهول

ثمَّ ان الخيال لمَّا وصل الى الباحة الداخليَّة نزل عن ظهر حصانهِ بخفَّة ولباقة فجعلت الكلاب المربوطة هناك تنبحهُ وتهمّ بتقطيع السلاسل المقيَّدة بها لتصل اليهِ. وما كاد يطأ الارض حتى وفد احد الخدم فامسك باللجام فناولهُ الرجل المجهول قطعة من الفضة قائلًا لهُ:

خذ هذه لك واعلم اني غريب واريد مواجهة سيدك في شأن مستعجل يتعلق بهِ

فدخل الخادم مسرعاً الى القصر ثم عاد بعد دقيقتين قائلًا ان سيّدهُ جلس على الطعام ومتى كان في هذه الحالة لا يحب ان يواجه احدًا ولا يتحلحل لاحد حتى لو كان المقدم رزق الله بعينهِ قادماً عليهِ

قال الغريب وقد مدَّ يدهُ الى منطقتهِ: خذ ايضاً هاتين القطعتين من الفضة وعُد الى سيدك وقل لهُ اني آتٍ من قرية علما التابعة لامير بشرَّاي وان الاسماعيليَّة اغاروا عليها واسلموا الغلال الى النار فعليهِ ان يُسرع في ارسال نجدة واخبرهُ كذلك اني لا اقوى على الانتظار

فدخل الخادم وقد بهرهُ سخاء الغريب لكنَّهُ ما كذَّب ان عاد مسرعاً كالمرة الاولى فقال ان سيدي يقول بان الفلاحين في علما ليس لهم

ألّا الصبر على ما جرى وانك يجب ان تعود هذا المساء لتفاوضهُ ثم قال ايضاً . . .

وهنا وقف الخادم عن الكلام بغتةً كأنهُ عرف ان الذي سينقلهُ عن لسان سيده سيجرّ عليهِ وبالًا . فقال الخيّال بكل سكينةٍ ووقار : لا بأس من ان تكمّل لنا مقال سيدك . فاجاب الخادم ان سيدي يقول انك اذا زدت في ازعاجهِ يُطلق عليك كلابهُ فتهشمك . فتبسّم الغريب برصانة ثم كشف عن وجههِ واخرج قطعة من الفضة ونفح بها الخادم قائلًا : لا اسألك غير خدمة زهيدة تذهب الى جوسلين وتقول لهُ انّ بَرْسيفا هنا

فما نطق الخادم بهذا الاسم حتى اضطرب جوسلين وارتجفت اعضاؤهُ لان مقدم بشراي كان معروفاً بالاسم المذكور عند الشعب ولذلك التفت الى الخادم فقال لهُ : كذبت واردت خداعي فان الغريب لم يقل لك شيئاً من هذا . وهمّ في الوقت نفسهِ بالنهوض غير ان السكر كان قد عمل فيهِ فوقع على كرسيهِ

— لم اخترع شيئاً من عندي يا سيدي فانهُ قد قال لي صريحاً قل لسيدك ان بَرْسيفا هنا وفي الحال رفع اللثام عن وجههِ فرأيت فيهِ مخايل المقدم رزق الله بن جمال الدين . ثم ان قامتهُ الطويلة تدل عليهِ دلالةً كافية وكذلك غمد السيف المرصّع بالجواهر والمتدلي من تحت عباءتهِ المخطّطة لا يمكن ان يكون الّا لهُ

امّا جوسلين فزادهُ هذا الكلام ارتعاشاً وبدّد عنهُ نشوة الخمر وفيما هو يهمّ باعطاء الاوامر لادخال الغريب انفتح باب الغرفة بغتةً ودخل منهُ الخيّال يصحبهُ الاب يوحنا

وكانت قد مُدَّت في وسط الغرفـة التي دخلها المقدَّم مائدة الطعام وعليها ألوان واشكال من اللحوم بينها قناني الخمر المعتقة وقد جلس حولها عدد من الرجال والنساء يقهقهون وينطقون بالاحاديث الغير المهذبة

على ان جوسلين لمَّا شاهد المقدَّم قد دخل عليهِ في هذه الحالة من الافراط في الأكل والشراب رغماً عن ايام الصيام الكبير التي يجب ان ينقطع فيها المسيحيون لاماتة الحواس اراد ان يعتذر فصدَّهُ الرجل المجهول باشارة منهُ وقال :

أَبيت ان تذهب الى بشرَّاي فتبرئ نفسك من الشكاوي المرفوعة عليـك فجئتُ انا بنفسي لانظر في الامر ولكني اقسم لك انك لن تكون مسروراً من تنازلي للحضور اليك

فقال جوسلين وهو يتلعثم في الكلام: لا انكر سيـدي اني قد قصَّرتُ وتهاملت ولكن الشؤون والاعمال الكثيرة حالت دون رغبتي. وانت تعلم ان ناحيتنا هـذه قائمة في اطراف البلاد ومكتنفة من كل الجهات بالاعداء فلم يكن يسهـل عليَّ مفارقة قصري دون التعرض للاخطار. ولولا وجودي في هـذه الظروف والاحوال لكنتُ بادرت من زمان مديد الى بشرَّاي تقديماً لواجبات خضوعي واخلاصي وفنَّـدت بسهولةٍ كلّ ما عزاهُ الوشاة اليَّ من الشكاوي والتهم واوضحت براءتي منها لسيدي المقدم ولكن البعدُ جفاً والبعيد دائماً متَّهم

فاجاب المقدَّم رزق الله قائلاً: اني عالم بان الشكاوي المرفوعة عليك هي كلّها اكيدة. فضلاً عن كونك أفسد واردأ رجل مسيحي وصفوهُ لي قد تصدّيتَ للايتام والارامل وسلبتهم املاكهم وما اكتفيت بهذا حتى تعرَّضت لاوقاف الكنائس والاديار فغصبتها جوراً وظلماً

فاراد جوسلين ان ينكر ذلك لكن الاب يوحنا الذي كان في صحبة المقدم افحمهُ باظهار الحقيقة فلم يستطع الّا ان يقول : أردّ كلّ شي‌ء . . اما املاك دير القديسة تقلا فكنت اظنها غير ثابتة للدير بصكوك قانونيَّة فغلطتُ وها انا الآن اعوّض عن غلطي وأرجع للدير اضعافها . . .

— يا لك من كذوب . ألم تعتدِ من مدَّة قريبة على شاب مسكين وتسلبهُ حقله . او ما تعلم اي شي‌ء من القصاص تفرضهُ شرائعنا على مثل هذا الاعتداء ؟ . والآن أحضر الصبيَّة اليتيمة التي زجحتها في سجنك عدوانًا

فهنا صرخ جوسلين وهو يرتعش قائلًا : اعلم يا سيدي انها قد ارتكبت جرمًا كبيرًا . . . قطعت حطبًا من أحراجي

— اذا كانت قد فعلت ذلك فانهُ ذنبٌ لا يستوجب سجنًا . وغاية ما يترتب على فاعله جزاء نقدي . ومع ذلك أحضرها لنستنطقها . ألم تعلم اني في الاجتماع الاخير بمدينة بشراي قد قررتُ اخذ جميع الايتام تحت حمايتي

— لم اكن عارفًا بشي‌ء من هذا لاني لم اقدر على حضور الاجتماع المذكور

— كفَّ عن الكذب والخداع فلسوف تعلم اليوم ان العدل ينال الكل . اسرع اذًا بانفاذ اوامري

ولمَّا رأى خدَم جوسلين اضطراب سيدهم علموا اخيرًا ان الغريب الذي دخل عليهِ هو المقدم رزق الله المشهورة صولتهُ وعدالتهُ وبادروا في الحال فاحضروا الصبيَّة . وكانت صفراء اللون ممتقعة الوجه دامعة العين . فلمَّا وقع بصرها على الاب يوحنا اشرقت على وجهها امائر الفرح

واستبشرت بالنجاة : والتفت اليها الامير فرآها بارعة في الجمال كثيرة الادب والحياء فقال لها : تكلمي يا ابنتي بلا خوف فقد صرت حرة وسنصفك ونسلّمك الى من تحبينهُ

وهنا قطع جوسلين كلام المقدم وقال : كنت مزمعاً ان أُخلي سبيلها...

فقالت الصبية : صدق يا مولاي لكنهُ عرض عليّ شروطاً...

— وما هي الشروط التي طلبها هذا الظالم حتى يفرج عنك ؟

فحينئذٍ التحف وجه الصبيّة بالاحمرار فخفضت بصرها وبعد ان تردّدت هنيهةً اجابت قائلةً : لا اجسر على بيان الشروط التي تطلب ايضاحها .

— اذاً كانت هذه الشروط اثيمةً فما هو جوابك عليها ؟ قال هذا مخاطباً جوسلين ولكن جوسلين خرَّ على ركبتيهِ وقد عمي بصرهُ وحلَّ بهِ من الخوف ما لا يوصف وقال :

— لا تعاقب ضعفاً بشرياً ايها الامير فاني متأهب لكل تعويض تفرضهُ

— نعم انهُ لا بدَّ من التعويض وها انا ارشدك الى الوجه اللازم فاصغَ اليَّ : بما انهُ ليس لك اولاد يرثونك تقيم هذه الصبية وريثة لك فتوصي لها بكل احواجك وسائر املاكك في موقع النبي شيت . أدخلوا كاتب القصر الى هنا

وفي الحال أُحضر الكاتب فكتب صكّاً قانونياً مستجمعاً لكل الشروط فوقّعهُ جوسلين وشهد عليهِ المقدم رزق الله والاب يوحنا ثم دفع الصك الى الصبيّة التي اصابتها الحيرة من هذا الحادث الغير المنتظر .

وفي الحال سالت دموعها على وجنتيها وبادرت الى يدي المقدم رزق الله لتقبلهما فقال لها: هذا هو التعويض الذي حكم العدل باعطائك اياهُ

وما كاد يتمّ هذه العبـارة حتى اخرج من تحت عباءتهِ حبلًا قويًا وقال مخاطبًا جوسلين:

اذا كان هذا الحبـل لا يضع اليوم حدًّا لحياتك الاثيمة فان ذلك بفضل الاب يوحنًا هذا الرجل البار القديس الذي شفع بك مع كونك اضطهدتهُ واراد ان يرافقني الى هنا حتى يتأكَّد صفحي عنك فعسى ان لا يندم على هذه المكرمة التي لا تستحقها انت .

ولمَّا كان الحاضرون يرتجفون خوفًا ورعدة من هذه الكلمات وقد كاد الدم يجمد في عروقهم خرج المقدَّم رزق الله من الغرفـة فركب حصانهُ ولحق بهِ الاب يوحنًا وغاب كلاهما عن الابصار وراء الصخور التي كانت تحجب الطريق المؤدية الى القصر بينما كلّ الذين حضروا المشهـد كانوا مقيمين في اماكنهم كأنهم تسمَّروا بها تسميرًا

١٣

وكان بعد مرور بضعة اسابيع ان الزروع في سهول البلاد واعاليهـا أخذت تصفرُّ متهيئـةً للحصاد . امَّا اهالي لبنان فكانوا جميعًا جذلين ومحبورين بحكومة المقدَّم الجديد ومسـاعيهِ في تعميم العدل على الرفيع والوضيع والغني والفقير وكان الاجتماع الذي عقده في قصره قد بدأ وقتئذٍ بان يُعطي ثمراته - غير ان تلك الحال لم يكن ممكنًا دوامها طويلًا لان الانسان لا يقدر ان يقوّم في شهر أودًا استمرّ قرونًا وادهارًا . فكان

انهُ لما عاد المقدّم رزق الله من جبل اللكام الى مقرّ ولايته اجبرتهُ الظروف على قتــال بعض المتــاولة الذين هبّ لنجدتهم جم غفير من اوباش الناس المقيمين في بلاد بعلبك (١

اما جوسلين فعندما عرف الخـبر ورأى ان الحرب قد شغلت مولاهُ عن الاهتمام بامور الحكومة عمــد ان يعود بالحيلة الى ما كان قد اجبرهُ الخوف على تركهِ.فجمع بعضاً من الرهبان اليعاقبة الذين ابعــدهم المقدم رزق الله عن لبنان وادخلهم في حمايته مثل موسى بن عطية والقس نوح البقوفاوي الذي كان قبــلًا مقيماً بالفريديس في ارض بان وعيسى وابن شعبــان من قرية حردين وموسى واخيه يوحنا ولدي ابرهيم ابن الحاج موسى البقوفاوي وجرجس من لحفــد وموسى من قرية موسى وغيرهم ممن رهّبهم ديوسقورس الاسقف اليعقوبي (٢

ولم يحمل جوسلين على ذلك لا تعصُّب ديني ولا اقتنــاع بصحة البــدعة اليعقوبية لا نهُ لم يكن يهتمّ الّا بصوالحهِ ومنــافعه الخصوصية بل اراد ان يستخدمهم في غاياتهِ الفاسدة لعلّــهُ يستطيع يوماً ان يدرك بواسطتهم ثاره من رئيس دير القديسة تقلا.ولما كان المذكورون يعلمون ان ابعادهم من لبنان كان خصوصاً بتحريضات الرئيس الموما اليهِ لم يكن من الموجب لحثهم على معاونة جوسلين لانهم بقضاء وطره يدركون هم ايضاً مأربهم

ولذلك كان جوسلين يقول انهُ اذا قدر على شفاء غليله من الاب يوحنا عِلكهم دير حصن سليمان فكان طمعهم في امتــلاك هذا الدير

---

١) اخبار الاعيان ١٦٦

٢) الدويهي ١٤١

الغني مع بغضتهم للديانة الكاثوليكية ورغبتهم في اخذ الثار يدفعهم الى اختراع كل الوسائل الممكنة لاهلاك هذا الرجل القديس

وكان اصعب شيء لديهم ان يجدوا سبباً واضحاً يسوّغ لهم في الظاهر انزال الانتقام بمن ابغضوه لانهم ما كانوا يريدون فقط ان يميتوا ضحيّتهم بل ان يشنعوا صيتها وسمعتها ايضاً

وفي ذات يوم وقد انتصف النهار وجلس جوسلين في الردهة الكبرى من قصر القليعة يحفّ بهِ الرهبان اليعاقبة السابق ذكرهم أُدخل اليهِ الاب يوحنا مكتوفاً مهاناً وكان قد ارسل رجاله الى الدير فاتوا بهِ عنوةً لاجل محاكمتهِ امام قضاة جائرين لا يريدون حقّاً بل انتقاماً يلبسونهُ ظاهر الحق. وكان في الدير راهب من الاخوة اسمهُ جناديوس قد تضايق من القوانين الرهبانيَّة التي كان الرئيس يحافظ عليها كثيرًا. فهذا أغراهُ جوسلين بالمال والوعود الحسنة فأخذ يتهم الاب يوحنا انهُ كان يتظاهر كذبًا ونفاقاً بالاصوام والصلوات والاماتات ويعيش في السرّ عيشة شهوانيَّة فاسدة. ثم اتهمهُ بانهُ رئيس ظالم يعامل مرؤوسيه بالقساوة ولا يعرف الشفقة على الفقراء وغاية ما يهتمّ بهِ حشد الاموال توسيعاً لدائرة املاكه

وكان في وسع الاب يوحنا ان يريهم لمّتهُ البيضاء ويستشهد على حسن سيرته بجميع اخوانه الرهبان وسائر اهالي الناحية. وكان يستطيع ايضاً ان يُخجل الراهب جناديوس ببيان رذائله وعيوبه ويذكّره بالمسامحات المتواترة التي تعطّف بها عليهِ ويطلب منهُ ان يدل على الاموال التي حشدها. وكان في الحقيقة قد انفقها كلها على الفقراء غير انهُ أبى ان يقول شيئاً من ذلك بل فضل السكوت والصمت تشبُّهاً بمعلمه الالهي لمّا وقف

امام هيرودس. واخيرًا لمّا الحّ عليهِ قضاة الظلم ان يحتجّ عن نفسهِ قال هكذا :

اني قد اقترفت خطايا كثيرة ولكني في الحقيقـة لم آتِ شيئًا ممّا شُكيت بهِ

فقال القضاة : أتقرّ اذًا بجريمتـك وتعترف بعجزك عن رد التهم المنسوبة اليك ؟

— لا ازيد شيئًا على ما قلتهُ فافعلوا بي ما بدا لكم

وفي الحقيقة لم يكن ليجديهُ الدفاع نفعًا لانهُ لم يكن قادرًا على ان يُحضر الى تلك المحكمة الظالمـة شهودًا يبرئونهُ لا الفقراء الذين اسعفهم بالسرّ ونشلهم من وهدة الحاجة ولا المرضى الذين شفـاهم ولا الاموات الذين دفنهم ولا مرؤوسيهِ الرهبان الذين يعرفون طويته وتقواه وقداسته امام الله تعالى. وفضلًا عن ذلك فقد كان عارفًا بان قضاتهُ مصمّمون على الحكم عليهِ فمحاولة الدفاع عن نفسه عبارة عن اهتمامه بامر لا طائل تحته. اما تلك المحكمة فانها حكمت باتفاق الآراء بجريمته واسقاطه من مقام الرئاسة والقضاء عليهِ بالسجن المؤبد

وكان على مسافة ثلاث ساعات من شرقي قلعة مصيـاد مركز صولة الشيعة الاسماعيليَّة كنيسة قديمة مشيدة على سطح الجبل. ولم يبقَ اليوم منها سوى حيطانهـا الخارجيَّة مع قسم من الدهليز لان القبـة قد انقضَّت والعمد انقلبت فامتـلأ من حطامها صحن الكنيسة حيث نبتت بعض اشجار من التين والدوالي البرّيَّة والسنديان وغير ذلك

وكان على شمال الكنيسة سلسلة من البيوت الصغيرة بُنيت كلها على هندسة واحدة اي ان العتبات العليا مع اللابن كانت جميعهـا من حجر

واحد وقد نقش على كل عتبة في ضمن دائرةٍ رسمُ صليب. وكل بيت من هذه البيوت لا يدخلـهُ الهواء ولا النور الّا من نافذة صغيرة في اعلاه ومجموع هذه الخرب يدعى دير الصُّلَيب (١. والحق يُقال انهُ كان ديرًا او مجموعةً من القلالي يرتقي تاريخها الى العهد البيزنطي. امَّا الكنيسة التي كانت قائمةً في القرن الخامس عشر فانها قد أُهملت قبـل هذا التاريخ بزمان كما ان الرهبان لمَّا رأوا نفوسهم معرضين كل ساعة لغزوات البدو والشيعة الاسماعليَّة هجروا قلاليهم التي ما عادت تصلح بعدهم الّا ملاجئَ لرعاة الماشية وقت الامطار

فالى هذا المكان الذي تقدَّم وصفهُ نقل جوسلين الابَ يوحنا رئيس دير القديسة تقلا موقنًا انهُ ان لم يمت جوعًا لا بد ان يموت بايدي البدو وهكذا يخلص منهُ

واقام الاب يوحنا هناك اياماً عديدة لا يقتات بغير اثمار من التين يقطفها من الاشجار التي كان الرهبان القدماء قد غرسوها في دير الصُّلَيب. وكان من وقتٍ الى آخر يأتيه بعض الرعاة الذين في جيرة المحـل برغيف من الخبز وكأس من اللبن لانهُ كان يشفق عليهِ اذ يراه شيخًا كبيرًا اصفر اللون ناحل الجسم. غير ان ذلك لم يكن يجري الّا نادرًا لان جوسلين كان اوصى التركمان المقيمين في مزرعة الحمام القريبة من هناك ان يحافظوا على عدم مخالطة الشيخ المنفي لاحد. وقد قاموا بما اوصاهم بهِ حق القيـام ولولا اعتياد الاب يوحنا الاصوام الطويلة لكان مات جوعًا .

---

١) مجلة الشرق المسيحي ١٩٠٠

١٤

ان معرفة الجميل من اجلّ الفضائل واحلاها والواجب ان تكون منزّهة عن شين المنفعة غير ان الأثرَة كثيرًا ما تفسد هذه الفضيلة المحسوبة من اجمل المحاسن البشريّة في القلب

ولا ريب ان معرفة الناس امر متعسّر لا بل متعذّر في ايام الرخاء وامتداد بساط الهناء فاذا اتاك الحظ ورفعك الى الدرجات العالية فلا تنتظر من أكفائك غير المبادرة لقضاء رغائبك والاستعداد للعمل باشارتك . فهل تعدّهم في هذا الحال اصدقاء لك وهل تستطيع اعتمادًا على بقاء ولائهم راسخَ الاركان وهل يمكنك ان تنتظر منهم معرفة الجميل . كلاً ثم كلّا لانهُ اذا غفلت عنك السعادة يومًا واشتغل عنك الحظ بغيرك لا ترى من هؤلاء الناس الذين كنت تحسبهم اولياء غير إعراض وصدّ ولو كنت قد اغرقتهم في بحر فواضلك او تعرّضت للاخطار حبًّا بهم وما ذلك الّا لأنّهم ما عادوا يرجون منك خيرًا كما انك ما عدت اهلًا لتملقاتهم واساليب خداعهم . وبناء عليهِ فهم يتركونك حاملين بخورَهم الى اشخاص آخرين

غير ان عبد الله الراعي الذي مرّت عليك حكايته لم يكن من هذا الصنف من الناس فانهُ حالما درى بسجن الاب يوحنا في قصر القليعة طفق يأتي كل صباح فيجلس قريبًا من باب القصر متجسّسًا الاخبار عن المحبوس الكريم الذي احسن اليهِ وبالرغم عن الاهانات والشتائم التي

يسمعها من الحراس لم يكن يملّ من الوقوف عند الباب محمولًا على هذا كله بعاطفة معرفة الجميل

غير ان احد الحراس شفق عليهِ يوماً وقال لهُ : انك تضيع وقتك ايهـا المسكين عبثًا لان الاب يوحنا ليس هنا

— بحياة ابيك لا تغشني بل قل لي الحقيقة بتمامها

— الامر كما قلت لك بالتمام لان الاب يوحنا ترك القليعـة من ايام عديدة

— واين هو الآن ؟

— كفاك سؤْلًا فقد اخبرتك بما فوق اللازم. ثم اغلق البـاب في وجه الراعي المسكين وهو يقول : اوشك هذا الفلاح الغليظ ان يعرّضني للخطر ولكن من حسن الحظّ انهُ لم يسمعني احد

فلما علم عبد الله ان المحسن اليـهِ خرج من القصر رأى من الواجب عليهِ ان يهتمّ بنجاته من ايدي مضطهديه لاعتقادهِ ان كلّ ما اصاب الاب يوحنا من سخط جوسلين كان بسبب انتصاره لهُ ودفاعه عن حقوقه. فعقد العزم لادراك غايتهِ على خطة صعبة المراس وعرة الملتمس تحول دون البلوغ اليها عوائق واخطار. ولعـل الراعي المسكين لم يفطن لشيء من ذلك او انهُ فطن ولم يشأ ان يرجع عن مطلبه لانهُ كان يرى اعزّ شيء لديه السعي في خلاص ذاك الرجل البار الذي اصطنع اليهِ

وكان بعد مدّة أن انتشر الخبر بين اهالي الناحية بان الاب يوحنا نُقل الى الجانب الشرقي من الجبل في جهة مدينة حماة ولم يكن يشقّ على عبد الله ان يشخص الى حماة او الى ابعد منها اذا اقتضت الحاجة غير انهُ لم يكـن يعرف المدينة المذكورة بل غاية ما كان يعلم لمَّا كان في قرية

مرعيين يرعى المواشي عند احد كبار المشايخ النصيريّة ان هذه المدينة هي على مسيرة يوم من القرية المذكورة

فاذ ذاك حمل عصاه وتناول زوادة من الخبز الرقوق ولفّها بمنديلٍ وتزنّر بهِ ثم ودّع امرأته وسار على بركة الله ينشد مطلبه. وكانت امرأته عالمةً بمراده فلم تتعرّض لهُ وكيف تصدّه وما حان لها ان تنسى انّها لولا وساطة الاب يوحنا لما نجت من مخالب جوسلين الرجل الشرس

وقد عرّج عبد الله في سفره على قرى عين الشمس والسنديانة وعين الخلاقين وشميسة وقندارة وكان في كل منها يبحث عن الاب يوحنا بحثاً دقيقاً فكان الكلّ يجاوبونه بانهم لم يروا لهُ وجهاً. وعلى فرض انهم شاهدوه ما كان احد ليتجرأ على إخباره مخافة ان يعرّض نفسه لسخط جوسلين وعقابه

ولما كان سائرًا في الغابة المتسعة الكائنة بين قريتي بيت الشمس والسنديانة نجا دون ان يعلم من خطر عظيم. فان الغابة المذكورة كانت في القديم كما هي في ايامنا الحاضرة ملجأً للّصوص وقطاع الطرق. فبينما هو يمشي في شِعْبٍ ضيّق مترنّماً بانشودة تعلّمها قبلًا من الرعاة النصيريّة دون ان يعرف شيئاً من معناها وهي:

يا خليليَّ إن تكون عليلا	ظاميَ القلب والفؤاد غليلا
اشرب الخمر انَّ فيها شفاء	حيث كان مزاجها زنجبيلا
واذا ما شربتها وهي صرفٌ	كل داء يعود عنك رحيلا
انّها في كؤوسها تتلالا	في الدياجي تعدُّها قنديلا
ان موسى الكليم لمّا رآها	في دجا الليل والركام هطيلا
قال انّي آنستُ جذوة نارٍ	جانب الطور في ضياء شعيلا

ايها العاذل البليد فكفَّ السلوم عني وأمهلني قليلا
ما ترى الكاس كيف يجلي بجنح م الليل بين الندمان بالترسيلا(١

وكان وراء الاشجار التي على حاشية الطريق نصيريَّان من قطاع السبيل يرقبان كل حركة وايديهما على مقابض سيوفهما فلما شاهدا عبد الله قال احدهما لرفيقه :

— ها قد اتانا الصيد

— فقال الآخر والله انهُ لصيد عجيف لا يستحق ان نبلَّ ايدينا بدمه . ولو لم يكن كيسهُ فارغاً لما كنت تراهُ يمشي بطيئاً فرحاً فهو بلا ريب نصراني من رعاة الماشية في هذا الجوار لا يجدينا سلبهُ نفعاً

— هبْ انهُ كما تقول . فبودّي لو انحرهُ نحرًا مجازاة لهُ على قلة حظنا في هذا اليوم . آه يا لهُ يوماً مشؤوماً لم أرَ انحس منهُ قرُب الظهر ولم يمرّ في هذا الطريق احد من المسافرين

— ألا تعلم ان هذا اللعين جوسلين مذ حبس الاب يوحنا ذهل الزوّار طريق حصن سليمان . فاذا كنت تريد ان تشفي غليلك من احد فاشفهِ من جوسلين . ولكن . . . أنصت . . .

— ها أنا منصت . . . انهُ يُغنّي

— الا تسمع كلامهُ ؟ أليس هو من شعر مولانا الشيخ الخصيبي او الشيخ صارم ؟

— اي والله الحق معك هو أخ لنا . . . . ! وحسناً فعلتَ بتوقيفي عن إغماد السيف في قلبه ولولا ذلك لكنت قتلتُ ابن ديني وارتكبت المحارم

---

١) الباكورة السليمانية (ص ٧٠)

ثم ان اللصين خرجا من وراء الاشجار فحياهما عبد الله فردّا عليه التحيَّة وسألاهُ عن المكان الذي يقصدهُ فقال : قرية مريعين لمشاهدة الشيخ خضر

— اذًا تذهب الى العيد ؟

— اي والله . قال هذا ولم يعلم اي شيء هو العيد المحكي عنهُ ولكن سترى انهُ سيعلمهُ عن قريب

وفي مساء النهار وصل الى بعرين (١ وهي مدينة صغيرة واقعة في منحدر رابية وفي اعلاها قلعة ضخمة من بناء الصليبيين (٢ وفي اسفل القلعة اقبية كثيرة كانت مخصصة بالسجون فدخلها محتجًّا بزيارة احد معارفه وبعد ان جال في كل انحائها خرج متأكدًا ان الاب يوحنا غير محبوس فيها. غير انهُ لم يقنط بل استأنف المسير قاصدًا مريعين من امهات قرى النصيرية

١٥

فبعد نزوله من جبل بعرين وصل الى السهل الكائنة فيهِ قرية رفنية التي كانت في ايام الرومانيين بلدة مزهرة ناجحة غير انها اليوم خراب يباب لا يأوي اليها سوى البوم . وفي جنوبيها الغربي سلسلة جبال معتدلة الارتفاع ليس فيها نبتة خضراء يستريح البصر اليها ووراءها قرية الطاعونة يأهلها قوم من الفقراء المناكيد وعندها يتجدَّد السهل . وكان

١) ياقوت والمقريزي الخ ٢) مجلَّة الشرق المسيحي ١٩٠٠

في تلك الايام قفرًا صامتاً لا يُسمع فيهِ صوت ولا فيهِ ديَّار لانَّ ايام الحصــاد كانت قد انتهت

والواقف في اول السهل يشاهد من بعيــد صفًّا من الروابي وهو جبل اللكام ثمَّ صفًّا آخر اقلّ ارتفاعاً يدعى جبل الحلو وفي سفحــهِ خضرة نضرة تعارض بمنظرها قحولة السهل وتلتذّ العين بمشاهدتها وهي غوطــة مريمين التي تُعدّ من اقدم المدن السوريَّة وقد ردَّد التاريخ ذكرها في القرن الرابع عشر قبل المسيح(١. اما الآن فصارت مركزًا للزراعة لا يخلو من بعض الاهميَّة

وقد وصل اليهِ عبد الله الراعي عنــد مغيب الشمس ولم يكن في ملابسهِ ولا في منطقهِ شيء يفرقهُ عن النصيريَّة فانهُ لكثرة تردُّدهِ عليهم كان قد تعلَّم لهجتهم وصــار يستعمل كل اصطلاحاتهم ويقول مثلهم في كل امر « اي والله ولا والله ». وكثيرًا ما قبل التوبيخات والقوانين الصارمة على هــذا القسَم الباطل من معرّفهِ الاب جرمانوس الساكن في حصن سليمان. وكان يتلقى ذلك كلهُ بخضوع واخبات غير ان العادة السيئة قد تغلَّبت عليهِ فصارت فيهِ كطبيعة ثانية بحيث انهُ ما اجتمع مرة مع الرعاة النصيريَّة الَّا اقبل على الحلف نظيرهم وقد اتصل ايضاً الى معرفة العلامات التي يتعارف بها اهل هذه الشيعة

فلمَّا وصــل عبد الله في مدخل القرية لاقى ولدًا صغيرًا فسألهُ عن الشيخ خضر مولاه السابق فاجابهُ انَّ الشيخ قد خرج من منزلهِ للاحتفاء بالعيد

---

١) الكتابات المصرية القديمة , دوشو: رحلة سورية الخ

الّا انّ الراعي لم يحترز من هذه الكلمة الاخيرة وظنّ انهـا تعني احتفالًا اعتيادياً كعرس او نحوه فمن ثمّ شكر الولد النصيري وسـار الى الجهة التي دلّهُ عليها

وكان قد دخل الليل وقتئذٍ واعتكرت الظلمة فضلّ الراعي في طرق القرية وكثيرًا ما زلّت قدمهُ في الوحول واوشك ان يقع في المياه الجارية على جوانب السبيل او في وسطهِ. وتعذّر عليهِ الاستعلام عن مقام الشيخ لان كل البيوت التي مرّ عليها كانت موصدةً لا يظهر فيهـا نور قنديل حتى يتخيّل من يراها انها مقفرة لا ساكن فيها فاخذهُ العجب من هـذا السكوت الغير المألوف في مثـل تلك الساعة الغير المتقدّمة من الليل وانتهى بهِ السير اخيرًا الى الطرف الجنوبي من البـلدة. وبينما هو يهم بان يعود على اعقـابهِ راجعاً اذ لمح بيتاً منيرًا كان قد فُتح بابهُ في تلك الساعة لدخول بعض الواردين اليهِ

فقال عبد الله في نفسهِ: قد نجوت والحمد لله من المصاعب فهذا هو «المتزول» دون ريب ابيت فيهِ الليـلة وغدًا اسعى في مشاهدة الشيخ خضر. ثم انهُ تقدّم الى ناحية البيت المذكور فلمّا وصل قريباً من الباب تصدى لهُ رجلان من الاشداء منعـهُ الظلام عن مشاهدتهما والقى عليهِ احدهما المسائل الآتية :

— شاش عمّك كم دور ؟

اما عبد الله فبهت من السوءال المذكور ولكنهُ ما لبث ان عاد اليهِ الانتباه وفطن انهُ تائه وانّ البيت الذي توهمهُ «متزولًا» هو الخلوة التي يعقد فيها النصيريّة اجتماعاتهم السرّية وان العيد الذي ظنهُ عرساً هو عبارة عن احتفـال ديني فتجلّد وعلم انهُ اذا اظهر عـدم معرفة فهو مقتول

لا محالة لانَّ النصـيريَّة كما هو معروف لا يشفقون على كل غريب عنهم يحـاول كشف اسرار ديانتهم ولذلك تظاهر بكونهِ نصيريًّا واجاب على السؤال بقولهِ :

— ستة عشر دورًا

فقال النصيري: ان عطش عمك فمن اين تسقيهِ ؟

— من عين العلويَّة

— ان ضاع عمك فاين تلاقيهِ ؟

— بالنسبة

— اربعة واربعتَين وثلاثة واثنين وقدرهم مرَّتين في دينك اين ؟

— بالمسافرة (١

ودامت هذه المحاورة بين الاثنـين نحوًا من ثلاث دقائق. غير ان عبد الله لمَّا كان قد اظهر في بادئ الامر تردُّدًا رأى الثاني من البوَّابين الذي كان ساكتًا ان الامتحان غير كافٍ فمن ثمَّ القى على عبد الله مسائل أُخرى وهي :

لي قريب فهل تعرفهُ ؟

— ما اسمهُ ؟

— اسمهُ الحسين

— هو ابن حمدان بلا ريب

— بل هو الشيخ الخصيبي

ومن حسن حظ عبد الله ان السائل وقف عند هذا الحد ولو انهُ

---

١) الباكورة السليمانية ودوسّو تاريخ وديانة النصيرية

اطال السؤال لانكشف الامر وقُتل الراعي المسكين لا محالة ولذلك سُرّي عنهُ ما اعتراهُ من الغم عند ما اذن لهُ بالدخول قائلًا ادخل الآن ايها الاخ باسم « عين ميم سين » فانهُ ما بقي احد غيرك لاجل الشروع في العيد

وكان عبد الله يعرف ان « عين ميم سين » هي الحروف الابتدائية من اسماء الاقانيم الثلاثة التي يتألّف منها ثالوث النصيريّة (١)٠وهبْ انهُ يجهلهـا لم يكن ليجترئ في ذلك الظرف الحرج على الاستفهام عنها٠ غير انهُ كان يسأل نفسهُ كيف تكون خاتمة هذا الحادث معهُ

وفي الوقت نفسهِ فُتح الباب السرّي ودخل عبد الله الى قاعة فسيحة منارة بعدد من الشموع فرأى النصيريّة قاعدين الحُبى (عاقدين اليدين فوق الركبتين) وكلهم سكوت وفي آخرهم كان قاعدًا ايضًا مثل قعودهم ثلاثة اشخاص متوشحون بملابس بيضاء من اقدامهم الى رؤوسهم٠ وكان هؤلاء الثلاثة لا يتميّزون فقط بملابسهم بل ايضًا بضخامة عمائمهم البيضاء بينما ان سائر الحاضرين كانوا جميعًا لابسين كوفيات وعاقدين فوقها العقالات

ونظر عبد الله في الثلاثة المذكورين فرأى ان اوسطهم هو الشيخ خضر الذي كان يقصدهُ فارتعد وارتجف٠ ثمَّ انَّ الشيخ المحكي عنهُ ارسل نظرة غضب على عبد الله فزاد عبد الله خوفًا وقال في نفسـهِ : الليلة التي منيّتي هنا٠ وكان كلما مرّت دقيقة يتوقّع ان ينقضَّ عليهِ النصيريّة ويعاقبوهُ على جسارتهِ٠ غير انهُ رأى ان لا بدَّ من التجلد فجلس في أُخريات الناس وجعل يرقب بطرف عينهِ حركات الحاضرين ليعمل مثلها

---

١) الباكورة

ثمَّ انهُ بعد قليل أُوصد الباب وبدأت الحفلة فجيء الى امام الشيوخ الثلاثة الجالسين في صدر الخلوة بشموع جديدة مع ورق ريحان وشيء من المحلب ومبخرة . واذ ذاك قام احد النصيريَّة وكان صاحب البيت واشار الى احد الحاضرين فقام وقبَّل يد الامام ويد النقيب الذي عن يمينهِ والآخر الذي عن شمالهِ وبعد ان وضع يديهِ على صدره خاطب الحاضرين قائلاً :

— الله يمسّيكم بالخير يا اسيادي ويصبّحكم بالرضا والسعادة هل ترضوني خادماً لكم في هذا العيد المبارك على كيس صاحب العمل الشيخ علي الله يبارك عليهِ (١

فاجاب كل الجماعة قائلين : نعم

ثمَّ انَّ النصيري الذي رضي بهِ الحاضرون خادماً للعيد قبَّل الارض احتراماً لهم وطاعةً واخذ بيديهِ من ورق الريحان ففرَّق على الجماعة وهو يتلو الصلاة المسماة عندهم « سطر الريحان » وقد تلاها الحاضرون من بعده واخذوا من ذلك الورق وفركوا بهِ ايديهم وشمّوا رائحتهُ . اماَّ عبد الله فعمل بالتدقيق مثلما شاهدهم يعملون

وبعد ذلك اخذ خادم العيد طست ماء والقى فيهِ محلباً وكافوراً وقرأ صلاة عندهم يسمُّونها « قدّاس الطيب » ثم سكب على يد الامام قليلاً من الماء المطيَّب وادار الطست على الجماعة فكان كل منهم يأخذ منهُ قليلاً في حفنتهِ ويمسح بهِ وجههُ

ثم انَّ الخادم المذكور تناول المبخرة ووقف قائماً وقرأ الصلاة

---

١) الباكورة

المعروفة عندهم « بقدَّاس البخور » فلمَّا انهاها بخَّر الإمام وكل الجالسين على يمينهِ ويساره . وكان عبد الله يراقب ذلك فقال في نفسهِ : حقًّا انهم يفعلون كما نفعل في كنائسنا

ثمَّ انهُ لم يلبث ان زاد عجبهُ من حركة ثانية قام بها خادم العيد فانهُ تناول كأس خمر ووقف قائمًا وقرأ صلاة اخرى ومن بعدها ناول الكأس الى الإمام وملأ كأسين غيرها وناولها الواحدة للجالس على اليمين والثانية للجالس على اليسار ومن بعد ذلك أُديرت كؤُوس أُخرى على الجلاس الذين كانوا عند تناولها يتبادلون تقبيل الايدي

فلمَّا فرغ خادم العيد من هذا كلهِ عاد فوقف في وسط الغرفة ووضع يديه على صدره وبعد ان طلب المسامحة عن اغلاطهِ وهفواتهِ قبَّل الارض ورجع فجلس في موضعهِ

وهنا تأْتي نوبة الامام في الكلام فيسأل الجماعة هل يرضونهُ شيخًا لهم وسيدًا ثم يتلو صلاة التبرؤ ويُلحقها بصلوات اخرى سواها . واخيرًا بعد ان يمزج الخمر التي في كأسهِ بالخمر التي في كؤُوس جيرانهِ يضع شفتيهِ عليها فيمتصّ قليلًا وحينئذٍ يتناول الحاضرون ما في كؤُوسهم (١ وهم يترنَّمون باشعارٍ للشيخ محمد بن كلازو :

ذكرتُ زمانًا كان لي قبل هبطتي ففاضت دموعٌ من عيوني بحسرةٍ
على طيب ايَّامٍ تبدَّل عزُّها بذلٍّ ومن بعد الامانِ بخيفةٍ
فكنَّا بدار العزّ في درج العلى نسيرُ مع الاملاك في كل روضةٍ (٢

وقد طالت هذه الحفلة حتى قريب نصف الليل ومن بعدها

---

١) الباكورة ص ٣٦ — ٤٣ ٢) راجع هذه القصيدة في الباكورة ص ٦٢ وهي كسائر القصائد التي يتلوها النصيرية منكسرة الوزن في اكثر أبياتها

أُطفئَ قسم من الشموع ورُفعت المبخـرة وكؤوس الخمر واتى صاحب البيت بطبَق كبير من النحاس عليهِ أَلوان واشكال من الاطعمة والحلويات فتقدَّم الحاضرون واخذ كل منهم نصيباً ثم ذهب كلّ واحد في سبيلـهِ صامتاً

وارتبك عبد الله وتشتت في امرهِ ولم يعرف كيف يعمل وحتى لا يعرفهُ احد لفَّ ذقنهُ بطرف كوفيَّتـهِ حتى يختفي قسم من وجهـهِ وهمَّ بالخروج. غير ان الشيخ خضر اشـار اليهِ ان يلحق بهِ. امَّا الراعي فلبى الاشارة وسار طائعاً وهو على يقين بدنو الساعة المحتومة والاجل المبرم. فلمَّا وصل الاثنان الى وسط القرية حيث كانت الشوارع مقفرةً من الناس التفت الشيخ خضر الى عبد الله فقال لهُ :

ماذا عملت ايها الجاهل هل سئمت الحياة. اوَ ما تعلم العقاب المعدّ لمن يحاول الاطلاع على اسرار ديانتنا ؟

فاجابهُ عبد الله شارحاً لهُ الاسباب التي ساقتهُ الى الخلوة مثلما تقدَّم بيان ذلك فقال الشيخ :

افرح لانك صادفتني بل لانك ايضاً قد سـافرت للبحث عن آثار الاب يوحنا الرجل البارّ الذي تجلُّهُ وتكرّمهُ كل طائفتنا نظراً لما لهُ علينا جميعاً من الفضل والمعروف. والآن فأَحسنُ مشورةٍ استطيع ان أُلقنك ايَّاها هي ان تغادر مريين في الحال دون توقُّف ولا تردّد فانهُ اذا طلع عليك صبح الغد وانت باقٍ عندنا يعرفك الناس ولا استطيع دفاعاً عنك. واعلم ان غير واحدٍ من جماعتنا قد ارتابوا في امرك لما شاهدوا على وجهـك وفي حركاتك من آثار الارتباك وقت اجتماعنا في الخلوة. ومتى عدت الى حصن سليمان اذهب الى الرهبان وقُل لهم ان جوسلين نفى الاب يوحنا

الى أخربة دير الصُلَيب . ولا تطلب مني مزيد بيان بل اسرع في الهرب

امَّا عبد الله فما صدَّق انهُ نجا من الورطة التي وقع فيها ففرح بخلاصهِ من وجه ومن وجهٍ آخر ادرك الغـاية التي اتى من اجلها وهي انهُ عرف المحل الذي حُبس فيهِ الاب يوحنا

واذ ذاك قبَّل يدي الشيخ خضر وبادر لمغادرة قرية مريعين وبالنظر الى خفة مشيهِ وحسن معرفتهِ بطرق جبل الحلو وصل صباح اليوم التـالي عند طلوع الشمس الى المضيق الواقع غربي عين الشمس . وبعد مسـيرة ساعة ادرك دير القديسة تقـلا فاخبر الرهبان عن المكان الذي أُبعـد اليهِ الاب يوحنَّا رئيسهم . فلطَّف خبرهُ شيئًا من مرارة حزنهم وتأَسُّفهم

١٥

وكان في دير القديسة تقلا راهب اسمهُ جرمانوس يحب الاب يوحنَّا محبةً عظيمةً ويقدّر قدر فضائلهِ فلما علم بمحـلّ منفاهُ اخذ يرسل اليهِ من مدَّة الى اخرى بواسطة عبد الله الراعي ما يحتاج اليهِ من القوت مع بعض الكتب حتى يتسلى بهـا في خلوتهِ الموحشة . وهذا كل ما كان في وسعهِ عملهُ مساعدةً لرئيسهِ المحبوب . ومع ذلك فقد كان يفعلهُ تحت ستار الخفية محترزًا كل الاحتراز من ان يدري مضطهدو الرئيس البارّ بشيء منهُ

امَّا عبد الله الراعي فقام بالامر خير قيام ومن ذاك الحين طفق يسوق قطيعهُ الى ناحية دير الصُلَيب واذا لم يقدر في بعض المرَّات على الذهاب يكلّف احد اصحابهِ من الرعاة النصيريَّة بايصال ما يحملهُ من المآكل الى

الاب يوحنا . وكان اذا تشكّت امرأتهُ من تكرُّر غيبتهِ عن البيت يقول لها : ان الاب يوحنَّا قد اخلص لنا الوداد ولولا وساطته لكنتِ صرتِ الى اسوإِ حال فـلا يسوغ لكِ ان تتضجري من اي شيء كان نعملهُ لمساعدتهِ

— انك لتنطق بالصواب فاذهب كلما شئت وابذل ما في امكانك واننـا لو اهرقنا آخر نقطة من دمنا في سبيل نجاتهِ لا نقوم الّا بالواجب علينا

ولا نعلم هل درى جوسلين بالمساعدات التي كانت تصل الى الاب يوحنا من وقت الى آخر ؟ او هل رأى ان معيشتـهُ في منفاهُ لم تبلغ من المرارة الدرجة التي يشتهيها ؟ بل غاية ما اتّصلت اليهِ معرفتنا هي انهُ في ذات ليـلة وفد زمرة من الخيَّالة دهموا الاب يوحنا في قلايتهِ بينما كان راقدًا ثم ايقظوهُ بعنفٍ واركبوهُ حصانًا واخذت الخيل تُحضر بهم طول مدَّة الليـل وقسماً من صباح اليوم التالي . وكان ذاك الشيخ المسنّ كلما تماهل في المسير بسبب النعاس وشدَّة اللغوب يوجّه رفاقهُ من البدو اسنَّـة رماحهم فيخزون بها ركوبتهُ فتطير بهِ جريًا . وعلى هذه الصورة قطعوا سهل بعرين وناحيـة الحولة الخصبة وغوطة مرعيين الخضلة ونحو الساعة العاشرة من الصباح وصلوا الى خربة التـين وهي على طريق العربات الممتدَّة الآن بين طرابلس وحمص

والى يسارهم على مسافة ساعتين وراء ستر كثيف من الاشجـار النابتة على حواشي النهر العاصي كانت تبـين ابراج القلعة ومآذن حمص متلألئةً تحت انوار الشمس . وامامهم كان ينبسط سهل « الوعر » الذي تكثر فيهِ الحجارة السوداء

وبعد راحة قليلة استأنف الخيَّالة المذكورون سيرهم ومالوا في سفرهم نحو الشرق متحايدين مدينة حمص. وكان على مسافة عشرة كيلومترات من هذه المدينة بحيرة تدعى بحيرة قدَس (١ وتسمَّى اليوم بحيرة قطينة طولها ثمانيـة عشر كيلومترًا ومتوسّط عرضها اربعة او خمسـة كيلومترات وفي جنوبها سهل مكسوّ بالخضرة النـاضرة تشقُّهُ الجداول والاقنية المتفرّعة من العاصي. وقد برزت في قلب السهل من بين الاشجار والنبات الخضل قمّةٌ تتوّجت بقبة بيضاء على اسم النبي مَند. وقصا السهل مسدود بروابي لبنان وجبال عكّار التي تختلف مشـاهدها متلوّنة بالازرق او الاحمر الوردي على حسب ساعات النهار وترتفع رؤُوسها شاهخةً في الجوّ ومتعمّمةً بالثلوج الدائمة التي تتأَلق تحت انوار الشمس

وعند ضفَّـة البحيرة الغربيَّة مستنقعات واسعة تأْتي اليها قطعـان الجواميس فترعى ما بين منابت القصب المرتفعة. ولا سكَّان الَّا في الضفَّة الشرقيَّة المتكونة من تعاقب الصخور والخلجان الصغيرة فانهُ فوق الصخور المطلة على البحيرة او بالقرب من جون هناك مستدير قامت بعض قرًى لها منظر كالح عبوس بما فيها من المنازل الواطية المبنيَّة بحجارة بركانيَّة سوداء. امَّا في القرن الخامس عشر فقـد كانت اوفر اناقةً لان غابات الدفلى والرمان والساج والخِلاف وغيرها من الاشجار كانت تزيل بعض الشيء من عبوسة منظرها وجفائـهِ

ففي وسط هذا الإطار اللطيف الناضر الذي تقدَّم وصفهُ كانت تتأَلق مياه البحيرة. وكانت في الجهة الجنوبيَّة على مسافة كيلومترين من

---

١) ياقوت وابو الفداء

مصب العاصي فيها جزيرة تدعى تلّ التين اكتست ارضها بالاشجار والنباتات حتى صارت اشبه بطاقة زهور فوق بساط من الماء . وهي بيضيّة الشكل يبلغ طولها نحو ثلاثمائة متر في عرض مئتين تقريباً وفي ناحيتها الغربيّة رابية مخروطة الشكل تغوص قاعدتها في مياه البحيرة وحتى الآن لا تزال فيها آثار بنايات عتيقة كانت في القرن الخامس عشر محفوظةً بهيئة صالحة لايواء الناس

والسكّان على ضفّة البحيرة ما برحوا حتى اليوم يأتون هذه الجزيرة فيزرعون فيها بعض النباتات والاشجار والحبوب ويذهبون اليها على جسورةٍ مشدودة بدلًا من القوارب التي كان يتخذها القدماء لهذه الغاية . غير ان اتصاليّاتهم مع الجزيرة كثيرًا ما يعرض لها التقطُّع لان الريح الغربيّة التي تمرّ في وادي النهر الكبير تهبّ عامّة السنة تقريباً كإعصار شديدٍ يثير مياه البحيرة وتشتدّ خاصةً في ايام الصيف فتتعالى الامواج لاطمةً بغير انقطاع لسدّ الجزيرة الشماليّ وضفافها

وكانت ضواحي بحيرة قدَس في ما خلا ايام العواصف المتقدم بيانها ذات منظر عجيب يسبي الابصار بحسنه لان الالوان تمتزج بالنور امتزاجاً مذهلًا وكل شيء يكتسي بحلة من الغبار الذهبي الدقيق تحت جوّ مشرق ومعتدل معاً . فكان لهذا المنظر تأثير بليغ لا يقوى قلم على وصف جماله الباهر . ومن دواعي الاسف ان المبالغة في قطع الغابات والاحراج ذهبت بمثل هذا المشهد الفتّان الساحر للعقول

ولا ريب ان القارئ يتوهّم بعد هذا الوصف ان الجزيرة كانت آهلةً بوجوه باشّة تتنعّم بمرأى المياه الهادئة البرّاقة وان تلك الضواحي التي تأخذ بمجامع القلب عامرة باناس انتفت الهموم من قلوبهم وفارقتهم

دواعي الغم واسبابهُ. غير ان ما اتصل بنا من اخبار جزيرة قدس يصوّرها باشنع الهيئات ممثّلًا اياها كسجن ومنفىً تفيض فيهِ دموع الاحزان وتكثر التنهُّدات والهواجس المقلقة. فانَّهُ في هذه الجزيرة القفراء أُلقي الاب يوحنا ضحيَّةً لغضب جوسلين وحقدهِ ومن ذلك الحين انقطعت اخبارهُ وظن الناس انهُ قد مات وكلهم قالوا بان صاحب قصر القليعة هو الذي تسبَّب بموتهِ مضيفاً بذلك اثماً جديداً الى سابق فظائعهِ المنكرة

١٦

وكانت اجراس الكنائس في مدينة جبيل تدقّ طول النهار والناس في الشوارع والأزقّة الضيقة بين ذهاب ومجيء متواصلين وكلهم بملابس العيد وهم يزدحمون في ساحات البِيَع وأفنيتها

وكان ذاك النهار موافقاً لعيد انتقال السيدة العذراء وقد جرت في مساء اليوم الذي قبلهُ زينات وتنويرات بهيجة وخصوصاً في قمم الجبال القريبة وجميع اديار الرهبان وكل الكنائس المشيَّدة على اسم البتول

وهذا العيد كما لا يخفى هو مكرَّم ومعظَّم جداً عند اللبنانيين غير انهُ في تلك السنة اكتسى رونقاً خصوصياً لم يكن لهُ في ما مضى وكل ذلك بسبب وجود فرا غريفون في المدينة. فان نائب الكرسي الرسولي المشار اليهِ احبَّ قبل ان يركب البحر من بيروت قاصداً رومية ان يقف في جبيل مدة قصيرة ويعظ مساء عيد السيدة في الكنيسة الكبرى المشيَّدة على اسم القديس يوحنا

وهذه الكنيسة ترتقي الى عهد الصليبيين وكانت في القرن الخامس

عشر باقية على طولها وهندستها الاصليين غير ان الذين تولوا ترميمها بعد ذلك قد احدثوا فيها بعض التغيير (١ وكانت مقسومة الى ثلاثة اسواق واسعة ذات دعائم كبيرة وعند البـاب الشرقي قبّة للمعمودية انيقـة فكانت في ذاك الزمان اعظم بل اجمـل هيكل في جبل لبنان الذي لم يكن فيهِ شبيه لهذه الكنيسة سوى كنيسة قرية معاد (٢ على ان هذه اذا كانت تشبهها من حيث الاناقة فقد كانت تقلّ عنها اتساعاً وعلوّاً

وقبل ان يحقّ زمان الوعظ كانت قد غصّت تلك الاسواق الثلاثة بالناس المتوافـدين من عمشيت واده وبجديدات وبلاط والبوار و برجا وسائر القرى القريبة لاجل استماع كلمات فرا غريفون الذي كان الجميع في جبـل لبنان يعرفونهُ ويجلونهُ • حتى ان اسمهُ كان أشيع بينهم من اسم الاب يوحنّا رئيس دير القديسة تقلا لان هذا الاخير لم يكن يتذكرهُ سوى المتقدّمين في السن بخلاف الراهب الفرنسيسي المومأ اليهِ فانهُ قـد اتى اعمالًا عظيمة في لبنان واحبّ سكّانهُ حبًّا فائقًا وقد طالما دافع وحاجّ عنهم في اوربّة وعلى الخصوص في روميـة (٣ وكان الكل يعرفون ذلك ويتعجبون من فضيلتهِ واستقامة طباعهِ وسعة علمهِ • وكان يعرف اكثر لغات الشرق مثل اليونانيّـة والسريانيّة والعربيّة امّا العربيّة فكان يعبّر فيهـا بسهولة عظيمة عن افكارهِ ومقاصده الّا انهُ كان في لهجتـهِ شيء • يبوح بكونهِ غريباً عنها

ولمّا اجتمع الشعب في الكنيسة اخذوا ينتظرون بذاهب الصـبر

---

١) المشرق ٣ : ٣٥١ و ١٠٣١

٢) المشرق ٣ : ١٠٣٢

٣) فرا غريفون ولبنان (المشرق ١ : ١٢٤)

وفود واعظهم المحبوب ليسمعوا كلامهُ . اماَّ الشَّاب عبد المنعم مقدَّم جبيل وابن اخي الامير رزق الله(١ فابى ان يشـــارك الشعب في تقواه وبقي في قصرهِ متشاغلًا بالشراب مع بعض رفقائهِ في لهوهِ . وكان المذكور واجدًا على فرا غريفون لسببين الاول كونهُ صديقًا لعمــهِ الامير رزق الله والثاني توهمهُ فيهِ انهُ هو الذي اعلم الامير باتخاذه اليعاقبة تحت كنفهِ وحمايتهِ . وكان وقتئذٍ يراسل جوسلين ويخشى من فرا غريفون ان يطلع على اسرار مراسلتهِ ويعلن خيانتهُ

غير انهُ في يوم ذاك العيد العظيم ابى الّا ان يبوح بمــا كنَّ صدرهُ من النفاق وقلَّة الاحترام للدين فاجاب الذين كانوا يدعونهُ الى الكنيسة لسماع خطبة فرا غريفون بقولهِ : ان الكلام لا يجدي ولا يفيــد شيئًا وان كان واعظكم رجل تقوى فقولوا لهُ ان يصنع المعجزات

وكان يظن انهُ نطق بعبـــارة تدلّ على ذكاء وتوقد ذهن . وما كان كلامهُ في الحقيقة غير شاهد على وقاحتهِ وسلاطة لسانهِ . وعلى إثرها جلس للشراب مع رفقائهِ وندمائهِ

وفي تلك الاثنــــاء كان فرا غريفون قد شرع في الكرازة بكنيسة القديس يوحنا وجعل موضوع كلامهِ شرف العذراء القديسة وما اختصَّها بهِ الله من النعم والمواهب واطنب في ذلك طويلًا لانهُ كان يلتــذّ بهذا الموضوع الذي كتب فيهِ مجــلَّدًا برمَّتهِ (٢ . اماَّ الشَّعب فكان يسمع الوعظ بشوق وسرور ومع ما كان وقتئذٍ من شدة الحرّ لم يتحلحل احد من مكانهِ بل كان الجميع راغبين في الاستزادة من ذاك الكلام الشَّهي .

---

١) تاريخ الدويهي ص ١٤٠

٢) راجع مكتبة المؤلفين من رهبانية القديس فرنسيس

وبعد ساعة من الزمان كانت الشمس قد مالت الى المغرب مرسلةً اشعّتها الى داخل الكنيسة من باب السوق الكبير الذي تُرِك مفتوحاً

امّا عبد المنعم الذي كان حتى الوقت المذكور مستمرًّا على الشراب واللهو مع رفقائهِ فنهض فجاءةً وقال:

— هلمَّ بنا ايها الاصحاب نذهب الى الكنيسة تفتّنا في أنواع المسرّة. وليس كل يوم عيد السيدة وفوق ذلك لا يجمل ان يتوهَّم بنا الناس اننا نتهيَّب فصاحة فرا غريفون

فعندها ضحك الكل مقهقهين وصوَّبوا رأيهُ ومضوا وما كان غير قليل حتى وصل عبد المنعم الى باب الكنيسة مع ثلاثة من رفقائهِ فشقّ غابة الجمع المزدحم وتوجَّه نحو الدرابزين ووقف ثمت تجاه الواعظ شامخ الانف يُرسل اليهِ نظرًا وقحًا. امّا الواعظ فاتمّ سياق الكلام كأنَّهُ لم يرَ للمذكور وجهاً غير ان تلك اللهجة الابويَّة الخرّاقة التي كانت تُشيد بمدائح مريم ما لبثت ان انقلبت الى ضدها لان غريفون اخذ يتكلم على عدل الله تعالى والقصاص الذي اعدَّهُ لموقعي الشكوك واشياع الهراطقة. ثمَّ رقّق صوتهُ بغتةً فقال :

« ان من كان في سنّي لا تجوز عليهِ الخديعة ولا يستطيع ان يأمل طول الأيّام. وها انا الآن على وشك سفرة جديدة عظيمة الاخطار رغبةً في منفعة طائفتكم واتماماً لطلب غبطة بطريركم مار بطرس(١. ولا اعرف ايها الابناء الاحبّاء هل يقسم لي الله ان اعود فاشاهدكم فبناء عليهِ اسألكم ان تسمعوا بانتباه صوت ابيكم الشفيق الذي يخاطبكم لآخر مرّة.

---

١) تاريخ الدويهي والمشرق ١ : ١٢٦

حافظوا على وديعة الايمان التي سلّمها اليكم اجدادكم الأمجاد . واياكم ان تتزعزعوا في نهجكم القويم بمسالك بعض الذين انقادوا لصوت الضلال . . . فان الناس يمضون ويموتون والحقيقة تبقى ولا تموت . كلاَّ انَّ ذراع الله لم تقصر وهو يعلم متى شاء كيف يعلن مقدرتهُ وقوّتهُ للناس . . . »

وكان الشّعب يسمع باصغاء عظيم هذه الكلمات المؤثرة . وكان غريفون يريد متابعة الوعظ غير انهُ سمع من اقصى الكنيسة بعض دمدمة ثم انقلبت الدمدمة الى صوت جهوري صدر من كل الافواه في وقت واحد وكان الكل يقولون : « معجزة . معجزة . صدق فرا غريفون . السماء تؤيد اقوالهُ . لعنة الله على الهراطقة »

واي شيء حصل يا ترى ؟

كانت الشمس كما سبق القول على وشك الغياب ترسل اشعّتها المائلة من الباب الكبير . غير ان نورها ظهر بغتةً في كوة الحنيّة فائضاً على قدس الاقداس والخورس اللذين كانت الظلمة قبل دقيقة خيّمت عليهما (١ وهكذا بانت من وراء الخطيب عاقدةً على رأسهِ اكليلاً من نور . فلمّا شاهد الشّعب هذا المنظر العجيب تضاعفت هتافاتهم « معجزة معجزة . غريفون هو يشوع ثانٍ »

وما استطاع غريفون ان يُسكت الشّعب المتحمّس الّا بعد الجهد البالغ فلمّا عاد اليهم الهدوء خاطبهم قائلاً :

« يا اخوة ان الله قد شاء دون ريب ان يكافئ ايمانكم فاليهِ

---

١) راجع وادينغ وتواريخ رهبانية مار فرنسيس والمشرق ١ : ٦٠

ينبغي ان نرفع جزيل الشكر والحمد. واياكم ان تنسبوا للمخلوقات ما لا تجب نسبتهُ الّا للخالق جلَّ وعلا. هلمَّ الآن نسجد جميعاً مبتهلين الى الهنا الشفيق بان لا يحرم وطننا هـذا حمايتهُ الفريدة التي لم يضنَّ بها عليهِ من قبل »

فما قال هذه الكلمات حتى خرَّ جميع الحاضرين جُثيّاً على الركب وجثا ايضاً عبد المنعم محمولاً من مثل الحاضرين بل مدفوعاً الى ذلك بقوَّةٍ داخليَّة واخذ فرا غريفون صورة العذراء القديسة فبارك بها جمهور السامعين بينما كانوا يترغون بنشيد الشكر

وبعد ذلك تفرَّق الجميع وفي كل قلب ما لا يوصف من التأثير. وما طال الوقت حتى انتشر خبر هذا الحادث العجيب في كل انحاء لبنـان حيث بقي الاهالي يتذكرونهُ لمدة طويلة. اماً فرا غريفون فاحبَّ لتواضعهِ ان يتخـلَّص من تزاحم الشَّعب عليهِ فترك جبيل خفية في مســاء اليوم المذكور ذاهباً الى بيروت حيث اقام ما بين اخوتهِ الرهبان الصغار في ديرهم المعروف بدير المخلّص (١

وكان عبد المنعم قد تأثّر مماً رأى وسمع لكنَّهُ لعنادهِ وإصرارهِ عاد الى منزلهِ محاولاً ان يُفسّر ذاك المظهر الخارق لعادة الطبيعـة الذي شاهدهُ بعينهِ تفسيرًا ملتويًا وينسبـه الى انخداع البصر. وقد ذهب ان مخيلة السامعين تهيَّجت بشـدَّة حرارة الجوّ فصورَّت لهم كحقيقة ما كان ناتجاً عن غلط الحواس وخطائهـا لان كلمات الواعظ الفرنسيسي اختطفت عقولهم فظنوا انهم يشاهدون معجزةً

---

١) المشرق ١ فرا غريفون

هكذا كان عبد المنعم يعلّل هذه الحادثة لرغبتهِ في عدم تصديقها او بالحري لاظهار الجلد والثبات على سوء اعتقاده تجاه رفقاء مسرّاتهِ الذين شاهدوا كلهم كما شاهد هو وكما شاهد سائر اهالي جبيل ومن انضمَّ اليهم من القرى المجاورة ان الشَّمس بعد ان كانت على وشك الغروب عادت الى الشرق ودخلت من حنيَّة الكنيسة. ولا ريب ان الاصرار هو اثمٌ قبيح ولكنهُ يكون اقبح متى كان صاحبهُ يغمض عينيهِ عن مشاهدة النور كما فعل عبد المنعم الذي كان من جنس اولئك الناس الذين قال عنهم سيدنا يسوع المسيح في انجيلهِ: «لا يؤمنون لا بموسى ولا بالانبياء حتى لو قام احد الاموات ايضاً فانهم لا يؤمنون»

١٧

كانت البترون في غابر الايّام مدينة عامرة بالسكان قائمةً حول جون صغير ترسو فيهِ السفن. وكانت تُشبه مدن القرون المتوسّطة بازقّتها الضيّقة واسواقها المسقوفة وازدحام المنازل حول القلعة وهي دار المقدَّم. وقد اقامت على طول الساحل عدداً من أبراج المحافظة وشيَّدت في السهل المجاور لها جملة قلاع حصينة حتى صارت مفتاحاً من مفاتيح لبنان الشمالي

ففي ذات يوم من شهر ايلول بينما كانت الشمس ترسل اشعَّةً حامية على قصر المقدم زين شُوهدت في احدى الغرف المطلَّة على البحر امرأتان متشاغلتان بالغزل وهما صامتتان

وكان بعد قليل أنَّ الصغيرة توقَّفت عن الغزل وقطعت خيط الصمت وخاطبت رفيقتها قائلةً: ألاحظتِ يا مريم مولاتنا راحيل ؟

— ما معنى هذا السؤال ؟ فانا نظيركِ أراها كل يوم وانت تعلمين مثلي حسن خصالها ورفقها بجميع المتقيدين بخدمتها

— لم تفهمي يامريم مغزى كلامي . ألم تلحظي كيف انَّ أمائر الغمّ والنكد قد لاحت من بضعة ايَّام على وجهها

— ولماذا تغتمُّ وهي صبيَّة جميلة تملك ثروة واسعة وقد اظهرت من الحلم والرفق وسائر الخلال ما جعلها دانيةً من قلوب الكل في هذه المدينة التي اجمع اهلها على احترامها ومحبتها . وفوق هذا كلهِ قد رزقها الله غلاماً ذكرًا يرث عهد ابيهِ زين والجميع في البترون يدعون لها بان تُرزق مع سلامة نجلها اولادًا آخرين عديدين تحيا فيهم فضائل القدماء من مقدَّمي البترون ومحامد البارونات من اسرة لمبرياك

نعم انَّ وفاة والدها التي عرضت في الاشهر الاولى لزواجها قد احزنت فؤادها وادخلت عليهِ الغمَّ الشديد . غير انَّ من كانت مثلها وافرة العقل ومتعلقة بالمبادئ المسيحيَّة لا تستسلم الى الحزن البليغ من جراء رزء قد طالما انذرتها بهِ شيخوخة والدها وأسقامه الكثيرة . وفضلًا عن هذا كلهِ قد اتت بشقيقتها فهي عندها دائمًا تتعزَّى بها وتتسلى بمشاهدتها عن فقد والدها

— الله يسمع منكِ يا مريم . ولكنني ارى انَّ مولانا المقدَّم زين قد غيَّر سلوكهُ منذ مدَّة مع عروسه لانهُ مذ وطئت حنَّة شقيقتها عتبة القصر قلَّ انعطافهُ الى زوجتهِ وتحوَّلت محبتهُ بكليَّتها الى أختها المذكورة

— انَّ هذا الانعطاف هو طبيعي وهو من قبيل الشفقة على ابنة صبيَّة تيتَّمت في السادسة عشرة من عمرها ولم يبقَ من عاضدٍ ولا معين سواهُ فحملهُ الحنوّ على ان يأتي بها الى قصرهِ

— سمّي هذا الميل حنواً او شفقةً ما شئتِ. نعم لا يبعد انهُ كان في اوّل الامر كما قلتِ ولكنّهُ انضاف اليهِ بعد ذلك عاطفة أُخرى. وعلى كل حال فانّ اهتمام زَين باسر اليتيمة لم يكن يجب ان يُنسيهُ واجباتهِ نحو قرينتهِ . وبناء عليهِ فانا اكرّر عليك القول انهُ منذ دخول حنّة على القصر قد جرى فيهِ تغيير مهمّ

— أرى انك يا فريدة تفتحين عينيك للنظر الى ما لا يعنيك وتكثرين من الكلام الهراء الذي لا يليق بصبيّة في سنّك لاسيما بمن هي خادمة نظيرك . ألا تعلمين انهُ يجب علينا ان نغمض اعيننا على كل شيء بل ان نكون عمياناً لا نرى وصماً لا نسمع وبكماً لا نتكلّم ؟ وبعد هذا وهذا لا يصح الحكم على ظواهر الاشياء لأنّها خدّاعة مضلّة ولعلّ ما لاحظتهِ هو ناتج عن الملالة والسأم من هناء العيش لانّ طول السعادة يورث الضجر كالشقاء ولذلك اكرّر عليك المقال انّ مولاتنا في راحة ونعيم

— اتمنّى لها من كلّ قلبي ان تكون سعيدةً منعّمةً لانها من فُضليات النساء ولكن لا اظن اني على غرور. أما لاحظتِ كيف انّ زَيناً يكثر من البشاشة لحنّة والحفاوة بها ويجلس الساعات الطويلة متأملاً في الغزالة التي تلهو بها وكيف يقول لها انها تُشبه هذا الحيوان الشفيق في رقّتها ودماثتها ؟ وكان قبلاً لا يمضي يوم دون ان يخرج مع قرينتهِ متنزّهاً على الخيل ويحب ان يشاهدها راكبة حصانها وهو يموج تحتها كأنّهُ يفتخر بمن علّت ظهرهُ والآن قد اجتنب ذلك كلهُ وصار يقضي اياماً بكاملها يسمع ثرثرة صبيّة في السادسة عشرة من سنّها

— صدقتِ يا فريدة ولكن ما العمل والرجال لا يثبتون على حال .

ومع كل هـذا فاني لا ارى في ما سردت من الامور شيئاً يوجب القلق والاضطراب

— اسمحي لي اذاً ان اذكّرك بامرٍ آخر واسألك ان تصيخي الى قولي سمعاً: اما تعهد المقدم زَين لمّا حضرت حنّة الى هنا بان يبحث لهذه الصبيّة اليتيمة عن شاب مهذّب يزوّجها بهِ في اقرب فرصة. والآن كلما سألتهُ مولاتنا ان يعجل القيام بعهدهِ يجاوبها انهُ لا شيء يوجب الاسراع ومع ذلك فانَّ مولاتنا لا تظهر نفوراً منهُ بل هي مقيمــة على محبتهِ وتأييد ودادها الصحيح لهُ. ومعاذ الله ان اشتبه في فضيلة شقيقتها حنــة او ألقي عليها تبعة الحال التي صارت اليها مولاتنا لاني ما شاهدتهــا قط تتكلّم مع صهرها زَين الّا منخفضة النظر فضلاً عن انها لا تسعى اليهِ اذا لم يطلبها ولا تجرّئهُ بشيء من اقوالها او حركاتها

— انها ابنة طاهرة لا تعرف ما هو الشرّ

— صدقتِ ولكن ما هو الداعي لغياب المقدَّم زَين كل هذه المدّة الطويلة ؟ فقد زعم انهُ ذاهب الى بشرّاي اجابةً لدعوة المقدَّم رزق الله واكّد انهُ يعود بعد ايّام قليلة وها قد مضى عليهِ الآن شهر من الزمان دون ان يرسل خبراً فكيف لا نحسب سلوكهُ هذا قلة اكتراث بقرينتهِ

— لعلّ اموراً غير منتظرة استــدعت بقاءهُ في بشرّاي رغماً عن ارادتهِ. ولا يخفاكِ انّ الاحوال في شرقي لبنــان ليست على ما يرام من السكينة لان عصائب العرب والتركمان والنصيريّة غزت في هــذه الاثناء دير مار يعقوب وسلبت كل ما يخصّهُ من الماشية وحاصرت الرهبــان ايّاماً. ثم انّ مقدّم جبيل لا يزال يدعي بملكيّة قلعتيْ معاد ومار جبيل مع انهمــا من قديم الزمان تابعتان لمقدميّة البترون. وبنــاء عليهِ ترين انّ

الاسباب التي تستدعي طول غياب مولانا كثيرة ومن يدرينا الآن هل يخوض غمرات القتال في المنيطرة او في البقاع . . .

وبينما المرأتان المذكورتان في هذا الحديث وصلت مولاتهما فقطعتا الكلام وكانت طويلة القامة جميلة المحيَّا زرقاء العينين يدلّ ظاهرها على ما تجمّلت بهِ من كرم الخلال وسلامة الطويَّة فكان من الصعب على مَن ينظر اليها ان لا يشعر بانجذاب قلبهِ الى ظرفها القرون بما لا مزيد عليهِ من اللطف والايناس . واذ ذاك قالت للمرأتين اللتين في خدمتها :

— في عزمي ان ازور دير القديس جرجس الحميراء في بلاد الحصن حتى يمن الله عليَّ بواسطة شفاعتهِ بان يعود زوجي بالسلامة من سفرتهِ وبما ان غيبتي تطول بضعة ايام قصدت اخباركما حتى تلازم كلّ واحدة عملها . ثمَّ اتبعت ذلك بكلمة الوداع التي نطقت بها مصحوبة بالابتسام اللطيف على عادتها . امَّا المرأتان فاخذتا تنظران احداها الى الاخرى متعجبتين وكلّ واحدة تقول في نفسها : اني جاوزت الحدّ المرسوم لي وما يدريني هل كانت زيارة مولاتي بمنزلة تنبيه لي على وجوب حفظ لساني . وما هو الغرض يا ترى من هذه الزيارة البعيدة ؟ وكيف عزمت مولاتنا على اقتحام اخطار هذا السفر الطويل ؟

كانت هذه الافكار تتردَّد في اذهانهما سرًّا وقد عزمت كل واحدة من الآن فصاعداً على ان لا تتورَّط في حديث قد يمكن ان يجرَّ عليها وبالًا

وكانت كنيسة القديس جرجس بالقرب من قلعة الحصن مكرَّمة

---

١) ياقوت ورحلة سوريَّة لدوسو

وقتئذٍ في سوريّة غاية الاكرام وكان قد انتشر بين الناس خبر العين الدوريّة التي اشتهرت ايضاً في ايّام الفينيقيين وذاع عندهم امر الدير الكبير الذي يخصّ الملكيّين ويُحسب من اعظم الاديار في جبل اللكام (١ فكان الجميع في بلاد عكّار وشمالي لبنان يقصدونهُ من كل فجّ وصوب وخصوصاً في ايّام السوق الكبيرة التي كانت تقام هناك في يوم عيد الصليب وكان يجتمع عدد غفير من الزوّار من كل امّة ونحلة

وعليهِ فلم يكن احد من الناس يستغرب هذه الزيارة الّا الخادمتين المتقدم ذكرها تعجّبتا من إقدام مولاتهما عليها

ولمّا دخلت راحيل الى مخدعها خرّت ساجدةً امام المصلوب وهتفت قائلةً: «ربّي وإلهي اعضدني وساعدني فانك عالم بطهارة نيّتي. قوّني على اجتياز هذه المحنة وضع في شفاه عبدك الكلام الذي يردّ السلام الى نفسي»

ثمّ انّها تقدّمت الى سرير فيهِ طفل رضيع لم يمضِ عليهِ غير سنة واحدة من العمر فقبّلت جبينهُ قائلةً: «نَمْ يا حبيبي بهناء والله َ اسأل ان تستمرّ جاهلاً الاحزان التي تعذّب قلب والدتك»

. . . .

وفي بدء الليل عند العشاء تقريباً خرج من البترون خيّالان وذهبا في طريق طرابلس وكان اكبرهما قد ستر كل وجههِ بكوفيّة كبيرة من الحرير واشتمل ببرنس عريض وركب فرساً من جياد الخيل عليها سرج من المخمل الاحمر

---

١) سفرنامه لناصري خسرو

واماً الثاني فكان احطَّ مقاماً يجاوب بكل احترام على اسئلة رفيقهِ وكان الاثنان يوسعان الخطى فلمَّا وصلا على مساواة طرابلس عند قبة الشيخ البدَّاوي غيَّرا فودًا طريقهما وتغلغلا في جبل عكَّار

١٨

على مسـيرة يوم من الشمال الغربي لمدينة حمص مدينة صغيرة تدعى مصياد يقيم فيها ضمن سور قد تخرَّب اكثره نحو الفين من الشيعة الاسماعيليَّة في منازل واطية حقيرة منفصلة بعضها عن بعض بارض مملوءة من الأنقاض او حقول تبرز فيهـا بعض اشجار ضئيلة ونباتات حرقتها الشمس. واماً شوارعها فجميعها ضيّقة كثيرة الاوساخ قلَّما يمرُّ فيها انسان فهي من المدن التي فارقتها الحياة والحركة من زمان طويل (١. غير انها لم تكن على الحالة التي ذكرنا في ايَّام الرواية التي نقصّ الان حوادثها بل انها وقتئذٍ كانت حاضرة الاسماعيليّين ومقاماً لاميرهم (٢

على انَّ هؤلاء الذين قبضوا من قبل مئتي سنة على ازمَّـة السيادة المطلقة بلا منازع في جـبل اللكام ووادي العاصي كانت قد تقلَّصت سطوتهم من الاماكن المذكورة حيث كانوا قبلًا يحالفون تارةً ملوك الشرق وتارةً يعادونهم ذهاباً مع اهواء سياستهم. ولم يكن مقدّموهم يشبهون في شيء امراءهم القدماء الذين كانوا يعـدُّون انفسهم مستقلّين ويضيفون

---

١) راجع رحلتنا الى بلاد النصيريَّة

٢) ياقوت والدمشقي والقلقشندي

الى اسمائهم لقباً يضيفونهُ الى « الدنيا والدين » مع انَّ لقباً كهذا لا يليق الَّا بالملوك (١ وحدهم وبالنظر الى تحصنهم في قلاع حريزة لا تُرام مثـل مصياد والرصافة والخوابي والكهف والمنيقة والقدموس والعليقة استمرُّوا على معصية الخلفاء والسلاطين مدّة طويلة حتى رهبهم الشرق كلهُ وخاف تعدّياتهم وهجماتهم (٢

ولكن الملك الظاهر بيبرس اتصل اخيرًا الى قهرهم ووضع حدّ لسلطتهم فاستولى على مصياد وسائر القلاع التي تخصّ هذه الشيعة. وقد أثّر فيهم تأديبهُ تأثيرًا نافعًا لانهم من ذاك الوقت صاروا اطوع لسلاطين مصر من بنائهم فكانوا يستخدمونهم في كل المهمّات الصعبـة نظرًا لما عُرفوا بهِ من الشجاعة والاقدام(٣. وكان الاسماعيلي (او الفداوي كما جرت العادة قديمًا بتسميتهِ) قبل ان يذهب في احدى هـذه المهمّات الخطرة التي قلّما يعود منها يتناول ثمن دمـهِ فاذا اتفقت لهُ العودة كان الثمن لهُ والّا رجع الى عيلتهِ (٤ ثمّ ان سلاطين مصر كانوا يستخدمون الاسماعيليّين كعمّال سرّيين لهم فلذلك كان المذكورون مطّلعين على خفايا السياسة وغوامضها

وفي الشمال الشرقي من مدينة مصياد قلعـة ضخمة قائمة على صخر مرتفع عن الارض بضعة امتار ومنحوت نحتًا عموديًّا زيادةً لانحداره الطبيعي ورغبةً في جعل القلعة منفصلة عن كل ما سواها تمام الانفصال. وكانت للقلعة أسوار ثخينة مرتفعة مبنيّة من حجارة سمراء ولها بالمقابلة الى خضرة

---

١) مجموع الكتابات العربية لِفان بركم
٢) المقريزي ٣) القلقشندي
٤) ابن بطوطة والدمشقي

جبل اللكام منظر يأخذ بمجامع القلب فلا يتمالك النــاظر الّا ان يشبهها بحيوان ضــارٍ متجمّع على نفسهِ كأنّهُ يحرس ذاك الوادي الخصيب وادي العاصي حياةَ سوريَّةَ الشرقيَّة وروحها المنعشة

وفي داخل القلعة بعد ان تجوز البوَّابة المعقودة بالحجارة ترى طريقًا واسعًا ذاهبًا صُعُدًا يؤديك وانت راكب الى الطبقات المختلفــة ۰ وعلى اليمين والشمال غرف فسيحــة لسكنى الامير وعيلته مع مساكن عديدة لاقامة الحامية ۰ هذا هو المحل الذي اتخــذهُ رؤساء الشيعة الاسماعيليَّة مقامًا لهم من قديم الزمان (١

. . . .

ففي ذات يوم من ايام الخريف وفــد صباحًا راهب من دير حصن سليمان فارتقى درج السلّم المنقورة في الصخر المؤدية الى مدخل قلعــة مصياد ۰ والظاهر ان وجود راهب في هذه المدينة الصغيرة كان من الامور الخارقة العادة لانهُ كيفما سار كان يتبعهُ موكب عظيم من الاولاد ليتفرَّجوا على ملابسهِ التي لم تسبق لهم رؤيتها

ولمَّا وصــل الراهب الى باب القصر ابى الحرَّاس ان يأذنوا لهُ في الدخول فسألهم ان يستأذنوا من الامير ويقولوا لهُ ان الاب جرمانوس يريد مقابلتك فما كاد يطرق اذن الامير هذا الاسم حتى امر بادخالهِ دون تأخير وحينئذٍ اوضح الراهب بوجيز الكلام غايتهُ من زيارة الامير الموما اليهِ ولا شك انَّ القارئ يفطن ان هذه الغاية متعلّقة بالاب يوحنا

امَّا الامير الذي ما زال حافظًا عاطفة الامتنــان للاب المذكور على

(١ المجلة الاسيويَّة سنة ١٨٧٧ و ١٨٩٧ ورحلتنا الى جبال النصيرية

مداواة ولدهِ وشفائهِ فلم يقوَ على كظم غيظهِ من سلوك جوسلين. ثمَّ انهُ طيَّب خاطر الاب جرمانوس ووعدهُ بالتفتيش عن الاب يوحنَّا والتنقيب عن مكان وجودهِ وفي الوقت نادى احد الجند قائلًا لهُ:

تذهب اليوم الى القليعة وتنخرط ما بين جنود جوسلين وتسعى جهد امكانك لمعرفة المكان الذي نُفي اليهِ الاب يوحنا فاسرع اذًا في الذهاب ولا ترجع الَّا بعد ان تقوم بهذا الامر الذي يهمُّني نجاحهُ جدًّا

— سمعًا وطاعةً يا مولاي. قال الجندي هذا الكلام وقبَّل ذيل ثوب الامير وسافر وفي اليوم التالي وصل الى قصر القليعة وتظاهر بانهُ شيعيّ من متاولة الهرمل وسأل قبولهُ في خدمة جوسلين الذي لمَّا كان راغبًا في تكثير الجنود عندهُ لحماية قصرهِ ورأى في الاسماعيلي المتنكر رجلًا مفتول العضل طويل القامة بادر سريعًا الى قبول الطلب بكل رضى وهشاشة

وما اقام هذا الغريب طويلًا مع الجنود الحامية لقصر القليعة حتى اكتسب مودَّتهم

وبينما هو يخوض في الحديث معهم ذات يوم اخبرهُ احدهم انهُ كان في جملة الذين رافقوا الاب يوحنا الى منفاهُ الجديد وبعد قليل من الكلام عرف انهُ نُفي الى جزيرة بحيرة قَدَس. فاكتفى بما سمع ولم يزد في السؤال

وفي الليلة التابعة أُقيم الاسماعيلي خفيرًا على البرج المطلّ على مدخل القصر ولم يكن في الجهة الأُخرى المقابلة سوى جنديّ واحد سهران على الخفارة. فلمَّا انتصف الليل تزلَّج الاسماعيلي بواسطة حبل دلَّاهُ على اسوار القصر وسار حتى وصل الى عين الشمس وذهب الى شيخ القرية وطلب منهُ فرسًا فتمنع الشيخ في بادئ الامر ولكن لمَّا عرف انَّ الطالب

فداويّ من اتباع صاحب مصياد سارع الى قضاء كل مطاليبهِ

فلما صار الاسماعيلي المذكور في ظهرِ فرسهِ جدَّ محضرًا حتى قطع المسافة التي كانت تفصلهُ عن بحيرة قدس باسرع ما يكون من الزمان واستفهم من الاهالي المقيمين بقربها عن الاب يوحنا وبعد ان تأكَّد وجودهُ هناك عاد الى مصياد مخبرًا اميرهُ بنجاح مهمَّتهِ

امَّا الامير فانَّهُ نادى في الحال احد الفداوية وامرهُ ان يسير الى جزيرة بحيرة قدَس حاملًا رسالة منهُ الى الاب يوحنا وقد قال لهُ في الرسالة المذكورة انَّهُ مسرور جدًّا لكونهِ يستطيع ان يقدّم لهُ خدمة نافعة فعليهِ ان يتبع الرجل الذي يسلّمهُ الرسالة ويأتي بهِ الى مصياد او الى اي موضع آخر يعيّنهُ لهُ. وامَّا الخفراء فانَّهم لا يتعرَّضون لهُ اصلًا متى عرفوا ان امير مصياد يطلبهُ

وعند ما وصل الفداوي الى جزيرة البحيرة واطلع الاب يوحنا على قصدهِ رأى من الاب المذكور مقاومة غير منتظرة فاجتهد ان يقنعهُ في مغادرة سجنهِ فأبى وكان غاية ما طلب من امير مصياد ان يسهل للاب جرمانوس زيارتهُ المدَّة بعد المدّة

١٩

كان الخفراء الذين عُيّنوا لحراسة الاب يوحنا يشدّدون المراقبة كثيرًا في بادئ الامر فما كانوا يأذنون للزوارق ان تقترب من الجزيرة التي حُبس فيها ولكنَّهم ما لبثوا ان تراخوا بعد مرور بضعة اشهر لمَّا رأوا اهتمام امير مصياد بشأنهِ وعدم احتيال السجين في وقت من الاوقات على الفرار فضلًا

عن ان الاسقام والآلام الطبيعيَّة والادبيَّة كانت قد اضعفتهُ كثيرًا وبسببها لازم الكوخ الذي وُضع فيهِ باعلى محلّ من الجزيرة وقلّما كان يخرج منهُ

وقد سبق الكلام ان الاب جرمانوس اتصل هذه المرَّة الى الاطلاع على مكان منفاه فكان ينفح الخفراء بشيء من النقود ويأتي لزيارتهِ مرَّة بالشهر في يوم معيَّن

وكان هذا الشيخ البارّ ينتظر اليوم المذكور بفارغ الصبر لا لأنهُ كان يتعزَّى بمشاهدة اخيهِ وصديقهِ في الرهبانيَّة بل خاصَّة لان الاب جرمانوس كان يحمل اليهِ في حقّ من الفضَّة جسد الرب الذي يقوّيهِ على احتمال مكاره منفاه بعد ان كان قد حُرم تلاوة القدَّاس الالهي من نحو سنة. وهذا هو السبب الذي من اجلهِ كان يشتاق لزيارتهِ ويحسب سلفًا الايّام التي تفصلهُ عنها. وكان اذا حلَّ يومها يخرج باكرًا من كوخهِ الضيق ويجلس على حجر هناك متطلعًا في الافق لعلَّهُ يشاهد من تاقت اليهِ نفسهُ. وفي ما خلا اليوم المذكور لم يرهُ الخفراء قط في خارج كوخهِ بل انهُ كان يعاني معيشة الحبساء بكامل معناها حتى يمكن القول عنهُ انهُ دُفن حيًّا في محبسهِ

وجاء موعد زيارة الاب جرمانوس فأقام الشيخ القديس ينتظرهُ على غير فائدة ومرَّ الصباح مع جانب عظيم من المساء ولم يأتِ احد يعكّر صفاء وحدة السجين. ثمَّ ابتدأ الليل نازلًا من اعلى الجبال حيث تنتصب تلك القلعة السوداء قلعة حصن الاكراد. وكانت الشمس قد احتجبت وما عاد يُرى منها سوى انعكاسات وردّية تجوز في تضاعيف السحاب تاركةً لها حواشي واهدابًا ارجوانيَّة وذهبيَّة. وفي الجانب الآخر من الفلك ظهر

القمر مصفرًّا حزينًا فوق رمال صحراء تدمر الموحشة. وكانت الطيور قد كفّت عن التغريد وما بقي سوى العصافير في الاشجار متخاصمةً باعلى اصواتها على افضل الاغصان لمبيتها. وبدأت الخفافيش وقتئذٍ تخرج من مكامنها طائرةً في الجوّ ما بين ربوات من الحشرات المجنّحة. وكان ذلك في مساء يوم حارّ من شهر ايلول

غير ان الاب جرمانوس ما ظهر لهُ اثر وباطلًا كان الاب يوحنّا يحدّق بعينيهِ الضعيفتين في الافق... فانّهُ ما كان يشاهد غير القفر الموحش.. كان كل دقيقة يُخرج رأسهُ من نافذة الكوخ ناظرًا الى مياه البحيرة وضفافها والاراضي المحيطة بها ويحبس نفَسهُ متسمّعًا ويتخيّل في بعض الاحيان انهُ يسمع صوت مجذاف يضرب سطح الماء. وما كان ذلك في الحقيقة سوى زفير الامواج التي تتكسّر على الشاطئ. نعم كانت العصافير تزقزق والخفافيش تطير في كل ناحية غير انهُ لم يكن شيء على وجه البحيرة سوى بعض من البطّ كانت تذهب لتبيت بين القصب الثابت على ضفة البحيرة

ولمّا سئم الشيخ القديس من الانتظار اخذ يسأل نفسهُ عن عاقة الاب جرمانوس. ثم اطبق كتاب صلواتهِ قائلًا: ان هذا اليوم هو موعد قدومهِ فهل أُصيب يا ترى بنكبة في طريقهِ أو هل اضطرم غيظ مضطهديّ عليهِ ؟. ثم خرج متوكئًا على عصاهُ وسار بخطًى مرتجفةٍ اثقلها وقر السنين متوجّهًا نحو الشاطئ فاقام يتطلّع بامعان فما شاهد شيئًا فنادى فما كان غير السكوت جوابًا لندائهِ فأُفعم فؤادهُ حسرةً وغمًّا وصرخ قائلًا ربّي وإلهي ماذا جرى ؟ اني صابر بكليّة قلبي على ما اقاسي من الآلام والاضطهادات

التي صارت نصيباً لي منذ سنوات ولكن اسألك ان لا تسمح بان يقاسيها غيري لاجلي

ثمَّ زاد الليل طراءةً وزاد القمر اصفراراً وكمداً وانبعثت من البحيرة الجرة رطبة باردة وظهرت أضواء ضعيفة مرتجفة من منازل القرى المحيطة بالبحيرة مثـل تلّ النبي مند وكفر موسى وقطينة وشومارية وكفر عبده وغيرها فحينئذٍ عاد الشيخ البار الى كوخهِ قلق البال مضطرب الافكار فاغلق بابهُ وجثا للصلاة من اجل من كان ينتظره

وكانت العصافير قد انقطعت اصواتها وتكاثر عدد الخفافيش الطائرة في الجوّ ثمَّ هبّت ريح شماليَّة باردة اضطرَّتهُ لاقفال النافـذة المطلَّة على البحيرة. غير انَّهُ قبـل ان يتمدَّد على الحصيرة التي اتّخذها فراشاً لهُ فتح النافذة حتى ينظر الى البحيرة لآخر مرّة. وكان قد تضاعف هبوب الريح وأخذ وجه الماء يتغطّى بامواج صغـيرة بيضاء فما كان غير قليل حتى شاهد هيئة سوداء تسير على بساط الماء فحدق ببصرهِ هنيهةً فرأى قارباً دانياً من الشاطئ وقد جلس في مؤخرهِ شخص ملتحف برداء عريض وفي مقدَّمهِ شخص آخر يسوق الزورق وهو يقاتل الريح والامواج بغاية الكدّ والعناء. غير انَّ الاب يوحنَّا لم يأمل ان يكون فيهِ الاب جرمانوس لان وقت قدومهِ كان قد مرَّ وانقضى وغاية ما ظنّ انهُ يحمل خفـيراً جديداً بعث بهِ جوسلين لمزيد التضييق عليهِ بعـد ان عرف ان احد اصدقائهِ توصَّل الى تلطيف مرارة منفاهُ مدَّة بعض ساعات في كل شهر

واخيراً اتصل القارب الى الشاطئ وخرج منـهُ الشخصان الى ارض الجزيرة. اماَّ الشخص الملتحف بالرداء فكانت قامتهُ تدلُّ على انهُ رجل

غير ان مشيتهُ تنبئ بكونهِ امرأةً وقد تقدَّم منحنياً متردّدًا ولكن آثار السيادة بادية عليهِ

فلمَّا وصل الى الحبسة امر الجذف بان يطرق الباب فقام الاب يوحنا ففتح وقد اخذهُ العجب من الشخصين. وما لبث ان زاد عجبهُ لمَّا شاهد تحت ذاك الرداء على ضوء قنديلهِ الذي كانت انوارهُ الضعيفة تضيع في خلال الظلمة شخص امرأة جليلة وجميلة لبست ثوبًا متلألئًا بالحلي وتشنَّفت باقراط من الحجارة الكريمة وتزَّنرت بمنطقة تلمع بالذهب الخالص

ففي الحال عمل اشارة الصليب وأغلق البـاب في وجهها وظنَّ ان الشيطان اتى ليجرّبهُ بهذه الطريقة. وكيف لا يظنّ ذلك وكان قد قرأ في سير الآباء القديسين ان الشيطان كان يتمثَّل لهم في بعض الاحيان بصورة امرأة متبرّجة ليفقدهم ثمرة جهادهم الطويل

غير انَّ المرأة صرخت قائلةً اسألك ايهـا الرجل القديس ان تصيخ اليّ وتأذن لي في هذا الليل ان اقيم ههنا. فما اتيت اليـك الَّا لاسترشد بنصائحك واي بأس اذا اذنت لي في المبيت على عتبة كوخك؟

— أتطلبين الارتشاد في مثل هذه الساعة؟ ثمَّ ماذا يستطيع ان يفيدكِ هذا الشيخ الذي نبذهُ العالم نَبْذ النواة؟

ومع ان الريح كانت تتلاعب بملابس تلك المرأة وغدائرها استمرت واقفة على عتبة باب الكوخ ثم اكملت كلامها بلهجة محزنة وهي تقول:

اني راحيل زوجة زَين مقدَّم البترون وقد اتيتُ اليك طالبةً منك النصح والتعزية

— لم اعُد من هذا العالم. وباي حقّ يأتي الاحياء فيلبسـون سكينة الاموات؟ واذا كنتِ تطلبين نصحاً وتعزية فلماذا تأتين من مكان بعيـد

وعندكِ بالقرب منك فرا غريغون رجل بارّ قديس ؟

— قد ركب البحر مسافراً الى رومية . اما انت ايها البارّ صديقهُ واخوهُ فلا ترفض امرأة منكودة الحظ اتت تطلب منك المشورة والصلاة

ثم ان راحيل اخذت تقصّ عليهِ بصوت مرتجف يقطّعهُ البكاء خبر الاحزان البيتيَّة التي اطلعتنا الخادمتان بقلة افرازهما على شيء منها . فتأثر القديس من كلامهــا ورثى لها وتذكر الافراح التي أُقيمت في بشرّاي يوم زفافها وكيف ان المستقبل كان يبسم لها واصبحت الآن وقد حالت احوالها ووقفت امامهُ منكسرة القلب طالبةً عونه واسعافهُ . وقد رأى اذ ذاكِ انَّ المحبَّة المسيحيَّة ما عادت تسمح لهُ بعدم الاكتراث بنكبتها ولمَّا تذكَّر ان معلِّمــهُ الالهي شارك الحزانى في مصائبهم لم يتمالك من ذرف الدموع حتى تبلَّلت منها وجنتاهُ الضئيلتان

امَّا راحيل فاتمت الكلام قائلةً :

بعد ان امعنتُ النظر طويلًا في شقائي رأيتُ ايها الاب المحــترم ان حظَّك شبيهٌ بحظّي . كلاَّ لم يصدق المثل لانهُ اذا كان الانسان يعاقب في ما اخطأَ بهِ فأَنت عوقبت دون شك بسبب فضيلتك

— أقصري ايتهــا المرأة فان الحزن قد ضيَّع عقلكِ ودفعك الى التجديف وكيف تجترئين ان تحكمي على مقاصد الله ؟

— اني عالمة بكل ما جرى ايها الاب المحترم فلا تحاول صرف ذهني عمَّا انا عارفة بهِ حق المعرفة . نعم بما انك كنت رئيساً حازماً ومحافظاً على حقوق الله والكنيسة اسخطت جوسلين . وبغيرتك على التهذيب الرهباني حرَّكتَ حقد الاخ جناديوس . وبما انك اخفيت عن الناس اعمالك الصالحة حكموا عليك بالابعاد وانت الان تحتمل مرارة المنفى كرجل فاسد ومُراء

أَلِف الخـلاعة وهام بها . مع انهُ ما صام احد كصومكَ ولا عمل توبة باخلاص نظيرك

حينئــذٍ قاطعها الاب يوحنا قائلًا بساءة : كفاكِ كلامًا في امور تجهلينها . ويحكِ أتنسين مشورة الكتاب القائل بانهُ لا يجب اصلًا مديح الاحياء

— سامح ايها الاب حسن نيَّتي واعلم ان مرارة نكبتي هي التي تُنطق لساني واذا كان زَين يهملني وينســاني فذاك لا محالة لسبب فضيلتي فاني بقدر ما ازيد محبَّةً يزيد هو فتورًا واعراضًا وينزل بي العقاب الذي تستحقهُ النساء القليلات الاكتراث ببعولتهنَّ او الخائنــات لعهودهم . والله يشهــد اني من بعد ما باركتَ زواجنا في قصر بشراي صارت كل افكاري لزوجي وكذلك كلّ حركة يتحرَّك بها فؤادي هي لهُ . ولا اظنّ ان امرأة احبَّت قرينها باخلاص اكثر مني

« ومعاذ الله ان أُنازع الباريْ جلَّ اسمهُ في ما لهُ من الحقّ بابتلائي وامتحاني بل بعكس ذلك اقول اني قد ارتكبت الذنوب مرارًا دون ان ينازعني المولى على صنيعي وقد كنتُ أزهي واتعجرف ولا أُشفق كما يجب على الفقير البائس . غير ان الامر الذي يحزنني جدًا هو اني أُعاقب على ما لم أُخطئ بهِ ولذلك تجد قلبي منسحقًا منكسرًا

« واعلم ان موسى هذا الخادم الامين الذي اوصلني الى هنا هو الذي اخبرني بخبرك وهو يعرفك حقَّ معرفة لانهُ مرض قديمًا مرضًا ثقيلًا فحملتهُ الى دير حصن سليمان وعالجتهُ بعناية ابويَّة حتى شفي من دائهِ . فمنهُ عرفتُ انك لم تُعاقب على خطاياك وذنوبك بل من اجل فضيلتك لا غير ولهذا فاننا من يومين قمنا سرًا من مدينة البترون وزرنا في طريقنا مقام القديس

جرجس في الحصن . وقد اتيتُ اليك لتشرح لي ما هو السرّ في عقابك وعقابي وتعدّني بمعونتك او على الاقلّ تذكر لي اسباب التعزية التي وجدتها لنفسك

فاجاب الاب يوحنا قائلاً :

— لو لم اكن عارفاً ان شدّة الضيق هي التي ازاغت عقلك لجاوبتُك كما جاوب الله قديماً ايوب البار (٣٨ : ٢) : « من هذا الذي يُلبس المشورة باقوال ليست من العلم في شيء » . فيجب ان تعلمي ان الله عادل وان العدل قرين كل اعماله غير ان البشر في كثير من الاحيان لا يستطيعون ان يفقهوا سرّها . ثمّ ان الله لا يجازي الشرّ بالشرّ وقط لم يعاقب احداً من اجل فضيلته ولكنهُ يتفق ان تتوارى مع الفضيلة نفسها اعظم الخطايا واشنعها اي الأَثرة والانانيَّة . وهكذا القول عني انا الذي تتوهَّمينهُ اكثر اتضاعاً من جميع البشر . . .

— ما انا بمخدوعة في ظني

— اصيخي ايتها الابنة الى كلامي كما اصغت لكلامك . واعلمي اني ربّما كنت في تواضعي اشدّ الناس عجرفةً وكبرياء ليس تجاه الغير بل في داخل نفسي وقدام الله لاني لا اقدر على القول باني تحاميت دائماً ما اذوقهُ من لذَّة الانشراح الباطني من اعمالي ؟ نعم ان الناس لا يلحظون هذه الحركات الخفية التي تثيرها محبَّة الذات فتفسد بها احسن الاعمال ولكنَّها لا تخفى على الله تعالى الذي يغوص اعماق القلوب ويعرف اسرارها ولربَّما انّي كعقوبةٍ على هذه الكبرياء قد صرتُ شهيد الاتضاع

« هكذا ايضاً محبتك الحارَّة لا بُدّ ان تكون ممتزجةً بالعجرفة وحب

الذات فانت تقولين انك لا تحبين غير زوجكِ والحقيقة هي انكِ تحبين نفسكِ قبل كل شيء لانكِ تريدين ان يعرف لكِ المحبوب محبّتك ولا ترضين اصلًا بان يجهلها حتى لا يكون نصيبكِ كنصيب الشمعة تحترق وتنير وهي ساكتة فهذه المحبّة هي كلها غطرسة وزهو والمحبة لا تكون حقيقيّة خالصة الّا اذا كانت صافيةً ومتنزّهة عن كل عاطفة شخصيّة

— ولكن محبتي ناجية من الاكدار ومتنزّهة... والدليل على ذلك وقوفي امامك

— هذا مجرَّد زعم منكِ ايتها الابنة. ولكن افحصي خفايا قلبك وكالطبيب الذي يشفي الجرح بالنار والمبضع جرّبي هذا الدواء الذي اصفهُ لكِ: اكتمي محبتكِ وانتِ الرابحة لانكِ بقدر رغبتكِ في اظهارها يتمادى زَين عنادًا في رفضها واياكِ ومقاومة شقيقتكِ بل اجتهدي في ان لا تكون لك حيثيّة ولا مقام تجاههـا واخفي ميلكِ امامها ولا سيَّما في حضور زَين. وبعد مرور شهر على سلوككِ بهذه الطريقة ارجعي اليَّ فاخبريني عن احوالك

فحينئذٍ صرخت راحيل قائلةً: ان الذي تشير بهِ ايها الاب هو الموت موت القلب فخير لي ان اموت مرَّةً واحدة

— لا بل أُشير عليكِ بالنجـاة والخلاص اذهبي وأطيعي. قال هذا واغلق نافذة كوخهِ

وبعـد مرور بضع دقائق سُمع صوت زوج من المجاذيف يضرب بايقاعٍ مياه البحيرة التي كانت قد خمدت وسكنت. وكانت النجوم باديةً في القبَّة الزرقاء والجوّ صاحيًا نقيًا ليس فيهِ سوى قليل من الغيوم الرقيقة والقمر سائرًا الهوينا في طريقهِ وكل شيء في الطبيعـة يشعر بالراحة

والسكينة خلافاً لراحيل التي استولت على فؤادها عواصف البلبال

وبعد ان جلست في مؤخر القارب واشتملت بردائها جعلت تنظر وهي متشتتة البال الى ذاك المشهد الليلي دون ان يؤثر فيها جمالهُ المادي فمن جهة كانت ترى بساطاً من الماء تتلاعب فيهِ انوار القمر مترجرجةً ومرتجفةً ومن جهة اخرى تشاهد جبال عكار وقد اشتعلت في سفوحها نيران القبائل العربيَّة النازلة في سهل « الوعر »

ثمَّ انها اخذت تدمدم في سرّها قائلةً : ذهب الغرور وظهرت الحقيقة وعرفت انّي مخدوعة في ظني . على انك ايها الرجل البارّ لم تُحسن فهم كلامي . . . . ومع هذا أيجوز لي ملامة احد غير نفسي ؟

فلمَّا وصل الاثنان الى الطرف الغربي من السدّ الكبير ركبا الخيل التي كانا قد ربطاها هناك وجدًّا في السير وكان سفرهما شاقًّا متعباً نظرًا لكثرة الحجارة البركانية في الوعر وبعد ساعة من الزمان ادركا محلة العرب وكانا قد اهتديا بنارها في وسط الظلمة . وفي اليوم التالي عند طلوع الفجر سارا في طريق جبل عكَّار مارين بلفتايا وحربعـارا وسهل البُقيعة ولمَّا وصلا الى البترون كان الليل قد ارخى سدولهُ

وكانت الخادمتان مريم وفريدة متشاغلتين كعادتهما في الغزل وكأنَّهما ذهلتا ما كانتا قد عزمتا عليهِ من مدَّة فكانتـا تتحدثان عن غياب مولاتهما باحثتين عن اسبابهِ

القسم الثاني

١

ان المسافر متى بارح الوادي الخصيب الذي فيهِ ترتفع قرية دوما الزاهرة متدرجةً على هيئة السلَّم يأخذ الطريق المؤدية الى قرية تَرتَج فلا يمشي فيها غير يسير حتى يصل الى سلسلة جبال عالية تُعرف بجبل ترتج. وهناك تنبت بعض اشجار ضئيلة ما بين صخور قطَّعتها المياه والعوامل الجويَّة معطيةً اياها اشكالًا وهيئاتٍ غريبة. على ان ما يُشاهَد في كلّ هذه البقعة من خبَث الحديد يُنبئ بان الناس عالجوا فيها عمل هذا المعدن ازماناً بهمَّةٍ ونشاط

وكان جبل ترتج في ايَّام الرواية التي نسرد حوادثها مكتسياً بغابات كثيفة من الارز والسنديان والصنوبر والشربين يختلط معها قليل من الاشجار المثمرة كالاجاص والجوز. وكان يأوي الى هذه الغابات وحوش مختلفة الانواع بينها كثير من الضواري الراتعة في تلك الآكام المنيعة دون ان ترى ما يقلق راحتها الّا ما ندر. وكان في جملة الضواري اسود ترعج الفضاء بزئيرها ودِببَة يرنُّ الجوّ من نئيمها وغورة تمزق الآذان زماجرها. غير انَّهُ مع ما في الغابات المذكورة من الاخطار شرع بعض الحطَّابين

والمعدّنين يقيمون فيها وكان الاخيرون يستثمرون ما هناك من ركاز الحديد ويرسلونهُ الى اصحاب الاكوار العديدة في قرية دوما التي كانت آهلةً وقتئذٍ كما في ايامنا الحاضرة بقوم ذوي جدّ ونشاط واقبال على الصنائع

وفي ذات يوم لما طلع الفجر على الوهاد القريبة من جبل ترتج سمع صوت البوق وانتشر نباح الكلاب وصهيل الخيل واقبل الناس على الذهاب والمجيء بين قريتيْ دوما وترتج منهم الخيَّالة وحملة السلاح مع زُمر من الخدَم تسوق عددًا من الكلاب المدرَّبة على الصيد. وكان الخيالة تارةً يتوارون وراء الصخور او جذوع الاشجار وتارةً يسيرون في الشّعاب الضيّقة صفّاً طويلًا كأنهُ وِشاح منشور يبسط على الجبل لباس البهجة والسرور .

وكان ذاك اليوم يوم قنص خرج فيهِ كل من مقدَّم جبيل ومقدّم البترون. وبما انَّ الطريق في قمة الوادي لم تكن تصلح لسلوك الخيل ترجَّل الكلّ عندها ودفعوا افراسهم الى حملة السلاح وتوغّلوا في الشعاب الشاهقة ما بين اشجار الغاب .

وكان المقدَّمون واكابر الناحية المدعوين للاشتراك في القنص قد اتوا بحملة سلاحهم وعدد من حشمهم يحملون الصقور والبزاة المضرَّاة على مطاردة الوحش ويسوقون الكلاب السلوقيَّة الكبيرة التي كان نباحها يملأُ الوادي وبعضهم اتوا ايضاً بالفهد وهو نوع من صغار النمورة مبقَّع الجلد مدرَّب خاصَّةً على اقتناص الايائل وكانوا يُردفونهُ مشبوماً على مآخير خيلهم فمتى لاح لهم أيل رفعوا شبامهُ واطلقوهُ وراء القنيصة التي اذا جدَّ الفهد في مطاردتها وقفأَ الصقور عينيها بمناقيرها الحادَّة لا تلبث ان تخور وتضعف

وكان يجـري القنص في تلك الايام على الوجه الآتي وهو ان سوّاس الكلاب يتوغلون في الغابات فتسوق كلابهم القنانص امامها الى ناحيـة القانصين الذين يتناولون القسيّ من حملة سلاحهم ويرفعون الكُمم الموضوعة على رؤوس الصقور ويشتدّ نباح الكلاب وتبتدئ معركة الصيد (١

واتّفق انهُ قبل اليوم الذي نحن بصددهِ مرّ في الناحية سِرب من اللقلق غير انهُ كان قد بقي في غابة ترتج قليـل من الطير المذكور اقعدهُ التعب عن اللحاق برفاقهِ . فلمّا سمع الصياح طار في الجوّ مذعوراً واخذ يدوّم راسماً دوائر كبيرة على حسب عادتهِ . ولكن ما كان غير قليل حتى ابصرتهُ الصقور فخفّت لمطاردته

ولمّا كانت الصقور قد هاجمت اللقـالق واحداً لواحدٍ دافعت هذه الاخيرة عن نفسها حقّ الدفاع مدّةً طويلة فكانت تارةً تضرب بمنـاقيرها وتارةً باجنحتها . وكأنَّ احد الصقور آنس عدم اقتدارهِ على غلبـة خصمهِ وخاف ان تنجلي المعركة عن وقوعهِ صريعاً فترك ساحة الوغى وانضمّ الى اثنين من رفقائهِ . امّا اللقلق فما صدّق ان تخلّص من عدوّه حتى توارى خلف الغابة غير انّ لقلقاً آخر اخذ يحلّق في الجو صاعداً على خطٍّ مستقيم ظانّاً انهُ ينجو من هول الموقف ولمّا كانت الصقور عاجزة عن اللحاق بهِ في ذلك العلوّ الرفيع اقامت تترقّبهُ ريثما ينخفض . وكان مشهد الفريقين المتقاتلين مؤثّراً لان كلّاً منهما كان قد امعن في الفضاء حتى كاد يخفى على العين لاختلاط بياضهِ بزرقة السماء

---

١) السيد محمد المكلي : آداب القانص

وكان بعد مرور عشر دقائق ان اللقلق هبط منخفضاً اماً لكونهِ تعب من التدويم في الفلاء او لأنهُ لم يقوَ على استنشــاق الهواء بسبب كثرة عَدُده في المنطقة التي وصل اليهــا فما كادت الصقور تبصرهُ حتى انقضّت عليهِ تقاتلهُ

وبعد ان جرت بين الفريقين معركة حامية علت فيها اصوات النقــار وقع اللقلق على الارض صريعاً فلمَّـهُ مدربو الكلاب وناولوا الصقور قطعة من حشاه ثم حملوا الجثة بانتصار وكان الدم يقطر منها

وما مضى قليل من الزمن حتى لاحت ما بين الاشجار المتجردة عن اوراقها في مثل ذاك الفصل من السنــة رؤوس حيوانات تطلب الفرار . وكانت عبارة عن سرب من الايائل والغزلان شرَّدتها الكلاب

غير انَّ الايائل المسكينة ما كانت تفرّ من عدوّ حتى تسقط ما بين يدي آخر . هنا تمزّقها انياب الكلاب وهناك مناقير الطيور وسهــام القانصين . وكانت الصقور تدوّم فوقها ثم تنقضّ بسرعة البرق على اعناقها فتضربها باجنحتها متعلقةً بابدانها المتمزّقة ولا تلبث لحــة بصر حتى تفقأ عيونها النجلاء بمناقيرها المحدَّدة المنعقفة فكانت البهائم المذكورة تخرّ متجندلةً على الارض دون ان تستطيع قياماً

وبعد ساعة من الزمان انتشرت جثث القنائص في شعــاب الغاب وبقاعهِ وكان بينها ظباء وذئاب وخنازير وحشيَّة ووعول وضباع . . . ولمَّا خفَّت حركة القنص وخمد أُوارها وفد عبد المنعم مقدَّم جبيل فقال لزَين مقدَّم البترون :

— اخبرني ساقة الكلاب انهم شاهدوا في قمة الجبل دبَّاً كبيرًا

— عليَّ قنصهُ . قال هذا وتناول قوسهُ وسهامهُ وأهاب بكلبهِ فلحقهُ

واخذ يتسلّق الجبل راقياً الى الناحية التي دلّوهُ عليها. فلمّا رأى منهُ عبد المنعم هذه الحرارة المفرطة لم يقوَ على كتم مسرّتهِ بنجاح حيلتهِ. واما زين فلمّا انتهى الى المحلّ المعيَّن اطلق كلبهُ لتحريش الدب فما كان غير قليل حتى سمع من اقرب أجمة اليهِ زمجرةً مخيفة تلاها ظهورُ اسد كبير الجثة(١. ولم يكن زين يتوقّع ملك الوحوش فطارت نفسهُ شعاعاً وفطن انَّ مقدّم جبيل غشَّهُ ودبَّر حيلةً لهلاكهِ. غير انهُ نبذ الخوف والهلع واختـــار من كنانـتهِ احسن النبال فسدَّدها بمزيد التأني على قلب الاسد فطارت اليهِ باسرع من لمح البصر ولم يسمع على اثرها غير زئير مختنق. ثم استلَّ خنجرهُ ووقف ينتظر بقدم راسخة هجوم سيد الضواري لأنهُ كان يظن انهُ جرحهُ فقط. ولكن السهم كان لإحكام تصويبهِ قد خرق قلب الاسد خرقاً من ناحية الى اخرى. فلمّا تأكّد زين فوزهُ وانتصارهُ بادر للنزول الى ترنج حيث وجد القانصين مجتمعين هناك تحت الادواح القائمـــة تجاه كنيسة القرية وعندما وقع بصرهُ على مقدّم جبيل اكتفى بان قال لهُ: « ارسل رجالك ليأخذوا جثة الدب فقد جعلتهُ قتيلًا لا يستطيع ضرراً »

امّا عبد المنعم ففطن للاشارة ولم يطلب مزيداً

٢

وكان زين قد اطّلع من زمن مديد على ما يضمـــرهُ لهُ من الشرّ والمقاصد الخبيثة. وكان بين هذين الاثنين فروق ظاهرة: زين حرّ مستقيم

---

١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى — المشرق ١ : ٨٠٥

وحازم وشجاع. وعبد المنعم محتال لا تفوتهُ الشجاعة ولكن شجاعتهُ تشبه شجاعة النمر الذي يزحف ويؤثر مباغتة الفريسة. على ان اخلاص زين للمقدَّم رزق الله ومحافظتهُ على الديانة الكاثوليكية جعلاه مكروهاً عند عبد المنعم الذي لم يكن يبالي بالأقسام التي حنث بها

وكان عبد المنعم يعرف حقّ معرفة انهُ ما زال مقدَّم البترون حياً فلا سبيل لهُ الى تحقيق مطمعهِ الخبيث اي تنزيل خاله الامير رزق الله عن ولاية الجبل ولهذا كان دائماً يبحث عن حيلة يدبّرها لاهلاك زين. ولمَّا اطَّلع على ما تقاسيهِ راحيل من المتاعب العيليَّة ظنَّ انهُ يسهل عليهِ ان يقترن بها ويضمّ مقدَّمية البترون الى مقدَّميتهِ

وكانت جبيل في قديم الزمان تُسمى بالمدينة المقدسة للإله ادونيس وتعتزّ مفتخرةً بما تشيَّد فيها من الاروقة والهياكل العظيمة لعبادة الإله الموما اليهِ (١ غير انها في القرن الخامس عشر نزلت من مقامها السابق لان كلّ ما فيها من الهياكل والاروقة المذكورة كان قد خرب وانهدم فامتلأت الشوارع بأنقاضهِ التي اتخذ معظمها لبناء رصيف المرفإ او لتشييد ما هنالك من الاستحكامات الضخمة. ولمَّا اضطرّ الصليبيون الى مغادرة هذه المدينة بعد حصار عنيف كان النصف منها تقريباً قد صار خراباً (٢ وانقطعت السفن عن غشيان مينائها لامتلاء معظمهِ ردماً فكانت تؤثر زيارة بيروت وطرابلس (٣ وتقف بعض المرات في مرفئي البترون وانفة (٤

١) بعثة فينيقية. وددوسو رحلة سوريَّة. المشرق ٣

٢) صبح الاعشى للقلقشندي

٣) راجع هيد: تاريخ تجارة الشرق ٤) القلقشندي

وكان السور والقلعة غاية ما بقي من آثار هذه المدينــة ولا يشك احد في ان القلعة اثر عظيم من اعمال الجبابرة القدماء ولهذا ابى المؤرخون ان ينسبوهُ الى الرومانيين واقل من ذلك الى الصليبيين بل آثروا ان يعزوهُ الى القدماء من سكان جبيل مشيّدي هيكل سليمان (١ على ان برجهـا العظيم كان مما يستوقف الابصار خاصةً بارتفاعهِ وضخامتهِ وكان يشرف على مسافة بعيدة في البحر ويطلّ على جميع السهول المجاورة

وكان مقدم جبيل اذا وقف في البرج المذكور متأملًا في سعة املاكهِ تترنَّح اعطافهُ من الخيلاء والغطرسة وينسى ان ارتقاءهُ الى الولاية كان فضلًا ومنَّةً من خالهِ الامير رزق الله ويتوهم كما هو شأن النفوس الصلفة انهُ هو باني مجدهِ بيدهِ

وكان الجميع يتذكرون وقتئذٍ ان أُسرة لامبرياك ملكت ولاية جبيل في ما مضى من الزمان (٢ واحتلَّت تلك القلعة الشامخة التي فيهــا يُقيم الآن عبـــد المنعم ايوب. ولمَّا اجبرتها الاحوال على الرحيل بعد هزيمـــة الصليبيين وتفرّق شملهم ذهبت الى جزيرة قبرس (٣ فتوطنت فيها. ولم يبقَ منها في لبنان غير فرعٍ واحد وهو الذي تنتمي اليهِ راحيل قرينة مقدَّم البترون (٤. ولمَّا كان عبد المنعم يملك معظم الاملاك التي كانت لهذه الاسرة الشريفة توهَّم انَّ ميراث راحيل يعود اليهِ ايضاً اذا تيسَّر لهُ الاقتران بها

---

١) الكتاب المقدس سفر الملوك ٣ : ٥

٢) راجع دوكانج : كتاب الأُسر

٣) دي ماس لاتري : تاريخ قبرس

٤) المشرق ١

وهل من احد كان يقوى على منعهِ من انجاز منويّاتهِ المذكورة ؟.
نعم رجل واحد اعني زيناً مقدّم البترون المعروف بشجاعتهِ وبسالتهِ.
ولكنَّهُ كانَ يقول في نفسهِ انهُ عند مسيس الحاجة يعرف كيف يبيد هذا المانع الحائل دون سعادتهِ وعظمتهِ. وكان يتوهّم ان الوسائل الموصّلة الى مقصودهِ سهلة هيّنة فأخذ يشنع على زين ويظهر معايبهُ ومثالبهُ ولكن لم يلقَ من يسمع لكلامهِ لانَّ الكلَّ كانوا يعرفون قدر زين واستقامته

ولما ارسل المقدم زين فرقة من جنودهِ لاحتلال قلعة سمار جبيل المهجورة من زمان طويل اراد عبد المنعم ان يحتج على ذلك مدعياً بان القلعة لاحقة بمقدميَّة جبيل. غير ان حقوق المقدم زين في القلعة كانت واضحة ظاهرة لا تحتمل المماراة والمماحكة. فمن ثم عدل عمّا نوى واخذ يبحث عن وجه آخر

هذا ما كان يخطر في بال عبد المنعم كلما صعد الى قمة قلعة جبيل مسرحاً النظر في املاكهِ فيرى ان قطيعةً واحدة تستطيع ان تخلصهُ من هذا الخصم العنيد. ولا يخفى انَّهُ برهن بما مضى من اخبارهِ ان ليس لهُ ضمير يصدهُ عن ارتكاب الفظائع

اما المقدم زين فلم يكن عارفاً بشيء من مقاصد عبد المنعم وهبْ انهُ اطلع عليها لم يكنْ ليهتمّ بها

٣

امّا راحيل فكانت في قصر البترون تترقّب بذاهب الصبر عودة قرينها وتتمعّن في النصائح التي سمعتها من الاب يوحنا وتهتمّ في كيفيَّة المحافظة عليها لانها كانت قد آلت ان تتغلّب على اهوائها وتسير في الطريق التي طلبت هي ان ترتشد اليها

. . . .

وفي مساء النهار عاد زَين الى قصره عيياً من تعب القنص ومتأثرًا ممّا تعرض لهُ من الاخطار فجلس في الغرفة الكبيرة ليستريح . وكانت امرأتهُ وشقيقتها تشتغلان الى جانبهِ وطفلهُ الورّد الخدّين يلاعب على الارض فوق طنفسةٍ عجميَّة كلبةً اسمها « سارحة » من ظراف الكلاب السلوقيَّة ضامرة الحشى طويلة القد . ولم تكن اقلّ من مولاها لغوبًا فاظهرت نفورًا من مداعبة الطفل وجعلت تبحث ولكن بلا فائدة عن محلّ تتمدَّد فيهِ وترقد براحة . وكانت ضوضاء البلدة قد سكنت فلا يُسمع من ناحية البحر سوى حسّ الامواج تتكسَّر على صخور الشاطئ ولا يأتي من ناحية البساتين غير شذاً ينعش القلب من ازهار الليمون

فمثل هذا المشهد يصوّر السعادة الهادئة التامَّة اعني سعادة العيلة التي يتوق اليها اصحاب الاعمال خاصَّةً . ولكن ما كل شيء يُحمل على ظاهرهِ لان الظواهر في كثير من الاحيان خدَّاعة

وكان القانص المنهوك يحب في ساعات الحياة البيتيَّة ان يسمع احاديث النساء وعلى الخصوص متى دارت سوق الحكايات واخذنَ —

مع اهتمامهنَّ بالمغازل ودواليب الحياكة — ينشدنَ الاشعار والقصائد المخبرة عن مآثر الاولين

وكانت حنَّة صورة حيَّة لشقيقتها او بالحري كانت مُصغَّر رسمها لان ملامحها كانت اشدَّ شحوبًا واصفرارًا وعينيها اعظم زرقةً ولون شعرها اقلَّ إشباعًا. ونظرًا لاعتدال قامتها لم تكن في شيء من فخامة منظر راحيل وحدة لحظاتها الخرَّاقة. بل كانت من الخفَر والحياء في درجة متناهية حتى انها ما رفعت عينيها قط لتنظر في وجه انسان ولذلك ما كان زين يخاطبها مرةً حتى يحمرَّ جبينها خجلًا. وحيث انها ما كانت تتوق الى الفخفخة ولا تسعى لها فكانت تجهل هل يقوى حضورها او حديثها على التأثير. . . الَّا انها كانت اذا رفعت صوتها بالغناء سلبت الالباب واذا قصَّت الحكايات والاخبار اوردتها بصوت رقيق ولهجة عذبة. وما كانت راحيل اقل منها براعة في تقطيع اوقات الفراغ بتسلية ولذَّة. ولكن من غريب الاتفاق ان حنَّة المشهورة بحيائها وخجلها لم تكن تنشد غير القصائد المخبرة عن مواقع الابطال ولا تقص غير اخبار المعارك الدمويَّة والحوادث المخيفة بخلاف راحيل التي مع خيلائها وغطرستها كانت تنتقي الاخبار الباعثة على الحنو والشفقة والقصص المنبئة عن الاحوال العيليَّة والمحبة الطاهرة بين الزوجين. وتذكر هذا كلهُ عمدًا لعلَّها تجد بهِ طريقًا يؤدي الى قلب زوجها الذي كان هو جلَّ مقصدها في كل لفظة من الكلام الذي تروي بهِ قصص الماضين

وكان في صوتها شيء يعمل في القلب ويخرقهُ حتى يتَّصل الى أقصاه وفي بعض الاحيان يمثل جميع حركات باطنها كما ان محيَّاها يتخذ هيئة حبٍّ متوسّل بالحًا رغمًا عنها بهموم نفسها واكدارها. غير ان زينًا كان حتى ذاك

الوقت يفضّل سماع الحكايات الخفيفة التي تقصها الصبيَّة ولا يظهر التفاتاً الى القصص المؤثرة مماً كانت تحكيهِ قرينتهُ الفخور المرزوءة في محبتها

وقد سبق البيان ان المودّة بين الزوجين كانت قد تضعضعت دعائمها وانحلّت عراها وبما انهُ يصعب غالباً في مثل هذه الحوادث معرفة الاسباب الحقيقيَّة الباعثة الى تنافر القلوب ويتعسَّر الحكم بالتدقيق على دواعي المؤاخذات تعيَّن القول ان ذلك كلهُ لا تتأَتَّى نسبتهُ الى احد الفريقين دون الآخر بل هو مشترك بينهما مثلما تؤيده التجربة في اكثر الاحيان

على اننا اذا لاحظنا ما تزيَّن بهِ الزوجان من اوصاف الاستقامة وكرم الطباع وسموّ العواطف لا نكاد نرى شخصين أفضل منهما حتى يعيشا متوافقين وسعيدَين لان الشبه من هذا الوجه بين زَين وراحيل كان تامّاً كاملًا. امّا من سائر الوجوه فلم يكن الامر كما قلنا فان راحيل لكونها من سلالة البارونات آل لبريانك كما مرَّ الكلام كانت بالطبع سريعة الانفعال رقيقة الحس ذكيَّة الفؤاد فضلًا عن ان التعليم والتهذيب قد زاداها احساساً وتأَثّرًا ولهذا كانت تمتعض دون قصد لعدم مشاهدتها في رجلها مثل ما فيها من الاذواق والخصال. على انهُ لم يكن يخطر لها ببال ان تتخذ من مزاياها هذه سبيلًا للإدلال على قرينها ولكنها من دون التفات جديّ الى شيء من ذلك كانت ترى ان مسافةً بعيدة تفصلهُ عنها

وامّا زين فكان رجل نشاط وعمل ربيَ من حداثتهِ في ساحات الوغى فلم يكن يستطيع ان يفطن للاحزان الباطنة التي تؤلم نفس قرينتهِ الطاهرة. ومع احرازهِ درجة عالية من الحذق والفطنة كان يشعر بانحطاط معارفهِ عن معارفها التي شحذها العلم والدرس ولا يخفاك ان الرجال

قلما يتسامحون في مثل هذا الامر. وفي ذاك الزمان وخاصّة في البلاد الشرقيّـة لم يكن الناس بالرغم عن تعاليم الانجيل قد تعوّدوا المساواة الواجبة ان تكون بين الزوجين المسيحيّين

ثم ان زَيتاً مع كونهِ رجلًا شريفاً مخلصاً التعلّق براحيل لم يكن يطيق ان يرى منها اميالًا مفترقةً عن اميالهِ ومن ثم كان في بعض الاحيان يعزو الى غرابة طباعها او الى حب الفخفخة النسائيّة ما ليس هو في الحقيقة الّا نتيجة ما تحلّت بهِ من التهذيب الفائق الذي جعلها بمثابة امرأة مكمّـلة ضلّت في بيداء القرن الخامس عشر وكانت احقّ بالقرن العشرين. ومن اجل هـــذا ما طال الزمان حتى زال ما كان بينهما من الثقة والدالّة المتبادلة وحلّ بدلهُ ابتعاد القلوب وتنافرها بنوع ان كلًّا منهما كان يخشى ان يفاتح رفيقهُ بما عند نفسهِ

٤

سبق الخبر ان عيلة مقدّم البترون كانت جالسة ذاك المساء في الغرفة الكبيرة من القصر وتريد الآن ان الصبيّة حنّة انقطعت هنيهةً عن العمل ثم رفعت عينيها الزرقاوين ملتفتةً الى شقيقتها كأنّها تريد استفهامهـــا واخذت تحكي حكاية كانت قد طالعتها في بعض السير الافرنجيّـــة قالت :

حدث في احدى قرى بريتانيـــة في بيرمون عيد جميع القديسين ان دقّاق الجرس — وكان اسمهُ كونين — بعد ان استمرّ يقرع الجرس حتى الساعة العاشرة ليلًا من اجل نفوس المطهر التي كانوا يصنعون تذكارها في

ذاك اليوم ذهب الى حجرتهِ فرقد. وكانت الريح وقتئذٍ تصفر صفيرًا وتحمل الورق المنتثر متلاعبةً بهِ في الجوّ. فما كان غير قليل حتى سمع الدقّاق أجراس القرية تُقرع فقال في نفسهِ: «ما هذا الأوهام». ثمَّ حنى رأسهُ على المخدة وهو يقول: «قد اغلقت باب القبة باحكام ومفاتيحهُ في جيبي»

الّا ان الاجراس ما فتئت تدقُّ فقام كونين من فراشهِ واشعل قانوسًا وخرج في وسط الظلمة الحالكة وهو يقول: «هذه حيلة يحتالون بها عليَّ»

وكان في الليلة السابقة قد بارح القبة نحو الساعة العاشرة بعد ان افرغ آخر نقطة من زجاجة النبيذ فكان يمشي وفي اذنيهِ طنين وفي رأسهِ تمايل. وقد يمكن ان يكون اغلق باب القبة لكنَّهُ من الممكن ايضًا ان يكون قد دخلهُ احد اصحاب المجون على غير علم منهُ

فلمَّا وصل الى فناء الكنيسة تسمَّع فاذا الاجراس ساكنة هادئة والكنيسة قائمة ليس فيها ادنى بصيص ضوء فقال:

لا شك اني حالمٌ فالخمر التي شربتها مساء امس هي التي تدقّ في دماغي

وبينما هو يهمّ بان يعود سمع صوت الجرس جليًّا يطنّ من خلفهِ فانصت وقال:

هذا بلا ريب طنين الجرس ولا بُدّ ان يكون احد في القبة

ثمَّ انهُ رجع على عقبهِ بكل رباطة جأش وفتح باب الكنيسة وكانت مظلمةً ليس فيها غير «الساهرة» موضوعةً امام المذبح الكبير فكانت تُرسل على الخورس نورًا مرتجفًا وتبعث على الجدران البيضاء ظلالًا كبيرة متحركة. وكانت حبال الجرس متدليةً على يمين باب المدخل فالتفت اليها فرآها لا تتحرك ومع ذلك كانت دقّات الجرس المحزنة

متتابعة . فحينئذٍ ابتدأ القلق والاضطراب يداخلهُ وصمّم على ان يرتقي الى سطح الكنيسة ليطلع على الحقيقة ثم اخذ يتسلّق سلّماً ضيقةً تؤدي الى القبة فما كاد ينشب فيها حتى نفحت الريح نفحة باردة حملت اليهِ دوي الاجراس واطفأت في الوقت نفسهِ فانوسهُ فخيّل لهُ الوهم انَّ رجلاً ينزل من علُ وان وقع خطاهُ يدنو اليهِ شيئاً فشيئاً ثم سمع ان الخشيش صار قريباً منهُ فبسط ذراعيهِ كمن يريد ان يسدَّ الممرّ على الآتي ولكنهُ لم يشعر الّا بريح باردة على يديه وبوقع اقدام من تحتهِ يبتعد عنهُ . فسار بسرعة لطاردة الخيال الذي توهمهُ راقياً الى المذبح الكبير ولكنهُ ما لبث ان رآهُ قد انطفأ وزال بغتةً من امام ناظريه فوقف مذعوراً وقد كلّل العرق البارد جبينهُ واخذت الرجفة جميع اعضائهِ

ثم التفت الى الخزانة (سكرستيّة) وكان بابها مشقوقاً والساهرة تلقي عليهِ نوراً ضئيلاً فتخيّل لهُ انهُ يسمع فيها صوت تنهُّد وحفيف وَرَق كما لو كان هناك شخص يقلب مُصحفاً . فتقدّم وجِلاً فشاهد على نور القنديل الموضوع امام المذبح الكبير كتاباً ضخماً كان يعرفهُ ممدوداً على مائدة كبيرة وكان الكتاب المذكورة سجلّ الاموات فحدّق النظر فيهِ وكان قد صحا من سكرهِ وزالت عنهُ نشوة الخمر فرأى مع العجب ان اوراق السجل تنقلب واحدةً بعد اخرى باصبع خفيّة تحركها حتى اذا انتهت الى الورقة الاخيرة وقفت ثابتة كأنها تستدعيهِ بالحاح ليذهب فيرى

امّا هو فخفّ سريعاً لاستطلاع الامر فرأى في اسفل الصفحة الاخيرة اسمهُ مكتوباً هكذا « كونين » فطار لبُّهُ شعاعاً وصاح صيحةً عظيمة ووقع على البلاط مغشياً عليهِ

وفي صباح اليوم التالي وُجد جثةً هامدةً لا حراك بها ويده المتشنجة قابضةً على اوراق الكتاب المصفرّة ...

وكان زَين يسمع وعيناهُ تتقدان نارًا حكاية الصبيَّة التي كانت تروي بصوت رقيق عذب هذه القصة الفجعة

امَّا راحيل فكانت تحب ان تلحق حكاية شقيقتها بحكاية أُخرى من القصص التي طالعتها في الكتب الافرنجيَّة اي رواية تلك المرأة النبيلة التي وقعت على جثة قرينها المقتول تذرف الدمع مدرارًا سخينًا حتى اضطرَّت نفسهُ التي ارتقت الى السماء ان تهبط الى الارض لتعزيتها

غير انَّ راحيل تذكرت نصائح الاب يوحنا فلزمت السكوت. وبينما المغزل يغني والدولاب يدور وقت رواية اختها لهذه الفجائع تصوَّرت ان زوجها زينًا يشبه رجلًا ميتًا وان دموعها لا بُدَّ ان تتساقط ايضًا لمدَّة طويلة على صدرهِ البارد حتى تهتدي نفسهُ الى طريقها وتعود اليها لتعزيتها

فلمَّا فرغت حنَّة من كلامها التفت زَين الى راحيل فرآها ترتعش فظن ان ذلك ناتج عن الخبر الفاجع الذي سمعتهُ غير ان تلك القرينة الشقيَّة تركتهُ على ظنّهِ المذكور كاتمةً عليهِ محبّتها

ومذ ذاك اخذت تسير سيرة جديدة فكانت حنَّة تتبرَّج بنيَّة بسيطة باجمل الحلل غير ان راحيل كانت تتخذ اسذج الملابس عادلةً عن منافسة شقيقتها

ومع كونها سيدة المنزل لم تكن تتردَّد في كل فرصة عن ان تتنازل لشقيقتها بل لخصيمتها عن المحل الاول راغبةً ان تكون هي في كل شيء نسيًا منسيًا ولهذا كانت عند ما ترى زينًا وحنة يتمشيان في فناء القصر

متحدثين تمتنع عن الاختلاط بهمـا او ان تأتي بطفلها الصغير كما كانت عادتها من قبل حتى تنتبـه قرينها بحضورها إلى اعراضهِ عن واجبـاتهِ المفروضة بصفة كونهِ والدًا وزوجًا

وفي كثير من الاوقات كانت تقيم ايامًا في غرفتهـا دون ان تخرج منها مع انهـا كانت قبلًا تنساب كالظل في غرف القصر وتنتبه لكل حركة واشارة من زين لتسرع الى تلبيتها غير ان زينًا كان مشغولًا عنها بما انغرس في قلبهِ من الميل الى شقيقتها. وكما ان الهواء المحيط الذي نحن غائصون فيهِ يأذن لنا في الحياة دون ان نشاهده وكما ان الملائكة المكلفين من قبل المولى بحراستنا والسهر علينا لا يظهرون لنـا وجودهم هكذا راحيل ما زالت تعيش بكليتها لقرينهـا عاطفةً عليهِ بمحبتها غير انها كانت هذه المرَّة تحرص كل الحرص على كتمها بقدر حرصها قبلًا على افشائها

ومن ذاك الوقت لازمت القيام بواجباتهـا المزدوجة بصفة قرينـة ووالدة وهي صابرة صبر المسيحيَّة الحقيقيَّة على نكدها مشيرةً بذلك الى قبولها عن طيبة نفس بعدم مبالاة زوجها. ولم يكن زين ولا حنة يعرفان اي شيء يختفي تحت ذاك المظهر الهادئ من الزوابع والقلاقل الباطنة

واما حنة فما فتئت على حالها الماضيـة مع زين غير عالمة بما تسبّب لشقيقتها من النكد الباطن ولا ريب انها لو عرفت شيئًا من ذلك لآثرت ان تبتعد عن قصر البترون ابتعادًا ابديًا

وعليهِ فلم يكن احد مطلعًا على داخليَّة راحيل سوى راحيل وحدها غير انها عملًا بنصائح الاب يوحنا حافظت على كتم محبَّتها ولو اورثها ذلك اشد الحزن واغزر الدموع

٥

من يستطيع ان يصف المعارك الباطنيَّة التي خاضت غمارها هذه القرينة المُحبة لبعلها والمحافظة على تمام الامانة له ولم يشهدها غير الله تعالى وملائكته ؟ . . . دامت هذه المعارك أياماً بل اسابيع تخيَّلتها راحيل ادهاراً طويلة. غير ان ما طُبعت عليه من الرصانة وعزَّة النفس كان يحملها على كتم ذلك كله وعدم افشاء شيء منه

ولكنها في ذات يوم اشتدَّت عليها وطأة الحزن فبكت وانتحبت ووقعت على الارض من اليأس والجزع وكانت تتوهَّم انَّهُ ليس من خليقة بشريَّة تقوى على احتمال ما احتملتهُ هي مدَّة طويلة من التنغيص والمرارة

فلمَّا خفَّف الدمع موقتًا حدَّة بلواها انتصبت قائمةً وجلست عند الشباك تنظر الى الشمس الشارقة التي كانت ترسل اشعةً ظافرةً على الارض المتلالئة نوراً. وكانت قد بكت كثيراً فلم تقوَ الشمس على ان تؤثر في عينيها اللتين اضعفتهما غزارة الدمع

وكان ذلك في الصباح ولا شيء اشهى واحسن من منظر لبنان في الساعات الاولى من النهار لان الظلال تكون في مثل هذا الوقت منبثَّة على طول سفوح الجبال بينما تكون القمم والروابي قد تعمَّمت باكليل من الاشعَّة الذهبية التي ترسلها الشمس الشارقة وأبخرة الفضاء شفَّافةً ترى العين من ورائها قمم الجبال البعيدة فما احسنهُ منظراً جمع بين اللطافة والعظمة. كيفما التفتت الباصرة تشاهد هنا غياضاً ملتفَّةً وهناك اشجاراً متفرِّقة تختلف ألوانها بين اخضر ناضر واسمر قاتم. ومما يزيد

المشهد جمالًا وجود القرى العديدة معلّقةً في سفوح الجبال الشامخة. أجل انَّ في الدنيا جبالًا تعلو لبنان ارتفاعًا غير انهُ ليس فيها ما يكون لمجموعهِ مثل هذا المنظر البهيج عند شروق الغزالة

وكان اذ ذاك قد دخل فصل الصيف وتفرّق الحصّادون في السهول يحصدون ما تعبوا في زرعهِ من الحنطة وغيرها من انواع الحبوب. وكانوا ينشدون الاغاني ويترنّمون بها فرحين طربين فلماَّ سمعتهم راحيل هتفت من اعماق قلبها قائلةً :

« سعدًا لهم ما احسن حالهم فانهم تحت حرارة الشمس المحرقة يترغون بالاغاني ويهيئون القوت لاشقياء الحظ. ومع ما هم عليهِ من العناء وما يتصبّب من ابدانهم من العرق هم يسعدون ولا صوت غير صوتي وحدهُ يعكّر صفاء السعادة »

ثم انّها انقطعت عن الكلام هنيهةً لانّ الطبيعة قد ضمّت فرحها وابتهاجها الى حبور الحصّادين وسرورهم فكانت الاشجار والادغال والسهول متسربلة باجمل اثوابها والاطيار تناغي العالم الخلّاق بتغاريدها وراحيل تسمع ذلك باصغاء ومزيد انتباه وكانت قد كفّت عن ذرف الدموع وداخلها شيء من السرور فسالت على شفتيها الذابلتين ابتسامة لطيفة مختلطة ببقيّة من الحزن. ثم انها رفعت رأسها وتطلّعت فشاهدت على الطريق وراء اسوار البلدة امرأة فقيرة تحمل طفلًا لها صغيرًا وكانت المرأة وطفلها لابسين أخلاقًا من الثياب غير انها كانت مع هذا كلهِ تضحك مسرورةً لولدها وولدها يداعبها ويتدلّل عليها محبورًا بها. وحينئذٍ اغلقت راحيل شبّاك حجرتها ونزلت من قصرها ذاهبةً الى حيث رأت المرأة وولدها فخاطبتها قائلة:

— من اين انت ايتها المرأة فاني اراكِ فقيرة شقيَّة

— كلّا ايتها السيدة الشريفة اني بحمد الله سعيدة وفي عمري ما حسدت احدًا على راحة او غنى. وعندي ولدي هذا فهو كفايتي وسعادتي

— لماذا اذًا تجلسين وحدكِ تحت هذه الشجرة ولا تدخلين الى المدينة او بالاقل تقتربين من هؤلاء الحصَّادين الذين يترنمون بالاغاني المفرحة

فارتها المرأة حينئذٍ اطمارها ثم اجابتها بلطافة وعذوبة قائلةً :

— ولماذا أُعلن شقائي لمن يحلمون الغنى ويتكبرون بالثروة . لا يصلح ان يكون مقامي الّا بين هذه الاشجار الوضيعة والطيور الوَجِلة . وحضرتكِ اعلم الناس ان الشقي يتوارى تحت ظلّ يستره وبالكد يجسر على ان يمدّ يدهُ بينما ان اصحاب الثروة يجولون اَيّان شاؤوا . وارى ان سعادتي هي في ان انظر الى سعادة الآخرين . وهذه معظم عزائي وسلواي

— ولكن ألا تحزنين من مقابلة شقائك بسعادة غيرك ؟ ألا ينجرح قلبــك من الفقر الذي هو اعظم البلايا عندما ترين الكثـيرين رافلين بملابس الغنى مائسين بثيــاب الكرامة والثروة

— كلّا ثمَّ كلّا بل ان عندي لتجربة الجسد علاجين لاني انظر الى البلايا التي لم أُصب بها فاشكر الله على نجاتي منها وبعد ذلك افتكر في الخيرات الباقية لي . ثم انها حدّقت البصر في ولدها وهمست بصوت خفي قائلة : « ألا انَّ الباقي لي ما هو الّا نزر يسير »

— وهل تكفي هذه الافكار لتعزيتكِ

— ان هذه الافكار توليني في الغالب تعزية فان لم تقوَ على ذلك استعمل علاجاً آخر اي الانشراح والبشاشة

— وكيف تتكلّفين الانشراح في حالتك الفقريّة ؟

— ثقي بصدق كلامي لانهُ اي فائدة اجتنيها من رؤية الاشياء بلون اسود فاحم. واذا كان بعض النـاس يقنطون ويتصورون المستقبل قاتمًا مظلمًا بالمصائب والرزايا التي يتحمّلون سلفًا مرارتها فما انا بقـادرة على ان اعمل عملهم الذي يفني الجسم ويضعف العقل ولكني اترجّى الخير دائمًا ولا ارى في المستقبل غير السعادة وهذه هي الطريقة التي انتهجتها لاحتمي بها من المصـائب والنكبات واذا كان الصبر على غيَر الدهر افضـل الوسائل لتخفيف شدتها وثقل وطأتها فاعلمي ان الانشراح والجذل عنـد إلمامها هو بمثابة الارتفاع عليها

واذ كانت راحيل تمسح الدموع التي بلّلت عينيها اتمّت الفقيرة كلامها قائلة: « وانا كذلك قد طالما بكيت امًّا الآن فمـا عدت اعرف البكاء لان منظر ولدي أنساني الدموع. على ان كثيرًا من الامهات حُرمنَ مثل هذه التعزية فالافتكار في شقـائهن يمنعني من التأمل طويلًا في نحس طالعي لانهُ لا شيء مثل الشفقة والتأثر لمصـائب الآخرين يقوّي المرء على احتمال ما يحلّ بهِ من الرزايا

فلمَّا سمعت راحيل هذه الحكم اخذت تتأمل في معناها وبعـد ان نفحت الفقيرة ببعض النقود اعانة لها على تحسين حالتها قالت لهـا: « اشكرك كل الشكر على هذا الكلام العسجدي » وخطر لها في الوقت نفسهِ ان تسأل تلك الفقيرة عن نسبها لانها رأتها ممتلئة من الحكمة بالرغم عمَّا لحق بها من الرزايا والمحن وكانت تعتقد بعد ما سمعت من كلامها انها ليست مرأة اعتيادية. غير ان ما طُبعت عليهِ راحيل من الرصانة والوقار صدَّها عن استفهامها عمَّا كانت راغبةً في علمهِ ولم تشـأ ان تفتح لتلك الغريبة جراحًا قد اندملت. ثم افتكرت في كلام الفقـيرة من انها كانت

سعيدة وتجهل الحسد الذي هو في الغالب رفيق الشقاء والضيق فقالت في نفسها: « يا لله كم تستر الثياب الاخلاق من نفوس ابيّة وكم بين الفقراء من قوم يفضلوننا كثيراً نحن الذين قلما نتنازل للالتفات اليهم »

وعادت بعد ذلك الى القصر ولمّا وصلت الى تحت الاشجار الغبياء التي في الحديقة ضاعفت الطيور تغاريدها كانها تستقبل بالحان الانتصار هذه القرينة الحزينة

وبعد ان جلست على حافة فسقيّـة من الرمر اخذت تقول بصوت خفي: « فلتنسَ نكباتنا مقابل نكبات الاخرين ولنكف النحيب والشهيق بازاء نحيب الغير وشهيقهم. ألا يا فضيلة الشفقـة المقدّسة اعينيني على ان انسى اوجاعي حتى لا افتكر الّا باوجاع الغير »

ثم انهـا انتزعت من اصبعها خاتماً من الذهب مرصّعاً بالالمـاس وقالت: « اذهبي عني يا تذكاراتي العزيزة. تبدّدي من وجه العزيمة التي صمّمتُ على انجازها. اذهبي وخفّفي شقـاء الذين كانت كبريائي تمنعني من النظـر اليهم والتفطن لنكباتهم. بيني عني حتى لا تسـترخي هذه النفس التي أُريـد ان تكون قويّة وصبوراً على كبار المحن البشريّة فلتضمحل المحبة بازاء الشفقة ولتهتمّ نفسي بتعزية الغير وتضميد جراحهم بدلّا من ان تتشاغل دائماً في سبر غور كلومها الباطنيّة »

وبينما راحيل تتفوّه بهذه العبارات كان بصرها منخفضاً فوقع على يديها المثقلتين بالاسورة الذهبيّـة فاحمرّت وجنتاها لاول مرّة خجلاً من هذا الاسراف الذي وجدتـهُ خالياً من كلّ فائدة فاستهزأت بهِ مزدرية وقائلةً: « ماذا عسى ان تنفعني هذه الحلقات المعدنيّة المطوّقة لمعصمي »

ومن الغريب ان الشفقـة التي امتزجت بنفسها لم تقتصر على

توسيع دائرة عواطفها بل انها اعلت ايضاً درجة فهمها وذكائها واطلعتها على كثير من الامور المزعجة والمناقضات العديدة التي لم تكن لتنتبه اليها من قبل رغماً عن تأدبها بكثير من المعارف والعلوم فادركت اخيرًا ان تلك الحلى الخالية من النفع تستطيع ان تخفف وطأة الحاجة على عدد من البائسين الفقراء

وقد افادها هذا الادراك فائدة عظيمة لان الحميَّة التي كانت كامنةً في نفسها اخذت تزيد وتتقوَّى شيئاً بعد شيء حتى رفعتها فوق درجة المرأة الاعتيادية التي تكون في غالب الاحيان أُلعوبة بين ايدي رياح الفخفخة ووساوس القلب وما لبثت ان شعرت بانها صارت اعظم حريةً واشدّ انعتاقاً من اسار الأَثرة واباطيل المعيشة الاجتماعيَّة فاخذت تنزع أَسورتها واحدًا بعد واحد وتضغط عليها باصابعها اللطيفة كانها تريد ان تسحقها سحقًا

وكانت قد عزمت ان تضحيها في سبيل الفقراء وتخصص حياتها لمعونتهم وسعادتهم آملةً ان تجد علاجاً لدائها في القرب منهم والعناية بهم فتنسى اذ ذاك اوجاعها ولا تعود تفتكر الّا باوجاعهم. ثم غاصت متأملةً في النهج الجديد الذي كانت ترجو لدى وصولها الى غايته ان تنال فرجاً وخلاصاً. فاكسبها هذا التأمل قوة ونشاطاً فوقفت وهتفت قائلةً: « اشعر بان قوَّة غير منظورة تشددني واحسُّ بان صدري ينشرح وقلبي يبتهج ومذ عرفتُ الشفقة سرى النسيان الى نفسي » فيا لعظم انتصارها ولو انهُ جرى في هدوء وسكينة

وكانت راحيل الشقيَّة تظن كل الظن انها ادركت الانتصار ولكن

سنرى في ما يلي من اخبارها ان الوهم خدعها . على ان الوهم نفسهُ كان جميلًا لانهُ اعرب عن نفس جليلة واخلاق كريمة

٦

ولنعــد الان الى اخبار جوسلين فنقول انهُ كان قد عزم على ان يغتنم فرصة ارتباك المقدم رزق الله في الحرب حتى يسعى بلا معــارض في ادراك مآربهِ السافلة وثاراتهِ الدنيئة

والظاهر ان إبعاد الاب يوحنّا والتشنيع عليهِ والسعي في تحقيرهِ تجاه الرأي العام لم يشفِ لهُ غليلًا فعمد على ان يضيف الى هذا الاثم جريمــة اعظم . وبما ان وجود دير حصن سليمان في جوارهِ كان يزعجهُ ويعنتــهُ ويقف في طريق مقاصدهِ رأى انهُ اذا فرّق رهبانه وخرّبهُ يتهيّأ لهُ بسهولة ان يضع يدهُ على الاملاك الباقيــة لهُ وهكذا يزيل كل حجّة للمقدّم رزق الله تسوّغ لهُ التداخل في شؤون جبل اللكام

لكن لمّا كان لؤمهُ وخسّتهُ لا يقلّان عمّا طُبع عليــهِ من القسوة والطمع لم يشأ ان يتداخل مباشرةً في هذا العمــل الذي ينقض بهِ اثرًا عظيماً من آثار الاقدمين تؤاخذهُ عليهِ القرون الآتية بل احبَّ ان يتولى ادارتهُ من بعيد بحيث يدرك منهُ الوطر دون ان يتحمّل في الظاهر تبعتهُ لانهُ اذا انقلبت دولة الحظ وناقشهُ المقدّم رزق الله حساباً على هدم الدير يكون لديهِ من يلقي عليهِ مسؤوليّة العمل . وبناءً عليهِ فقد خاطب في الامر نصيريّة عين الشمس فردًا فردًا هؤلاء طلبــهُ قائلين انهم يعظّمون القديس جرجس ويجلونــهُ كثيرًا كما انّهم اكراماً لتذكار الاب يوحنا لا يقتصرون

على عدم التعرُّض بسوءٍ لرهبـان حصن سليمان بل انهم لا يطيقون اصلًا مسَّ شعرة من رؤوسهم

فعند هذا الجواب الصريح بعث برجالهِ الى الاسماعيليَّة المقيمين في مصياد لعلَّهُ يظفر منهم بطائل ولكنهُ لم يصب مراماً لان اميرهم اجابهُ قائلًا انهُ لم ينسَ احسان الاب يوحنا اليهِ لمَّا عالج ولدهُ وشفاه من مرض عضال ولهذا فهو يضع ذاك الرجل البار تحت كنف حمايتهِ الخصوصيَّة واذا كان يحمل سيفاً فانهُ يسلُّـهُ على المجرمين واهل السوء لا على رهبـان لا يأتون غير الخير والمبرَّات

فلما قنط جوسلين من النصيريَّة والاسماعيليَّـة رأى انهُ لم يبقَ من يعينهُ على الوصول الى مرامهِ الخبيث سوى بعض شذاذ من البدو الضاربين في البـلاد فضمَّ اليهم بعض موثقيهِ وسيَّرهم الى الدير

وفي ذات مساء بعـد ان اغلق الرهبان بوَّابة الدير وصل البدو الى حصن سليمان يقودهم رجال جوسلين فكسروا البوَّابة بضرب الفؤوس وانتشروا في جوّ الدير آمرين الرهبان بالرحيل والتفرُّق ثم شبوا النـار في جهاتهِ الاربع. على ان الجدران الضخمة التي كانت من بناء الرومانيـين قويت على معاندة النار غير ان النار التهمت اخشاب الدرابزين او الايكونوستاس الموجود في الكنيسة وذهبت بالصور الثمينة التي كانت معلَّقةً فيها. وجدَّ رجال جوسلين في حريق المكتبة خصوصاً لانهـا كانت تتضمن سجلات الدير وكان جوسلين يظن ان حريق سجلات الدير يزيل كل حجة في المستقبل تبيّن اغتصابهُ لاملاك الدير المحكي عنهُ. وكان في جملة ما دمرهُ لسان اللهيب عدد من الكتب التي ما زال اهل العلم حتى اليوم يندبون فقدها

وكان الاب يوحنا في مدَّة رئاسته قد سعى كل السعي في جمع كل الكتب القديمة التي تتكلَّم عن تاريخ لبنان غير مدَّخر لادراك بغيته لا تعبًا ولا فضةً ومن اجل هذه الغاية كان قد تعرَّف الى اخصّ العلماء المسيحيين في دمشق الشام وانطاكية وحلب وطرابلس وكلفهم بان يرشدوهُ الى الكتب الخطّيَّة الكبيرة القيمة. وكان اذا مسَّت الحاجة لا يتأخر عن مباشرة الاسفار الطويلة بنفسه للاطلاع على نفائس التآليف. ومن جملة اسفاره للغاية المذكورة سفرهُ الى دير صيدنايا حيث فحص بذاته ما كان في مكتبة الدير المرقوم من الكتب السريانية النادرة المثال (١ وقد شخص ايضًا الى غيره من الاديار الملكيَّة التي كانت في ذاك الوقت تُعنى بدرس السريانيَّة واتقانها (٢. وكان اذا لم يستطع مشترى الكتب بالدراهم يقبل بنفسه على نساختها او يكلِّف غيرهُ بذلك. وهكذا صرف مدة طويلة في دير القديس جرجس الحميرا للملكيَّة وهو على مقربة من حصن الاكراد. وكذلك في دير البلمند ودير كفتون وغيره من اديار الملكيَّة في لبنان وسوريَّة

ولم يذهل ايضًا زيارة المكاتب اللبنانيَّة والوقوف على ما فيها من كنوز الادب التي كانت كثيرة بذاك العصر في الاديار المارونية مثل دير القديس يوحنا مارون في كفرحي ودير السيدة في يانوح ودير السيدة في ميفوق ودير القديس قبريانوس في كفيفان ودير مُرت مورا في اهدن وغيرها من الاديار

وقد سبق القول انهُ كان اذا فرغ من صلواته الطويلة واهتماماته

---

١) المشرق ٢ : ٥٨٦

٢) المشرق ١ : ١٥ و ٦١

باسعاف الفقراء والمنكوبين ينصبّ على تكثير نسخ المخطوطات التي جمعها في مكتبة الدير. وكان يقول ان اول واجب على الراهب هو الصلاة ومناجاة الخالق وافضل الاشغال لهُ من بعدها ان يسعى في نجاة الكُتب المكرَّمة الباقية كشهود عدل على ماجريات الزمان الماضي من التلف والنسيان

ومن اقواله ايضاً: «يجب علينا ان نقتدي باخواننا الرهبان في المغرب فان هؤلاء بعد ان يتمموا تلاوة الفرض الالهي يُشغلون كل ما تبقَّى لهم من اوقات الفراغ بنسخ المخطوطات القديمة. وسوف يأتي يوم يُحمد فيهِ تذكارهم ويعترف الناس انهُ لولا جدّهم واجتهادهم لما اتصل الينا شيء من كلّ هذه الكنوز الادبيَّة. وبما ان الناس يزعمون اننا نصرف الاوقات باطلًا ومن غير فائدة فلنثبت لهم ان تهمتهم عارية عن الصحة»

وبهذه الوسيلة كان هذا الرجل البار قد اوصل مجموعة المخطوطات التي حشدها في مكتبة الدير الى درجة عالية جدًا

وكان معظم هذه المخطوطات باللغة السريانية ولم تكن في الشرق مكتبة تفوقها سوى مكتبة طورسينا المشهورة بوفرة المخطوطات (١ ومكتبة القبر المقدس في القدس الشريف ومكتبة دير النطرون في القطر المصري(٢ وغيرهُ من الاديار في الرها (اورفا) وماردين وما بين النهرين

وكان الاب يوحنا خلا اهتمامه بنسخ الكتاب العربي لقيس

---

١) ميس لويس: مخطوطات سريانية طور سينا

٢) راجع مقالتنا في مجلّة الابحاث

الماروني (١ الذي كان قد شرع في نسخهِ قبل سفره الى بشراي ُيعنى بنوع خاص بمجموعة كل اعمال القديس يوحنا مارون (٢ التي من اجلها قلَّب كلّ مكاتب لبنان وبتاريخ آخر سرياني مجهول المؤلف غير انهُ ُيعد اقدم اثر تاريخي لكاتب ماروني (٣

فجميع هذه الكنوز الادبية وغيرها ممَّا لو بقي محفوظاً لادّى الى حلّ كثير من مشاكل التاريخ وايضاح معمَّياتهِ ذهبت فريسة النار التي شبَّها هناك رجال جوسلين

وفي مساء النهار سقط عقد الكنيسة وكان لسقوطهِ ضجَّة عظيمة هائلة. على ان النار ما برحت كامنة بين الانقاض التي كان الدخان يتصاعد من خلالها وما مضى غير قليل من الزمان حتى لم يبقَ من تلك البناية العظيمة غير جدران مسودَّة متشقّقة مع بعض العمد رافعةً رؤوسها الى السماء بهيئة حزينة في وسط الخراب

على ان هذه الجريمة التي لا يفي الوصف ببيان شناعتها لم تلبث ان استنزلت على هامة جوسلين العقوبة التي استوجبها خبثهُ

٧

نحن الان في بشراي في صباح يوم احد . الاجراس كلها تدق في

---

١) راجع المشرق ٢ : ٢٦٥ , ٣٥٦

٢) نو : تآليفات مارونيَّة

٣) المشرق ٢ : ٤٥١

جميع الكنائس واسقف البلدة يقوم بالذبيحة الالهية في مار سابا الكنيسة الكبرى بمعاونة عدد من رجال الاكليروس

وكان المقدَّم رزق الله قد عاد من الحرب راجحًا غانمًا فاتى يشكر الله بنوع احتفالي على ما رزقهُ من النصر . وكان شعبهُ محيطًا بهِ وجميعهم يشكرون الباري عزَّ جلالهُ لابعادهِ جائحة الحرب عنهم واعادتهِ اليهم اميرهم العزيز الذي يحبونهُ محبة اب

وكان فرحهم وابتهاجهم في محلّهِ لان الامير رزق الله كان قد قاتل ثلاثة عناصر تجمعت عليهِ اعني عرب البقاع والشيعيين والنصيريَّة . ولا يخفى ان الشيعيين بعد ان طُردوا من المدن الساحلية وخصوصاً من طرابلس التي كانوا فيها من قبل عددًا غفيرًا (١ اخذوا ينتشرون في الجبل ولا سيا في الكورة وبلاد البترون (٢ . واماَّ النصيريَّة فكانوا في الماضي قد حلوا في بعض جهات لبنان مثل جبل عكَّار والضنيَّة (٣ وحتى القرن الثالث عشر كان الجرد وكسروان اخصَّ مقاماتهم لا يشاركهم فيهما احد (٤ ومن هناك كانوا يمدُّون يد الاسعاف الى اخوانهم الساكنين في وادي التيم ومرج عيون (٥

---

١) سفرنامه لناصر خسرو
٢) اخبار الاعيان ١٦٧
٣) شمس الدين الدمشقي
٤) ابو الفداء
٥) حيث بقيت للنصيرية بعض قرى

فبناء عليهِ اضطرّت الحكومة لتوقيف غارات النصيريّة وتعدياتهم المتواصلة الى إرسال بعض الحملات عليهم[١] واصلاتهم حرب فناء واستئصال قُتل فيها منهم ببلاد عكّار وشمالي النهر الكبير نحو عشرين الفاً[٢]. فبعد ان تمكّن منهم الضعف اخذوا في القرن الخامس عشر يهاجرون الى النواحي الشماليّة لاجئين الى الجبال التي تُنسب اليهم ولكنهُ بقي منهم في لبنان بعض شراذم قليلة كان دأبهــا الاعتداء على رعايا المقدَّم رزق الله والانحياز دائماً الى اعداء المشار اليهِ و إنجادهم[٣]

فلمَّا خرج الشعب من القداس جاء الامير بحسب عادتهِ فجلس تحت السنديانــة الكبيرة الكــائنة في دار الكنيسة يسمع ظلامات الرعية وينظر في امورها نظر الاب الشفيق الذي يحب خير بنيهِ ولا يطيق ان يظلم القويُّ ضعيفهم. ولكن مع غيبتهِ الطويلة لم يتقدَّم اليــهِ من اهل الظلامات الَّا نفر قليل لان الامن كان قد انتشر لواؤه في كل انحاء لبنان بفضل عدالتهِ والقوانين الحكيمة التي سنَّها في الاجتماع الاخير الذي استدعى اليهِ جميع حكام البلاد ومقدَّميها كما سلف الخبر. ولهذا امتــدَّ صيتهُ الى بعيد واخذ الناس من نابلس وصفد وطرابلس يقصدون لبنــان لاجل الاقامة تحت كنف حمايتهِ[٤]. وكان المقدم المشار اليهِ يراقب حركة المهاجرة هذه بعين قريرة وفي الوقت نفســهِ ينشط الصناعة والزراعة اللتين صارتا الى حالة سيئة اثناء القلاقل الاخيرة

---

١) المقريزي وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى

٢) ابن بطوطة

٣) الباكورة السليمانية

٤) تاريخ الموارنة للدويهي

وبعد ان فرغ المقدَّم رزق الله من سماع شكايات الذين بسطوا لهُ حاجاتهم همَّ بالنهوض حتى يذهب الى قصرهِ ولكنهُ ابصر راهباً قد علت الغبرةُ اطمارهُ متقدماً اليهِ فخاطبهُ المقدم بكل احترام قائلاً:

من اين تأتي ايها الاب ؟

— من جبل اللكام

— لعلَّك من رهبان دير مُرت تقلا في حصن سليمان ؟

— ان دير مرت تقلا لم يبقَ لهُ وجود لانهُ احترق

— احترق ؟ ومن الذي تجاسر على ارتكاب هذا الإثم ؟ هل النصيريَّة ام الاسماعيليَّة ؟

— كلَّا بل الذي حرقهُ هو جوسلين سيد القليعة

— أهكذا ممكن اخبرني عن رئيسكم البارّ الاب يوحنا أما هو حي بعدُ ؟

— قد اختُطف قهراً وعنوةً منذ بضعة اشهر باوامر جوسلين. والخبر الشائع على ألسنة الناس انهُ قد زُجَّ في سجن مظلم ببلاد حمص حيث يقضي ايامه الاخيرة بالمرارة والنكد

— لو كنتم اسرعتم بانهاء الخبر اليَّ لبادرتُ الى انقاذهِ لأنهُ كان لي اعظم من اب او بالاقل لأذقت المعتدين عليهِ من ألوان الهوان ما جعلهم يندمون على قبيح فعلهم

— لم يكن في مكنتنا ان نبلغك الخبر لاننا من زمن مديد كنا نتردَّد بين الحياة والموت تحت رحمة جوسلين واعوانه. ثم انك انت ايها الامير كنت غائباً عن لبنان وكان جوسلين عارفاً بغيابك حقَّ معرفة فاحب ان يغتنم هذه الفرصة قضاء لمآربهِ

فعند هذه الكلمات نهض الامير مغضباً وهو يقول:

يا لك من شقي لئيم حملتهُ وقاحتهُ على الاساءة الى رجل بارّ. يا ليتني لم اقبل توسلات الاب يوحنا في شأن مثله رجلاً خسيساً. أما كان الاجدر بي ان اترك العدل يجري فيه مجراه. امَّا الآن وقد وقعت الواقعة فعليَّ اصلاحها. ثم التفت الى الراهب فقال :

اتظنّ انّ الاب يوحنا باقٍ في قيد الحياة ؟ واذا كان حيًا فاين هو الآن ؟

— لا احد يستطيع الجواب على هذه الاسئلة غير جوسلين

وعند هذه الكلمات أطرق الامير يتأمل. وكانت مظالم جوسلين وتعدياتهُ قد جاوزت كل حد حتى ثبت في الاوهام انهُ يبتهج بمخالفة اوامر مولاه ومقاومتها. وكان المقدم رزق الله قد وجد اثناء حربهِ الاخيرة مع احد الزعماء الذي اخذهُ اسيرًا بعض رسائل من جوسلين المذكور بها يحرض الشيعة على الثبات في القتال مؤكدًا لهم عزمهُ على احداث ثورة في ناحية جبل عكار واتباعها بحملة شديدة على الكورة وجبة بشراي

وكان جوسلين قد خاطب ايضًا الامير يوسف المعني(١ في هذا الشأن فاجابهُ انهُ عاش دائمًا مع الموارنة في صلح وسلام وقط لم يحدث لهُ منهم ما يوجب الشكوى. وبناء عليهِ يأبى كل الاباء ان يعكّر كأس الصفاء بينهُ وبينهم خدمةً لصوالح سيد القليعة. ثم كتب في الوقت نفسهِ الى المقدم رزق الله يخبره عن مقاصد جوسلين

فبعد هذه الامور جزم المقدم بتأديب جوسلين وعقوبتهِ على هذه

---

١) اخبار الاعيان ص ١٦٧

الجسارة عقوبةً زاجرة غير انهُ كان متردّدًا في الطريقة التي يتخذها لتأديبهِ. فاذا بعث اليهِ امرًا يستدعيه بهِ الى بشراي لكي يبرئ نفسهُ مما نُسب اليهِ من الشكاوي فلا يلاقي منهُ رجلًا طائعًا بل يذهب الامر بلا جدوى كسائر الاوامر التي أُنفذت اليهِ من قبل. واذا ذهب بنفسهِ الى جبل اللكام فانهُ يخاف من انتقاض الجبل في لبنان لان مقدم العاقورة كان قد انتقل الى رحمة ربهِ. واذا كان في الحرب المنتهية قد ادَّب عرب البقاع وعلمهم ان لا يتجاسروا مرةً ثانيــة على الاعتداء على رعيَّتهِ غير انهُ لم ينكل بهم تنكيلًا يجعلهم عاجزين عن استئناف القتــال. ثم ان النصيريَّة في عكار وجبل لبنان بدأوا يتحركون للشرّ والفتنة وزد على ذلك ان دسائس بطاركة القسطنطينيَّة كانت قد اصابت نجاحًا في القاء بذور الانقسام بين الموارنة والملكيَّة. فبناء على ما سلف كان الامير يحسب غيابهُ عن لبنان في مثل هذه الاحوال الحرجة امرًا مستحيلًا لانهُ يعرّض البـلاد لغارة الاعداء.

اخيرًا بعد ان قلَّب الامير رزق الله جميع وجوه الرأي وتأمل في كل الامور السابق بيانها عزم ان يرسل الى القليعــة واحدًا من عمَّالهِ لكي يأتي بجوسلين الى بشرَّاي استجوابًا لهُ عن المساوئ المنسوبة اليهِ. وكان يعتقــد ان جوسلين متى وقف على امر مولاهُ لا يجسر على المخالفة واذا خالف فيكون قد جاهر بالمعصيــة وحينئذٍ تؤخذ للامر حيطتهُ

ثم ان الامير استدعى واحدًا من حشمهِ اسمــهُ مالك وكان رجلًا قصير القامة غائر الكتفين اصفر الوجه تركت فيــهِ بثور الجدري آثارًا شنيعة فكان من الذين سخطت عليهم الطبيعة ولم توجدهم الّا ليعيشوا محتقرين. وماتت والدتهُ وهو طفل فلم يعرف قط حنوّ الامهات وقبلاتهنَّ

واماَ ابوهُ فلم يلبث طويلاً حتى اقـترن بامرأة اخرى فلماَ شاهدتـهُ هذه قبيحاً لم تطق بقـاءهُ في البيت فطردتهُ فكان مالك اذاً يجول في الازقة شريداً طريداً غير ان شجاعتهُ تكفَّلت بانقاذهِ لان ذلك القالب الشنيع كان يحوي عقلاً فريداً وارادة اصلب من الحديد. وقد تنبَّه المقدم رزق الله لذكائهِ فاتخذهُ لخدمتهِ وهو في سنّ الخامسة عشرة

ويصعب تعيين الوظيفة التي كان يقوم بهـا مالك في قصر الامير لانهُ كان تارةً ضابطاً وتارةً بوَّابا وغيرها كاتب سرّ ومع ذلك فانـهُ كان يوفي جميع هـذه الوظائف حقَّها من الاخلاص والامانة والصدق. واليهِ كان المقدم رزق الله يعهد الشؤون المهمَّـة والصعبة. ومن ثمَّ خلا بهِ وافهمـهُ حقيقة الحال والواجب عليـهِ ايفاؤهُ في قليل من الكلام ثمَّ قال لهُ:

تذهب غداً وتصل الى قلعة « فليس » على ضفَّة النهر الكبير وهناك تستعلم عن استعدادات جوسلين فان رأيت ضرورةً فهذه رسالة الى سيد قلعة فليس تابعنا الامين تدفعها اليهِ فيصحبك الى القليعة بعدد من الجند. اذهب وجدَّ السير وتحاشَ المرور في طرابلس حتى لا يشاهدك احد من أعوان جوسلين فينبهوه الى قدومك واعمل كل حيـلة ممكنة حتى تأتيني بجوسلين حيًّا او ميتاً

— سمعاً وطاعةً يا سيدي الامير. ثم قبَّل يد الامير ووضعهـا على جبهتهِ

٨

في ليلة مظلمة من ليالي تشرين الاول اشتدت فيهـا الرياح وثارت الزوابع القويّة شوهد قارب يدنو ايضاً من جزيرة بحيرة قدَس. وكان فيهِ كالمرَّة الاولى شخصان يعرفهما القارئ بلا تعب ولا عناء وهما راحيـل وموسى خادمهـا الامين. وكانا قد اغتنما فرصة غياب زين عن البـترون فقصدا الحبيس طالبين مشورتهِ الحكيمة. امّا راحيل فكانت في هذه المرَّة لابسـةً ابسط الثياب وقد خلعت كل ما كانت تتبرَّج بهِ من قبل كالاساور وسلاسل الذهب وسائر الحـلى من الماس والياقوت. وكان في محيَّاها الجميل آثار واضحة تنبئ عما تقاسي من الآلام الباطنة

ولاحت من الاب يوحنا حبيس الجزيرة التفاتة الى البحـيرة فرأى القارب يمخر الماء فاقام ينتظر وفودهُ. وما كان غير قليل حتى نزلت منهُ راحيل يصحبها خادمهـا السابق ذكرهُ فلمّا وصلت الى الكوخ خاطبت الاب يوحنا قائلةً:

« قد جزتُ المحنة وكتمت محبَّتي امام حنَّـة شقيقتي وكذلك امام زين بعلي وعملت في كل شيء وفقاً لنصائحك فقد وضعت الحديد المحمى على الجرح المنفتح غير ان الجرح لم يزل يدمي والكي ما برح يؤلم

« والحق يُقال ان العلاج الذي وصفتهُ ايها الاب هو اشد من السقم واوجع من الداء وكم من مرةٍ اثقلني الحمل فرزحت تحتهُ دون ان استطيع التفوُّه بكلمة شكوى. او تريد ان أدع المجال حرًّا لشقيقتي تسرح فيـهِ وتمرح وانا صامتة؟ أليس ذلك بمنزلة تمهيد الطريق لانتصارها وغلبتها؟

انظر الى نتائج نصائحك . فانا عارفــة حق معرفة بما قد خسرت ولكني أريد ان اعلم اي شيء . ربحت من العمل بمشورتك

— ستعلمين ذلك قريباً يا ابنتي

— عسى الله ان يستجيب دعـاءك يا ابي . غير اني لا اجسر على توقع تحقيقهِ فقد صنعت اكثر مما امرتني بهِ وجربت اعمال الرحمة علّهـا تكون دواء فعّالا وبلسما شافياً لجراح نفسي فما انتفعت شيئاً . وقـد تناسيت جراحي حتى لا افتكر الّا في شقـاء الآخرين ووقفت كنوز قلبي المسكين على تعزية المنكوبين والبائسين . وكفكفت دموعي لامسح دموع الغريب . وكم من ليلة احييتها ساهرةً على تمريض الاعلاء . ولا اعدّد هذا كلهُ ايها الاب المكرم افتخاراً باعمالي لاني بخدمتي للقريب كنتُ افتكر خاصّةً بنفسي وقد سعيت لتعزية الآخرين في نكباتهم آملةً ان يعود ذلك عليَّ بنسيان ما انا بهِ من الاوجاع فما استفدت من هذا السعي شيئاً فانا اذًا اشقى الناس واتعسهم وقد ثقلت عليَّ اليوم وطأة المصيبة اكثر من ذي قبل

« والآن اسألك ان تدعني اكشف لك اسرار قلبي لآخر مرَّة . فانت رجل قديس بارّ لا تعرف ما هي المحبّـة . وقط لم يلتهب قلبك الّا بمحبّة الخالق ومحبة الخالق لا تشبه في شيء محبة المخلوقات . كلاً انك لم تفهم مصابي ولم يكن في امكانك فهمه فاوقعتني في الارتباك وزدت قلبي غصةً ولوعة لاني ابليت في القتال من اجل الفضيلة ومع ذلك لم ازل معذَّبةً »

امَّا الاب يوحنا ذاك الشيخ البار فاجاب راحيل قائلًا :

— اعلمي ايتها السيدة الشريفة انهُ لا يعاقب احد على فضيلتـهِ .

فانت لا تحتملين العذاب والآلام من اجل محبتك بل لأنك لم تكتمي هذه المحبة الكتم الكافي. وهـذا يدل على كبريائك وخيلائك. فانك ترضين باحتمال العذاب والرزايا ولكنك تريدين ان يعترف لك الآخرون بهذه المزية. وكل ما قاسيته من الآلام الادبية وكل ما رضيت ببذله من الضحايا لم تطلبي فيه غير نفسك. فاكتمي اذاً محبتك لا على شقيقتك وحدها بل على رجلك ايضاً . وافعلي ذلك حتى في سرك وباطنك اذا خلوت لنفسك

— ألم افعل ما ذكرت ؟ وهل من الواجب ان أبالغ ايضاً في محو شأني ونسيان ذاتي. قل أطعْ

— لقد جهلت الغرض من نصائحي وغلطت كل الغلط بما تظاهرت به من البساطة التي لم تكن في محلها وايضاً بطلبك العزلة والانفراد. ألا تدرين انك لو وبخت رجلك في وجهه على عدم مبالاته بامرك لم يكن ذلك اشد ولا انكى من هذا التصرف الملتوي. فمن الآن فصاعداً كوني الآمرة الناهية على عينيك ومحياك وقلبك حتى لا تبوح بشيء مما تشعرين به في باطنك. كوني حجراً اذا استطعت او بالحري كوني بسيطةً لكن ببساطة طبيعية خالية من التكلف كما لو لم يكن شيء مما لا ترضينهُ. فهل تشعرين من نفسك قدرةً على البلوغ الى هذا الحد ؟

— لا اقوى اصلاً على ان اتظاهر بعدم المبالاة امام زوجي. وكيف يمكنني ذلك وانا اعبدهُ عبادة ولا اتنفس ولا اعيش الّا من اجله ؟

— اذهبي واطيعي ثم عودي اليَّ فاخبريني انجحت ام لا ؟

وكانت الكبرياء مع الغضب والألم الكاوي تشير في باطن تلك

المرأة التعيسة انواعاً من الاشجان والاحزان. ولم يكن احد من قبل قد تجرأ على تقريعها لما اتصفت بهِ من الصلف والخيلاء فاوشكت ان تتمزق غيظاً من كلام الاب يوحنا غير انها لمّا تأملت في برارتهِ وكيف انهُ يحتمل الحبس والنفي ظلماً وعدواناً من غير شكوى ولا تذمر فهمت اخيرًا انهُ اذا حق لاحد ان يخاطبها بمثل ما خاطبها بهِ فانما هو وحدهُ يحق لهُ ذلك

وكانت عارفة بما جرى في قصر القليعة وكيف وقف الاب يوحنا امام اولئك القضاة الجائرين ولم يُجِر جواباً على ما عزَوا اليهِ من الجرائم الموهومة بل انهُ اقتداء بمعلمهِ الالهي لزم السكوت ممارساً ما يقضي بهِ نسيان الذات. فبعد هذه الافكار التي جالت في خاطرها التفتت الى ذلك الرجل البار وقالت لهُ بصوت خنقتهُ العبرة: أطيعك ايضاً هذه المرة يا ابي فباركني وصلِّ من اجلي

وكان قد خالط قلبها شيء من العزاء مخففاً قليلاً وطأة ما بها من الاشجان والمرارة فركبت القارب مع خادمها وسافرت خفيةً كما كانت قد اتت

٩

وكانت راحيل تخشى مع تنكرها الخارجي ان يعرفها احد في الطريق فاجتناباً لهذا المحذور امرت خادمها موسى ان يسير بها في طرق غير مسلوكة جنوبي « الوعر » حتى اذا انتهيا قريباً من المطربة جازا ناحية المرمل عرضاً ثمَّ وادي بريسا ثم مرج عحين الذي كان قد تغطَّى بما وقع

من الثلوج الكثيرة واخيرًا دخلا غابة الضنّية. ولحسن الحظ لم يصادفا في كل الطريق احدًا يعرفهما سوى نفر قليل من المتاولة والنصيرية كانوا اذا شاهدوا الخيّالَين شاكي السلاح يقتصرون على تحيّتهما ويتركونهما ذاهبين في سبيلهما بسلام

امّا سفرهما فكان متعبًا شاقًا وكان التعب قد نهكهما كما نهك زاملتيهما ولمّا اشرفا على سور البترون ومنازلها وجاوزا وجه الحجر والقبة ووصلا الى سفح الرابية التي تشيّدت فوقها كنيسة « سان سابور (١ » ثارت زوبعة مخيفة وسقط المطر سيولًا يصحبهُ بَرَد كبير الحجم كان يصيب وجوه الخيل فيؤخرها عن المسير. فبعد ان عانيا ما لا يقدَّر من المشقة عثرا اخيرًا على مجاز عبرا عليهِ نهر الجوز الذي كانت قد تعاظمت مياههُ بما سقط من الامطار في الايام السالفة. ثم انهما جدّا في المسير حتى انتهيا الى قصر البترون بعد ان سدل الليل حجاب الظلمة فدخلت راحيل من الباب الكبير وهمّت بان تنساب الى غرفتها غير انَّ رجلًا طويل القامة وقف في طريقها. وكان ذلك الرجل زوجها زين الذي عاد قبل يوم من الوقت الذي توقعتهُ. فلمّا شاهدها قال لها بلهجة المتهكم:

ما احسن المرأة التي تغتنم غياب زوجها فتترك بيتها وطفلها للتجوُّل حيث شاءت وارادت. واني لاعلم حق العلم انك مولعة من زمان طويل بركوب الخيل ولكني لم اكن عارفًا ان الجولان في الليل تحت الامطار وفي اوقات الزوابع الشديدة يعجبكِ ويسرّك

وبما ان راحيل لم تكن لتستطيع كتم ما اصابها من الاضطراب

---

١) المشرق ٤: ٥٤٠

والحيرة تمم زين كلامهُ مريداً ان يستهزئ بما وقعت فيهِ من الارتباك فقال :

لا ريب انك ما كنتِ تنتظرين عودتي بمثل هذه السرعة غير اني لستُ بآسف على تعجيل رجوعي الذي يسَّر لي تحقيق ما شاهدتُ منك. وبعد هذا وهذا أتحبين ان تذكري لي السبب الموجب الذي اضطرَّكِ الى الخروج في هذه الساعة ؟

ولمَّا كانت راحيل قد صارت اشبه شيء بشخص ميت لشدة ما اصابها من الارتباك والخوف لم تحر جوابًا على سؤال زين. فانها كانت من عزَّة النفس وشرف المبادئ في اعلى منزلة ولذلك كان يشق عليها ان تكذب او تلجأ الى مخرج ينجيها من لواذع الملامة. ولا يخفى ان المخارج والحيل كثيرًا ما يستعملها الناس ويحسبونها خاليةً من طائلة الشين والعيب اذا لم توقع ضررًا باحد وتخلص صاحبها من الشروح التي قد تجرّ عليهِ وبالًا. الَّا ان راحيل كانت ترى انَّ اخفَّ زيغ عن الصدق هو كذب فظيع لا يليق بشخص من أُولي الشرف مهما كانت المنافع التي تتأتَّى عنهُ والاضرار التي يمتنع حصولها بسببهِ. وقد رأت انها اذا حكت الصدق يلجئها الحال ان توضح لرجلها سرائر قلبها وما تقاسيه في باطنها من الاوجاع والآلام بسبب محبتها ولكن ذلك يوجب عليها مخالفة نصائح الاب يوحنا الذي اشار عليها بان تكتم محبتها . . . وبناء عليهِ فضلت السكوت على الجواب

امَّا زين فلمَّا لم يسمع منها جوابًا على كلّ ما تقدم من كلامهِ قال لها بلهجة جافية :

لا وجه لكل هذا الخوف الذي اعتراكِ فاني اجل كثيرًا سليلة

آل لبرياك ولا استطيع ان اتوهم فيها سوءًا. ولكن ارى من واجباتي تحريضك على ان لا تتوغلي في التجوال الى اماكن بعيدة وتأملي قليلًا في ما تطلبهُ منكِ حالتك النسائيَّة ومنزلتك

امَّا راحيل فانها ما برحت ملازمةً للصمت. ومع انهُ لم تتيسَّر لها ساعة اوفق من تلك الساعة حتى توضح لزوجها فرط حبها لهُ وما تتكبدهُ من المرارة في سبيلهِ بقيت صامتةً وقبلت بطواعية وطيبة خاطر هذا الكلام القارص الذي لم تكن تستحقهُ

غير انها بعد ذلك لما دخلت غرفتها وتمدَّدت على فراشها شعرت بهول موقفها وعظيم شدتهِ فما كان اشبهها بالمسافر الذي نجا من السقوط في هوةٍ عميقة فاذا وصل الى منزلهِ تمثَّل لهُ الخطر الذي تعرض لهُ وكاد يودي بحياتهِ فيثقل عليهِ الافتكار بهِ اكثر من ساعة تعرُّضهِ لهُ

ومن ثم باتت راحيل بليلة الملسوع تتقلب على مثل الجمر دون ان يغمض لها جفن وادركت حرج المركز الذي صارت اليهِ. والحقُّ يقال ان زينًا كان يكفيه ان يقول كلمة ليردّها الى حيث اتت. وكان في امكانهِ ان يفعل ذلك دون ملامة وفقًا لعادات ذلك الزمان التي كان معمولًا بها وقتئذٍ مثل سنَّة وشريعة مبرمة لاسيما وان الاغنياء المقتدرين لم يكونوا يتوقفون عن اتباع كل عادة شأنها معاونة الاهواء البشريَّة على قضاء مآربها (١. ولكن مقدَّم البترون كان رجلًا شريف المبادئ وفوق كل ذلك متعلقًا بديانتهِ المسيحيَّة كل التعلق فبناء عليهِ كان مضطرًا ان يوفق بين الراي العام واحكام ضميره. ولكنهُ كان يستطيع بسهولة ان يقتدي

---

١) دنديني .

بكثيرين من الاشراف من ذوي طبقتهِ ويبرّر نفسهُ بقولهِ انهُ شاهد امرأتهُ خارجة من بيتهـا في ساعة من الليل لم تكن تسوّغ لها الخروج. وبناء عليهِ كان مركز راحيل حرجاً جدًّا ولذلك صمتت من شدة خوفها ولم تجسر ان تنطق بكلمة تعتذر بها عن نفسها

ولو ان زيناً سرَّحها لما امكنها ان تجد منزلاً تأوي اليهِ لان أُسرتها كانت قد انقرضت ثم ان شقيقها موسى ارشيدياكون انطاكية كان قد سافر من زمان طويل الى رومية في مهمّـة خصوصيَّة (١ وهذا هو السبب الذي من اجلهِ جاءت شقيقتها حنَّة الى البترون واقامت في منزل زوجها وجرى ما ذكرنا من شغف زين بها

ثم انضافت المخيلة الى خوفها الطبيعي فتصورت انها ستصـير ضالّة تائهة لا مأوى لها ترجع اليهِ ولا املاك تنتفع بريعها وتلتزم ان تعيش بين الاجانب وهي رازحة تحت ثقل تهمة شائنة. ويا لله كم من مرَّة همّت في ذاك الليل الطويل ان تهبّ من فراشها وتذهب الى زوجها فتعـترف لهُ بكل شيء. ولكنها رأت ان ذلك إخلاف بوعد الطاعة الذي وعدت بهِ حبيس البحيرة فابت عزَّة نفسها ان تخلف الوعد وآثرت مقاومة المخاوف والصبر على المكاره

١٠

غير ان صبرها عاد عليها وبالًا لان ما عانتهُ من التاثيرات الادبيَّـة والاتعاب البدنيَّة ما لبث ان اوهن بنيتها وهدَّ جسمها فعجز عن المقاومة

---

(١) المشرق ١

والجلد واخذتها حمى شديدة كادت تذهب بحياتها حتى مست الحاجة الى استدعاء طبيب من مدينة طرابلس لمداواتها

وكان الطب في العالم العربي اثناء القرن الخامس عشر قد اصابهُ ما اصاب سائر العلوم من الانحطاط والضعة فكان الاطباء السوريون في ذلك العهد لا يعرفون الّا شيئًا يسيرًا من خصائص بعض الاعشاب والنباتات وقليلًا من المعلومات الكيموية التي كثيرًا ما يمزجونها بعقائد خرافيّة ومضادة لاصول العلم. غير انهم كانوا في اكثر الاحيان يعتمدون في مزاولة مهنتهم على كنوز المعارف والمراقبات التي خلفها لهم سلفاؤهم. وقد وصلت الينا تآليف اثني عشر منهم وهي جميعها مشحونة بالسفاسف وجلّ ما تتضمّنهُ اوصاف دوائيّة سداها الخرافة ولحمتها التدجيل (١

واما في ايّامنا فقد اختلفت حالة الطب كل الاختلاف وتشاغل الاطباء في البحث عن المكروبات الضارة والنافعة وعن فوائد الكهربائيّة والنور في المعالجة فهم يريدون في وقت واحد ان يكونوا كياويين وطبيعيين وكهربائيين وغير ذلك ليكونوا اطبّاء اي ليجتهدوا بجد واخلاص في مداواة مرضاهم وتتبّع سَيْر عللهم وتفحّص ادوائهم ومعاونة الطبيعة على الشفاء بدلًا من تعذيبها بتجاريبهم العنيفة التي تكون في بعض الاوقات أخطر على الصحة من المرض نفسهِ

وكان الطب في الزمان الحكي عنهُ يزاولهُ خاصّةً أفراد من المسلمين واليهود. على انّ النصارى لم يكونوا ليتركوا لهم احتكار هذه المهنة. ومن

---

(١) راجع ليكلر تاريخ الطب العربي (٢: ٢٩٠) والمخطوطات الطبية في مكتبتنا (المشرق ٤: ٧٢١)

الغريب ان رجال الاكليروس كانوا يمتازون على سواهم في الفنّ المذكور ولكنهُ لم يكن احد بين الطوائف النصرانيَّة كلها من يتقن الطب مثل اليعاقبة ولذلك كانت لاطبّائهم سمعة طائرة وذكر بعيد (١

اما الطبيب الطرابلسي فبعد ان فحص المريضة بما لا مزيد عليهِ من التدقيق واستفهم عن مقدمات مرضها حكم اخيرًا انها مصابة بحمّى صالب قد تناولت الدماغ ايضاً ممَّا يخشى معهُ من الخطر على حياتها. فلما كان اليوم التالي أُصيبت المريضة بانحطاط شديد وغلب عليها النعاس الّا انهُ كان متقطعًا ولكنهُ ما وافى الليل وحانت الساعة الموافقة لساعة وصولها الى البترون يوم عودتها من السفر حتى رجعت اليها الحمى شديدة محرقةً فخافت عليها شقيقتها حنة كل الخوف واستدعت المقدَّم زين فقالت لهُ :

ان راحيل تخوّفني كثيرًا لانها تهذي باعلى صوتها وتعمل اشارات وحركات ترعبني ومتى اشتدَّت عليها الحمى تهمّ بان تنطرح على الحضيض. . . فلا اجترئ على البقاء عندها وحدي. ثم اني من وجه آخر — قالت هذا وقد صبغت حمرة الخجل خدَّيها — استنكف من وجود شخص غريب هنا يسمع ما تنطق بهِ من الهذيان متى اشتدَّت عليها النوبة

ومن ذاك الوقت اتفق الاثنان ان يجتمعا عند فراش المريضة معاً للسهر عليها كلما ثقلت عليها وطأة الحمّى. وكان قبول زين بملاحظة قرينتهِ والانتباه اليها في مرضها من شأنهِ ان يُعيد الى الزوجين ذاك الحب

---

١) راجع كتاب « راي» الفنون المستعمرات في المشرق (ص ١٨١)

الذي تقلّص ظلّهُ بينهما من زمان طويل لانه بالرغم عن الفتور المقصود من زين والاحتراز الذي تعمدتهُ راحيل كانت الساعات التي تنقضي ورأسهُ الى رأسها والاسئلة التي يتبادلانها عن ارتفاع الحمى او هبوطها تقرّب ذينك القلبَين وتُدنيهما ممزّقةً بعض ما كان فيهما من الضنك والانزعاج

وكان زين يقوم بما تستلزمهُ العناية بقرينتهِ بغاية الاقبال والقبول اللذين يمتنع ان لا يجدا تأثيرهما في قلب مستقيم وحسّاس كقلب راحيل. ولذلك كانت كلما شاهدتهُ مهتماً براحتها يزيد اجلالها لهُ وتشعر بانجذابها الى هذا القرين الذي من غير قصد تحوّلت محبّتهُ عنها .

ومضت ثلاثة ايّام على المريضة ونُوَب الانحطاط والاضطراب تتعاقب عليها دون ان يحدث تغيير محسوس في حالتها العموميّة لان أدوار الهذيان كانت دائمًا تتجدّد عليها بلا اختلاف في اعراضها

وبينما كان زين ساهرًا في ذات ليلة على امرأتهِ اخذتها نوبةٌ شديدة وصوّرت لها الحمى انها لم تزل تائهة تحت البرَد والمطر في تلك الطرق المستوعرة التي مرّت بها ثم اعاد الوهم على ذهنها زيارتها للاب يوحنّا ذاك الشيخ البارّ فاخذت تبسط لهُ ادلّة حبّها لزوجها بلهجة من الاخلاص كانت لها حركة عظيمة في قلب زين واخيرًا تمثّلت لها مقابلتها الاخيرة لحبيس بحيرة قدَس فهتفت قائلةً: « اسمح لي ايها الاب القديس ان اقول لزين باني مشتعلة بمحبّتهِ وان قلبي ما نبض قط الّا لاجلهِ. . . أفتسمح لي بهذا يا ابي . . . اني أُطيع هذه المرَّة ايضاً فباركني وصلِّ خاصةً من اجلي. زوّدني بدعائك. . . »

وبعد هذه الكلمات حاولت ان تنهض وهي لا تعي فأعانها زين على

القيام ولكنها ما لبثت ان وقعت على فراشها خائرة القوة

وفي ذات مساء بعدما أصابتها احدى هذه النوبات المؤلمة اخذ زين يقول في نفسهِ: « ما اعظم محبّتها لي » وما كان غير قليل حتى تذكَّر ذاك اليوم السعيد الذي تلا بركة قرانهما من يد الاب يوحنا وما اظهرتهُ لهُ راحيل من الحب الممتزج بالاجلال والاكرام. وكان هذا التذكار حلواً مستعذباً لانهُ أعاد على خاطرهِ صورة السعادة الهادئة الحقيقيَّة ومثَّل لهُ الاتحاد الباطني بين قلبين ما كان يتحرَّك احدهما الَّا للآخر

غير انهُ بعد ذلك تفكَّر كيف انقلب فجأةً ذاك الاتحاد الوثيق الى حذر وكيف ان كل واحد من الاثنين صار بالنسبة الى الآخر كشخص غريب. ولو ان زيناً امعن النظر في الامر ودقَّق قليلاً لعرف السبب واطلع على الحقيقة غير انهُ لم يكن يريد ذلك وكانت الأثرة تصدّهُ عن مشاهدة ما هو لاحق بهِ من المسؤولية الكبرى فلهذا هتف قائلاً:

انَّها لأوهام مريضةٍ بل هذيان دماغ بلبلتهُ الحمى . . . فلا يجدر بي ان احفل بها وانتبه اليها

وكأنهُ خشي ان تكون قرينتهُ سمعت كلامهُ فأضاف الى سابق كلامهِ بصوت خافت قولهُ:

وبعد هذا وهذا لا يبكّتني ضميري على سيئة معها. فمن اي شيء تستطيع الشكوى ؟ وماذا ينقصها ؟ أما ان قلة فطنتها سلَّحتني عليها بسلاح مخيف فقد كنت استطيع بكلمة واحدة ان أُسرحها وأُلحق بها عاراً لا يُمحى. واذا كنتُ لم افعل شيئاً من ذلك فما هو الَّا عن كرم اخلاق وصفح متجاوز الحدّ. فبناء عليهِ لا ينبغي ان اظهر ضعفاً . . او

تساعحاً فان منزلتي وشرفي لا يسوّغان لي شيئاً من هذا على سبيل الاطلاق والّا كان بمثابة إقرار بخطاء تصرُّفي

وكان الاقرار بالخطاء اعظم مانع يصدّ زيناً عن العود الى سابق حالهِ مع قرينتـهِ وكيف لا وقد كان رأسهُ المتشامخ يأبى مطاوعة حركات قلبهِ الشريفة وكبرياؤهُ تبعـدهُ عن اتمام الفرض الذي يريه ايَّاهُ ضميرهُ واجباً وضرورياً . على ان زيناً لم يكن باول رجل خاض غمار هذه المعركة كما انهُ لسوء الحظ لا يكون آخر رجل سيخوض غبارها

وبعد ان مضت بضعة ايام قويت بنية راحيل على المرض وكان النقه فيها سريعاً . أجل ان مرضهـا لم يكن سوى خوف فجائي حادّ ولم يأتِ بعواقب وخيمة كما انَّهُ لم يغيّر شيئاً من حالة الزوجين ساكني قصر البترون ولكن حنة التي لم تكن تبالي بشيء اخذت من تلك السـاعة تظهر امائر البلبال واشتغال الفكر فكانت تتذكر الكلمات التي سمعتها من شقيقتها وقت اشتداد النوب عليها وتهتمّ بمعرفة معناها والمقصود منها الّا ان الوقت لم يكن قد حان ولسوف لا يطول الزمان حتى تظهر لها الحقيقة . وبالنظر الى ما هو معروف من انقيادها سنرى بلا شكّ انها لن تتردَّد مطلقاً عن الطاعة لصوت الواجب

واماَّ زين فاستمرّ على عادتهِ لا يظهر عليـهِ ادنى اثر من الهواجس التي بكَّتهُ عليها ضمـيرهُ . واذا كان قد تمكّن من خنق تلك الهواجس واخفاء آثارها في الظاهر فانهُ في الباطن كان منزعجاً من نفسهِ لائمـاً تصرُّفهُ . واذا كان قد بقي يجتنب قرينتـهُ كما في الماضي فما ذاك الّا لأن مرآها كان يعيد عليهِ ذكر مساويه واماَّ امرأتهُ فانها عملًا بوعودها للاب يوحنَّا استمرَّت صابرةً على جراحها بسكوت تامّ

١١

ودامت راحيل على هذا المسلك وكانت كل يوم تزيد فيهِ ايغالًا حتى مضت عليها عدَّة اشهر دون ان تعلو جوادها الابيض التي كانت مولعةً بركوبهِ. غير انها بعد ذلك غصبت نفسها على تغيير هذه الخطة فعادت في الظاهر الى سابق حالها واخذت تركب ذلك الجواد وتقودهُ بمثل النشاط الذي كانت تبديهِ في ما سلف. وكانت كلما خرج زين لصيد الخنزير البري في وادي نهر الجوز او لصيد الحجال والسلوى التي تكثر في غابات عبرين وكور وكفرحي وفي الأكمات الرمليَّة ما بين حنوش ووجه الحجر او ذهب لزيارة قلعة الحصن وقلعة سمار جبيل تخرج معهُ وهي تحمل الباز في يدها وتلبس برقعًا طويلًا ابيض لا يزال يخفق على هوى الرياح التي تتلاعب بهِ وتركب جوادها المطهم الذي كان يسير تحتها وهو يزبد ويشب كأنهُ يفتخر بحملهِ اللطيف. وعلى هذه الصورة عادت الى سابق نشاطها وبشاشتها وكانت تفعل ذلك بلباقةٍ وهيأة طبيعيَّة خالصة تجوز على احذق الناس واوفرهم درايةً

وكانت في ما مضى قد خلعت حلاها وزينتها واخذت تقف كالخادمة الى جانب شقيقتها حسنة المتبرّجة بافخر الملابس وانفس الجواهر. امَّا الآن فقد عادت فتزيَّنت بالذهب والماس مُفرغةً عليها اجمل الحلل وابهاها واخذت تظهر البشاشة والسرور وتخوض احاديث الفكاهة والنكات المفرحة ولم تكن تريد اصلًا ان تظهر عليها اقلّ علامة خارجيَّة تبوح بما يكنُّ قلبها من اللوعة والحرقة بسبب ما تلاقي من صدّ المقدَّم بعلها وإعراضهِ. ولكن

جميع مساعيها ذهبت ادراج الرياح لان زيناً لم يشعر بجنانها المحجوز اكثر من شعوره قبلًا بمحبّتها الفائضة

نعم انهُ كان يتعجّب من التغيّر الذي يشاهدهُ في قرينتـهِ غير انهُ لم يكن يعلّق عليهِ اهميَّة ولهذا كان يجتنب الكلام عليهِ . ورأت راحيل ان أحوالها تزيد ارتباكًا وصعوبةً وان كل ما تظاهرت بهِ لم يجدِ نفعاً ولم يأتِها بالفائدة المطلوبة لان زيناً استمرّ بالرغم عن ذلك كلّهِ لاهياً عنها بميلهِ الى شقيقتها

وفي هذه الاثناء توفي مقدَّم العاقورة (١ فكتب الامير رزق الله الى المقدَّم زين ان يتوجَّه مع قسم من الجيش لحراسة المسيطرة والطرق التي تؤدي من بعلبك الى لبنان اعني طريق عيناتا الى الارز من ظهر القضيب والمضايق المبلّغة من بركة اليمونة الى افقا فالعاقورة

امَّا راحيل فعزمت على ان تغتنم غيابهُ لتزور مرَّة اخيرة حبيس البُحيرة ومع ما في سفرها اليهِ من المخاطرِ والصعوبات كانت تشعر بقوة غير مغلوبة تدفعها اليهِ قسرًا وتعتقد اعتقادًا ثابتاً مكيناً ان لا خلاص لها من المحنة الَّا على يدهِ

وقد قابلها هذا الرجل البار بحنوٍّ لا يوصف . وكانت الشيخوخة التي احنت ظهره والعذاب الطويل الذي قاساهُ والاوصاف العديدة التي تزيّن بها تجعلهُ كرجل ممتاز عن سائر الناس وتخوّل كلامهُ سلطة فائقةً تصعب مخالفتها فقالت لهُ راحيل : « اني قد مشيت على ارشاداتك بكل تدقيق وكتمت محبتي كل الكتم لا على شقيقتي فقط بل على زوجي ايضاً . غير اني

---

١) المشرق ٤ واخبار الاعيان

عاينت من هذا كله عذابًا دونهُ عذاب الشهداء فخنقت زفيري في باطني وكانت اذا همّت دموعي بان تفيض على خدّي كفكفتُها بيدي فكنت اشعر بالموت والفناء في داخلي واتبرّج واتحلّى في ظاهري فاعلةً كما كنت افعل في الايام الاولى لزواجي. تخلّقتُ بخلق الفرح والبشاشة مع ان قلبي لم يعرفهما منذ اشهر. ولو ان ادنى بارقة امل اومضتْ لي في ليل احزاني لتجلّدتُ وتصبرت على المحنة بقبول ورضى. ولكن لم يكن شيء من ذلك كلّه لان زينًا ما زال اليوم قليل الاكتراث بي كما كان من قبل. ولا اقول انهُ منع عني دلائل الاعتبار وشواهد الاحترام التي كثيرًا ما يخلطها البعض بالمحبة. كلّا فانّهُ من هذا الوجه رجل مكمّل بل اقول ان قلبهُ لم يرتدّ اليّ وقلبهُ هو غاية ما أُريد منهُ ولي الحقُّ كلّ الحقّ فيهِ. كلّا ثمّ كلّا انك لا تعلم يا ابي ولا تستطيع ان تعلم كم قاسيت من العذاب في طاعة اوامرك. فما هي الفائدة اذًا من إطالة مدة هذه الحال التي لا تُطاق؟ وحتى متى توجب عليّ صبرًا على كفّارةٍ قاسية لا تولي نفعًا؟

فاجابها الاب يوحنّا قائلًا:

انّكِ حتى الآن لم تكتمي حبك الكتم الواجب. ولعلّ ظواهر الأثرة بقيت باديةً فيكِ. فينبغي ان تخفي محبّتك لا فقط على شقيقتك وحدها ولا فقط على قرينك بل ايضًا على نفسك. وهذا آخر واصعب محنة عليكِ. نعم انك قد اجتنبتِ كل عمل وكل كلمةٍ بل ايضًا كل اشارة تظهر محبتك لكنكِ داومت بلا انقطاع على تفحّص واستقصاء المحبة الباطنة. نعم انكِ لم تعلني شيئًا من شكواكِ ومرارتكِ ولم تصرّحي بتذمركِ غير ان زينًا يشعر بذلك كلهِ وهذا الذي يبعده عنكِ. ومن المستحيل ان لا تكون عيناك وهيئة وجهكِ قد باحت لهُ بهواجس قلبكِ

وقلاقله. فمتى عرفتِ كيف تقمعين كل حركاتك وتخمدين كل ما يثور في داخلكِ ومتى رضيتِ بان تكوني قرينةً مهملةً منسيَّةً ومتى حملتِ صليبكِ بفرح او على الاقلّ بصبرٍ وتجلُّد. وبعبارة وجيزة متى استقرَّ فيك السلام الباطني ففي هذا الوقت وحدهُ لا في سواهُ تدركين الانتصار لانهُ لا شيء غير السلام الباطن يولِّد المحبَّة الخالصة. ولا ريب ان ظواهر هذا السلام بعينهِ هي التي تجتذب القدَم رغمًا عن علو اخلاقهِ الى شقيقتكِ الموصوفة بالدماثة والحياء. واخفى الحب هو اشدّ اشتعالًا من سائر انواعهِ ومع عدم ظهورهِ تكون لهُ سلطة عظيمة جدًّا حتى ان الرجل القديس يوشك ان يعجز عن مخالفتها...

ثم ان الاب يوحنَّا انقطع هنيهةً عن الكلام واتى بكتاب مخطوط وقدَّمهُ الى راحيل من نافذة كوخهِ قائلًا لها ان هذا الكتاب يرشدكِ بالتطويل الى ما لا استطيع ارشادكِ اليهِ فخذيهِ فهو اجمل كتاب صنعتهُ يدُ بشر لان الانجيل لم يأتِ من البشر

وقد طلبتِ مني قبلًا ان ادلَّكِ على علاج يشفي اوجاعكِ او في الاقلّ على سرّ الصبر عليها. فاعلمي ان السرّ كلهُ موجود في هذه الاوراق فمنها كنتُ استمدُّ عزاءً وقوة حتى الآن ولا ريب عندي انها توليكِ مثل ما اولتني

امَّا راحيل فتناولت هدية الحبيس وهي لا تبالي وكان عنوانها هاتين الكلمتين « الاقتداء بالمسيح » فلمَّا قرأتهما توهمت ان الاب يوحنَّا يستهزئ بها فقالت في نفسها: « اذا كان الكلام الحيّ لم يأسُ كلوم نفسي فمن اين لحروف ميتة في هذا الكتاب ان تدفع عني نكبتي ». ومن ثم تأكَّد لها ان الرجل القديس يشير بذلك الى إعضال دائها واستحالة

شفائهِ وانهُ لم يبقَ عندهُ من دواء لعلاجها . ولمَّا كانت المعارك الباطنة قد هدَّت قواها مدة سنة بكاملها رأت ان افضل الاشياء ان تتمسك باذيال الجلد والصبر وتحني عنقها هذه المرَّة ايضاً لنصائح الشيخ القديس

ومع ذلك كان عتوّها كامناً في صدرها كالنــار تحت الرماد . وقد لاحظ الاب يوحنّا ما في باطنها فقال لها قبل ان صرفها من عندهِ :

اكِّدي لي يا راحيل انك من الآن فصــاعداً تنبذين العناد نبذاً وكلَّما عرِضتْ لكِ مرارة فاجثي قدام الله وقولي لهُ : « ربي وسيدي انك لم تكذب في قولك « طوبى للباكين » فانزل عليَّ شيئاً من الطوبى التي يتضمَّنها هذا الوعد الالهي »

وكانت راحيل تسمع كلام الشيخ واقفــةً و بصرها متَّجه الى ما وراء مياه البحيرة من قمم جبال عكار التي خلفها كان القمر يطلع بطيئاً . وما كان غير قليــل حتى افاض الكوكب الدرّي امواج انوارهِ على الجزيرة والبحيرة معاً فما كان احسنهــا ليلة نقيَّة الأديم تألقت نجومها وتقاربت كواكبها حتى كاد الناظر لا يُبصر السماء من ورائها الّا كرُقعةٍ من السمنجوني تخرقها قبَّة من ذهب

وكانت محاسن الطبيعة الهادية قد تصرفت بلبّ راحيــل وفتنت عقلهــا فلبثت صامتةً واخذت هذه الساعةَ ولكن دون مقاومة تجيل في فكرها كلمات الاب يوحنا واحدةً بعد واحدةٍ ثم هتفت قائلةً « صلّي من اجلي يا ابي حتى يرزقني الله القوَّة والايمان »

— نعم سأصلي على هذه النيَّة حتى تكوني سعيدة

— حتى اكون سعيدةً ! قالت هذا بصوت متألم حاسبةً ان الاب يوحنا يتهكم عليها

— نعم حتى تكوني سعيدةً في مصابك ودموعك

— كلّا يا ابي ما بقيت لي سعادة في هذه الدنيا فالسعادة لفظة يجب ان تُحذف من كتاب حياتي ثم تبسّمت تبسُّم مرارة وحرقةٍ وقالت : لا سبيل حتى اكون سعيدة . ألا تعلم انك تبغي المستحيل بطلبك مني ان اكون سعيدةً

— اعلمي يا راحيل اني استطيع بل يجب عليَّ ان اطلب منكِ كل شيء . فاني لا اظنّك امرأة اعتيادية بل اعتقد فيكِ مقدرةً على فهم لهجة الايمان بل على اتيانِ اسمى الاعمال وانبل الضحايا . ولكِ نفس مستقيمة نقيَّة بالرغم عما فيكِ من عتوّ واصرار فاسلكي بجزمٍ في الطريق الضيقة التي تنفتح لكِ وبركة الحبيس وصلواته ترافقكِ

— ما احسنك يا ابي

— ان الله تعالى هو احسن بما لا نهاية لهُ

ولما عادت الى البترون وخلت في حجرتها فتحت كتاب الاقتداء بالمسيح فوقع بصرها على فصل عنوانه « اربعة أُمور تأتي بالطمأنينة التامة وهي : اجتهد في ان تعمل مشيئة الآخرين لا مشيئتك . تُق دائماً الى احراز القليل اكثر من الحصول على الكثير . اطلب دائماً المقام الاخير واخضع للكل . توسّل دائماً حتى تكمل مشيئة الله فيك . . . »

ولم تقرأ راحيل غير ما تقدم ايراده فخرَّت جاثيةً وغطت رأسها بيديها وبكت طويلًا

١٢

وكانت دموع راحيل كإقرار بالضعف البشري تجاه سمو الكفر بالذات الذي وضح لها من خلال هذه السطور المرعبة بالرغم عن بساطتها .

وكانت في الحقيقة تتوقع شيئاً آخر فقد حسبت انها تفوز بمرضاة قلبها في حب حلال وشرعي غير ان مطلبها بشري محض ومن ثم جاء ثقيلًا عليها ما كلفها بهِ الحبيس من تضحية اعزّ اميالها

ولا نعلم هل اقترح الاب يوحنــا عليها ما اقترحهُ عن فرط يقين بشجاعتها وعزّة نفسها او عن قصد ارشادها الى ما يفوتها من الفضائل ؟ بل غاية ما يُعرف من خبرهــا انها استمرّت تتذمر من العنــاية الالهيَّة مع انهُ كان الواجب عليها في تلك الساعة نفسها ان تقدم أحرّ الشكر لله على نجاتها من اعظم الاخطار

علم القارئ مما سبق بيانهُ ان عبد المنعم مقدَّم جبيل كان قد تواطأ مع بعض الخوَنة في قصر البترون على ان يبلّغوا اليهِ كل حادث يجري هناك فبواسطتهم اطلع على سرّ النفرة بين راحيل وزوجها وعرف باسفارها الى زيارة حبيس البحيرة فعقد النيَّة على ان ينتفع من هذه المعلومات ويرضي شهواته الدنيَّة باختطاف زوجة مقدم البترون

وبالنظر الى ما يترتب على مسألة كهذه من عظيم المسؤولية والتبعة لم يشأ ان يباشرها بنفسهِ مخافة ان تجرّ عليهِ خطرًا كبيرًا ولمَّا كانت بينهُ وبين جوسلين مراسلة متتابعــة منذ مدة من الزمان على يد رجل يهودي من طرابلس وهو الذي سبق الخــبر عن قيامهِ في فناء قصر بشراي يوم حضور الاب يوحنا اليهِ انتهز المذكور هذه الفرصة فاخذ يشجع جوسلين على معصية الامير رزق الله وشقّ عصا الطاعة لهُ . وعزم هذه المرَّة ايضاً على ان يستخدمهُ لاتمام مقصده السيء

وما كاد يفاتحهُ بالمسألة حتى لاقى منهُ اقبالًا وقبولًا دون ادنى تردُّد . وكان جوسلين يقصد ان يختطف راحيل لنفسهِ ويتظاهر لعبد المنعم انهُ

يفعل كل شيء لمرضاته. وكان يعلل نفسهُ انهُ متى وقعت راحيل في يده تصير عنده بمثابة رهينة نفيسة يوم يأتي الامير رزق الله ويسألهُ حساباً عن مسالكه. على ان مقدم جبيل مع ما هو معروف بهِ من الخبث والدهاء قد لاقى شخصاً أدهى منهُ وأحيل ولسوف يتعلم ان المواطآت المبنيَّة على الجريمة والاثم معرَّضة للخدائع وأنواع المكر. ولو لم يجعلا العِرض هدفاً لغرضهما السيء لسرَّنا مشهد هذين الماكرين كيف ان كلاًّ منهما يسعى في خديعة الآخر

مرَّ الكلام على خبر مواجهة راحيل لحبيس البحيرة ونقول الآن ان عبد المنعم لمَّا عرف بواسطة موثقيهِ اليوم المعين للسفر بادر في الحال فانفذ رسولاً الى جوسلين الذي من فوره اخذ ما يلزم من التدابير واستدعى بعض الاشداء من رجالهِ ووكل اليهم اختطاف المسافرة النبيلة

فكان انهُ ليلة خرجت راحيل من البترون يصحبها خادمها موسى خرج ايضاً من القايعة خمسة من الخيَّالة فساروا الى جهة حمص. وكانت الغيوم قد تلبَّدت في الجوّ منذرةً بقرب عاصفة شديدة من العواصف التي يكثر ثورانها في ايَّام الخريف وكذلك كان هزيم الرعود يملأ الفضاء ولم يكن يظهر في الرقيع شيء من الكواكب والنجوم لترشد بانوارها خطى السارين

ومع ذلك فقد تيسَّر السفر لهذه الشرذمة من الخيالة حتى قرية عين الشمس دون ان يحدث لها شيء مزعج غير انهم لمَّا دخلوا الغاب الملتف لم يقدروا على المسير الَّا بصعوبة وعناء لان خيلهم كثيرًا ما كانت تكبو في

الظلمة بسبب الحجارة الملس التي رُصفت في تلك الطريق (١. وبعد ساعة من الزمان رأوا مع فرط الغم والدهشة انهم تاهوا عن السبيل

فعزموا في بادئ الامر على التربص مكانهم الى ان يُشرق الفجر ثم عدلوا عن هذا العزم خوفاً من وصولهم متأخرين الى ضفاف البحيرة بقرب السدّ الشمالي الذي منهُ تجتاز راحيل الى الجزيرة

اخيراً جزم زعيم تلك الشرذمة بان يرفع صوتهُ مستغيثاً لعلَّ احداً من الرعاة النصيريَّة الذين يبيتون مع مواشيهم في الغاب يسمعهُ فيأتي لنجدتهم. فظلَّ ينادي مدَّة طويلة ولم يسمع جواباً غير انهُ في الاخير حضر رجل ملتحف بفروة غليظة من جلود الغنم كما يفعل حتى الآن كثيرون من رعاة الماشية فاول ما شاهدهُ الزعيم قال لهُ بصوت جافٍ:

— انت ناظر حالتنا وقد ضللنا الطريق فعليك ان تخلِّصنا من الارتباك وتوصلنا حالاً الى طريق حمص دون تأخير

امَّا الرجل المجهول فلم يبادر الى الجواب وبعد ان تفرَّس في وجوه الخيَّالة قال :

— اي والله انكم مستعجلون كثيراً ولكن انبهكم قبل كل شيء انكم تغلطون في استعمال الكلام الجافي مع رجل تطلبون منهُ النجدة والاسعاف. واني اودّ من صميم قلبي ان اقدم لكم خدمةً وقد برهنت على حسن استعدادي بان تركت قطيعي واتيت ملبياً نداءكم. ولكني أُحب قبل الشروع في شيء من ذلك ان اعرف من انتم. فوالله ان الزمان الذي نحن فيهِ قبيح وشنيع ينبغي فيهِ لمن هو مثلي ان يكون دائماً على حذر.

---

١) مجلَّة الشرق المسيحي ١٩٠٠

ثم انكم خمسة رجال وكلكم مسلحون فاذا كنتم لا تخشون بأساً من راعٍ حقير مثلي فارغب ان اعرف ايضاً هل استطيع ان اسلِّم نفسي بين ايديكم فقولوا لي اذًا ماذا تريدون ومن اين تأتون

— ماذا يهمّك امشِ امامنا ولا تسأل عمّا لا يعنيك

— ايِ والله من حيث الحال على هذا المنوال لم يبقَ لي الّا ان اتمنى لكم سفراً سعيدًا او ان تُرزقوا رجلًا آخر أبسط مني يدلكم على الطريق . والان اودعكم لان قطيعي يستدعيني

قال هذا وأدار ظهره وهمّ ان ينساب في الغاب . فلمّا شاهد الزعيم منهُ ذلك فطن ان الضرورة تستدعي منهُ ان يغيّر لهجتهُ القاسية فقال :

— ارجع فأُخبرك بما تريد اعلم اننا آتون من القليعة

— هذا ما كنت اريد معرفتهُ وقد علمت الآن انكم في خدمة السيد جوسلين الذي انا من جملة رعاياه فالى اين تذهبون ؟

— الى حمص

— أَإلى المدينة نفسها ام الى ضواحيها ؟

— نريد ان نعرف اقرب طريق تؤدي الى بحيرة قدس

— فهمت مقصودكم فاتبعوني غير ان طريقكم ستكون صعبةً وعرةً وفي الوقت نفسهِ طويلةً لانكم تهتم عن الطريق القويم من زمان

ثم ان الراعي اخذ يسير امامهم وهو ساكت لا ينطق بكلمة . غير انهُ كان مرةً بعد مرة يلتفت الى الخيّالة ليرى هل يتبعونهُ فكان يشاهدهم متقدمين بعناء لاسيا وان سروج خيلهم وسيوفهم الطويلة كثيرًا ما كانت تشتبك باغصان الاشجار الشائكة القائمة كسياج عظيم على

جانبي ذاك الشعب الضيق ولو أراد ان يُتعبهم ويُعنتهم لما امكنهُ ان يُنزل بهم اكثر ممّا اصابهم من المشقة

وبعد ان ذاقوا أشدّ المرارة من مسيرهم في شعاب ضيقة وصلوا اخيرًا الى جرف وادٍ عميق فلماً همّ الراعي بالنزول فيهِ صرخ بهِ زعيم الخيالة قائلًا :

— مكانك. لا نريد ان نمشي في هذه الطريق

— والله هذه هي أقرب الطرق المؤدية الى البحيرة

— دلّنا على طريق غيرها

— والله لا أعرف طريقًا غيرها الّا اذا ابتعدنا من هنا ثلاث ساعات

— لا بأس فان خيلنا طيبة وعليها نعتمد في ربح ما نخسره من الوقت

— الامر امرك. قال هذا ورجع على أعقابهِ فسار على حواشي الوادي ومشى الخيّالة خلفهُ يتبعونهُ وكان زئير الرعود يقرب منهم وما طال الزمن حتى بدأت تقع قطرات ضخام من المطر وكان الدليل قد أسرع الخطى متنقلًا من صخر الى آخر كأن في رجليهِ اجنحةً للطيران. فقلق زعيم الخيّالة وهمّ بندائهِ ولكنهُ كان قد اختفى في الغاب بخفة لا مزيد عليها وجاز ما بين الاشجار الملتفة دون ان يتحرك منها غصن

ثم سار الخيالة بعض خطوات فشاهدوا مشهدًا ارتعدت لهُ فرائصهم خوفًا لانهم وصلوا الى صف من الصخور تشرف على مهواة مرعبة يبلغ عمقها مئتين او ثلاثمائة متر فانخلعت قلوبهم وتصوروا الهلاك محيطاً بهم لاسيما وانهم شاهدوا فوق هاماتهم صفًّا آخر من الصخور فلم يجترئوا

على تسلقها بخيولهم في ذلك الليـل الدامس

ولا حاجة الى وصف ما احاق بهؤلاء الناس من الرعدة والحيرة لمَّا رأَوا نفوسهم محبوسين بين صفين من الصخور لا يستطيعون تقدُّماً ولا تأَخرًا ففهموا حينئـذٍ ان الراعي قد أَضلهم وكان طلوع الفجر قد قرب فاقاموا يتوقَّعون انبثـاقه بفروغ صبر تحت الامطار والرياح . فلماَّ لاح الصبـاح وكانوا قد تبلَّلوا بالمطر وارتعدوا من البرد وخارت قواهم هم وخيلهم من فرط التعب والمشقة رأَوا بخوف وهلع انهم في بلاد الاسماعيليَّة المشهورة سطوتهم ما بين الجبال الشامخة المشرفة على قلعة مصيـاد وان المهمَّة التي كُلفوا بها قد فاتتهم فبدلًا من ان يختطفوا قرينة مقدم البترون أَلجأَتهم الحال الى الاهتمام بوسيلة تكفل لهم النجاة وكتم وجودهم هناك عن أَعين سكان الناحية

ومن يا ترى كان هـذا الراعي المجهول الذي أَضلَّهم الطريق واي شيءٍ حملهُ على ذلك ؟ هل كان ذلك على سبيل الاتفاق ام ان العنـاية الالهيَّة الساهرة على البرارة واهلها هي التي ارسلت في تلك الليلة نفسهـا الراعي عبد الله صنيعة الاب يوحنا ؟ كان الراعي المذكور متمددًا على الحضيض وهو ملتحف بفروة ضخمة من جلود الغنم كما تقـدم الكلام ومعهُ كلبان كبيران اتخذهما رفيقين امينين في ذلك الغاب وفيما هو نائم سمع صريخ الاستغاثة فما بالى لهُ في بادئ الامر غير انهُ لمَّا اشتـد الصوت هبَّ من نومهِ فسار الى الخيَّالة السـابق خبرهم فلماَّ علم انهم آتون من القليعة وقاصدون بحيرة قدس ظنَّ انَّ جوسلين ارسلهم لاتيان جريمة جديدة ضد الاب يوحنا المحسن اليهِ وحينئذٍ اضمر لهم الشرَّ

وكان عارفاً بمحجَّة امير مصياد لحبيس البحيرة فعمد الى تضليل رجال

جوسلين واغتنام الوقت الكافي لتنبيه الامير الاسماعيلي الى المكيدة التي ينسجونها للاب يوحنا

وبناء على ذلك قادهم في طرق وشعاب وعرة حتى انهـك قواهم وتركهم اخيرًا في مشارف قلعة الاسماعيليـين المشهورة. ثم اخذ طريقًا منحرفة فسار فيها مسرعًا حتى وصل الى القلعة قبل انقضاء الليل

غير ان تدخل الامير الاسماعيلي لم يعد وقتئذٍ ضروريًا لانَّ الخيالة المذكورين اصابهم من الخجل والفشـل وقلق الفكر ما جعلهم يغبطون نفوسهم على تمكنهم اخيرًا من الاهتداء الى طريق القليعـة التي انتهوا اليها في اليوم الثالث لخروجهم

امَّا الراعي عبـد الله فسوف نراه في سجون القليعـة حيث يزجّهُ جوسلين انتقامًا من اخلاصهِ الصحيح لحبيس البحيرة. والاخلاص صفـة جميلة في الناس لكنها نادرة عزيزة وأفضل أنواعها ما قام بهِ رجل حقير تستدعي منهُ حالتهُ ان لا يهتمَّ الَّا بنفسهِ

١٣

وبينما هذه الحوادث تجري في جهات حمص كان مالك عملًا باوامر سيـدهِ قد زايل بشراي ذاهبًا في طريق طرابلس وهو ممتطٍ حصانًا ادهم قصير القامة ضئيل الجسم يدعى «الريح» لم يكن احد يعرف شيئًا عن اصلهِ لا مالك ولا غيره بل كل ما يُعلم من امرهِ هو ان زمرةً من النوَر نزلت ذات يوم بالقرب من بشراي فلمَّا ارتحلت تركتهُ هناك

فشاهده اهالي المدينة ولم يرضَ احد منهم ان يُطعمهُ لكثرة ما رأوا في بدنهِ من الجراح غير ان مالكاً حاجب الامير رزق الله اخذتهُ الشفقة على الحيوان المسكين واتى بهِ الى منزلهِ واعتنى بهِ واخذ يركبهُ في جميع سفراتهِ وجولاتهِ في الجبل

وتعلق «الريح» بمولاهُ الجديد كل التعلُّق فلم يكن يطيق اصلاً ان يركبهُ رجل آخر غيرهُ وكم من مرة خلَّصهُ بسرعة إحضارهِ من مطاردة الاعداء . وكان مالك اذا اخذهُ التعب في اسفارهِ الطويلة يرخي اللجام على عنق «الريح» مستسلماً الى غريزتهِ فكان اكثر من مرة يتحاشى السير على الطريق العمومية ذاهباً بهِ في الشعاب والمسالك غير المطروقة ولا يلبث مالك ان يتأكد بعد ذلك انهُ قد جنَّبهُ كميناً او خطراً آخر وحاصل الكلام انَّ حبّاً صميماً تمكَّن بين الفارس وفرسهِ وقد ادّى مالكاً الى عدم الارتياب في ان وجودهُ مرتبط بوجود «الريح»

على ان بعض الناس يأبون تصديق امرٍ كهذا ويلحقونهُ بالاحاديث والقصص الخرافية التي لا حقيقة لها ولكن حكمهم غير ملاقٍ للواقع لان غرائز البهائم وحواسَّها قد تنمو نموًّا عجيباً وحتى الآن لا يعرف العلماء مع كل ما قاموا بهِ من التجارب والامتحانات عند اي حدّ يقف هذا النمو الذي قد يزيد زيادة عظيمة في بعض الاوقات بظواهر الفهم فينخدع بهِ المراقب اذا كان غير مدقق . ولقد اصاب قدماء العرب في اعتقادهم ان البهائم تفطن الى كثير من الاشياء التي تغيب عن حواس الانسان الضعيفة ولذلك كانوا في مواقع الريب والشك يستسلمون الى نياقهم

فيتركونها تجري على هواها . وقد ذكر التاريخ من هذا القبيل روايات هي في الحقيقة عجيبة (١

على ان مالكاً بدون ان ينتبه الى هذه التعليلات كلها كان قد اتخذ عادةً بان يترك حصانهُ « الريح » يجري على هواهُ وقطُّ لم يعرض لهُ من هذه العادة ما يحملهُ على الندم والاسف كما قد تقدم تقرير ذلك

ويوم كانا سائرين كلاهما على طريق طرابلس بين اهدن وأيطو كان « الريح » يمشي الهوينا بلا نشاط ولا همة فكان يكبو عند كل خطوة كأنّهُ يأسف على السلوك في تلك الطريق مع انهُ كان من قبل ذلك يعدو كالغزالة في شعاب لبنان ومسالكه الوعرة وكان بين دقيقة وأخرى يأتي من الحركات ما يدلّ على رغبتهِ في الرجوع الى بشرّاي او يرسل صهيلاً ينبئ بشكواه من الحالة التي هو فيها كما تفعل الفرس المُرضع اذا حُبس عنها فلوها

ولا ريب ان ما كان يبدو منهُ لم يكن الداعي اليهِ التعب واللغوب لانَّ الحاجب المذكور كان قد انقطع بحكم الضرورة عن الاسفار بسبب تعطل الاعمال في غياب الامير رزق الله

امَّا مالك فلم يفهم شيئاً من الدواعي الحاملة حصانهُ على تلك المشية الغير المألوفة وقد التزم مراراً ان يشدَّ لهُ اللجام وينتهرهُ تارةً بصوتهِ وتارةً بحركاتهِ

وكان هو ايضاً دون ان يعلم السبب يشعر بانزعاج بال فكان قصر

---

١) راجع كتاب الاغاني ج ١٣ ص ١١ و ج ١٥ ص ٩٦ , ١٢٢ والازرقي وابن هشام الخ

القليعة وجبل الكام بعيدين عن لبنان وكذلك الاخبار المقلقة عن جوسلين كانت قد انتشرت في كل البلاد وشاع بين اللبنانيين جميعاً انهُ قد نصب في ساحة قصره مشنقة دائمة وفي كل يوم يعلق عليها واحداً فاخذ مالك يقول في نفسهِ : انَّ جوسلين الذي اختطف الاب يوحنا واسلم دير القديسة تقلا للحريق ليس من شأنهِ ان يحترم حياة حاجب حقير نظيري

وبينما هو يُجيل هذه الافكار في ذهنهِ لاهياً بها طفر « الريح » طفرةً قويّة اعادت اليهِ انتباههُ فرأى انَّ غابة الزيتون التابعة لقرية زغرتا ما زالت بعيدةً وانهُ قد صار الى السهل على ضفّتي نهر جميل يسقي عدداً من الجنائن والبساتين بسقت فيها اشجار النخيل متمايلةً برؤوسها المرتفعة عجباً وتيهاً فوق أغراس البرتقال والتوت والزيتون. والتفت من هناك فلاحت لهُ القلعة والابراج المبنيَّة عند أسوار طرابلس وبان لهُ انهُ بعد مسيرة نصف ساعة يدرك المدينة. فتذكر وقتئذٍ وصايا الامير فشدَّ اللجام بعنف ليغيّر وجهة سيرهِ ويحمل الريح على سلوك الطريق المؤدية الى جبل عكّار غير ان الحصان أَبى لاول مرَّة طاعة فارسهِ واصرَّ على المسير في طريق طرابلس او طريق بشرَّاي فانتهرهُ مالك فلم يُجدِ الانتهارُ نفعاً فحاول استرضاءهُ بالكلام واخذ يخاطبهُ كما يخاطب رجلاً عاقلاً وهو يقول :

« ايها الريح رفيقي الامين انا عارف حقَّ معرفة انَّ السفر الى جبل الكام ليس من ذوقك كما انهُ ليس من ذوقي ايضاً. ولكن يجب ان تعلم باني لست حرًّا في ما اعمل وعليَّ ان أُطيع أوامر المقدم فآمل منك اذاً ان تسمح لي بايقافها. اذهبي يا غزالتي ولا تخشي مكروهاً

لا عليك ولا على فارسك ». قال هذا واخذ يُمِرّ يدهُ بلطف على عنق الريح

امَّا الريح فحنى عنقهُ وظهر منهُ انهُ تجلّد على ما ينفر منهُ ومشى في سهل طرابلس سالكاً الطريق الموصلة الى جبل عكار وبعد ان استراح مالك بضع ساعات في عَرْقة تغلغل في الجبل

. . . .

وكانت على سطح الجبل فوق النهر الكبير قرية اسمها فَليس وبالقرب منها فوق رابية صغيرة مشرفة على أودية عميقة قصر قديم من بناء الفرسان المعروفين بالاسبيتاريَّة قد انفصل عن فليس بخندق منقور في الصخر . وكان القصر المذكور يشبه قلعةً وديرًا معاً وهناك سور عظيم مشيَّد بقطع كبيرة من الحجارة يحيط بالاكمة الشاهقة التي قام القصر فوقها ويضمُّ ابنية ضخمةً مع كنيستين لم تزل آثارهما منظورة للان (١ وكان فوارس الاسبيتاريَّة قد زايلوا تلك الناحية من زمان مديد غير انهُ بقي على المدافن والاضرحة في كبرى الكنيستين المذكورتين حجارة كثيرة حاملة لتذكاراتهم . وكانت فليس موقعاً مهمًّا اولًا لانهُ يشرف على وادي النهر الكبير وثانياً لانهُ من جملة الطرق الموصلة من طرابلس الى حمص وحماة ولهذا توجَّهت العناية في الزمان القديم الى تحصين هذا المركز الذي جعلتهُ الطبيعة على نوع ما منيعاً لا يُرام

ولمَّا اقام الفوارس الاسبيتاريَّة في قلعة فليس وجدوا هناك مزارًا شهيرًا حاويًا احدى صور العذراء القديسة التي كان الجميع يتواردون لاكرامها

---

١) دوسو . ورحلتنا الى بلاد النصيريَّة

افواجاً من كل انحاء جبل عكّار وجبل اللكام (١ . وكان الزائرون لها من النصيريّة لا يقلّون عن زائريها من المسيحيين . فلمّا حلّ الاسبتاريّة هناك وامنت السبل بسطوتهم تزايد عدد الزائرين كثرةً وفي القرن الخامس عشر كانوا يتسابقون اليه تسابقاً غير حافلين بشيء من الحروب والحوادث التي ثار في تلك الناحية ثائرها فكنت تراهم متوافدين من جميع الاماكن وليس لهم غرض سوى زيارة « سيدة القلعة »

وكانت قلعة فليس في ذلك العهد بين يدي سيد لبناني الاصل تابع للامير رزق الله ونظرًا لقلة العناية بصيانتها اخذت تبين عليها دلائل القدميّة والعتق كسائر القلاع التي ترتقي الى زمان الصليبيين فكانت شرفات السور في كثير من المواضع قد تهدّمت وخربت واجتمعت الردوم والحجارة وغيرها من الانقاض في الخندق الفاصل للقلعة عن القرية . الّا انّ هذه القلعة مع ما اصابها من الخراب ما زالت وقتئذٍ صالحة لان تكون مركز عضد ونجدةٍ للشعب المسيحي العديد المقيم في جوارها بقرى الدبابيّة وكفرنون والرماح ومُنجز وعُزَير وغيرها (٢ فبالاعتماد عليها كان هؤلاء يردّون اعتداءات النصيريّة الذين اجبرتهم الحال على النزوح الى شمالي النهر الكبير فلمّا كانوا قبلًا اسيادًا لجبل عكّار مطلقي اليد فيه اخذوا الآن يحاولون ان يعودوا الى املاكهم القديمة في الناحية الجنوبيّة

ولنعد الآن الى اخبار مالك فنقول انهُ لمّا وصل الى قلعة فليس

---

١) المشرق ٣: ٤٥٥ ; ٥٩٩

٢) وهذه القرى مذكورة في تأليفات وسجلّات القرون المتوسطة

استقبلهُ صاحبها بغاية الهشاشــة والايناس فكان اول ما اهتمَّ بهِ مالك المذكور انهُ اخذ يستفهمهُ عن أحوال جوسلين ليعلم هل تنجح مهمّتــهُ الصعبة التي أُرسل في شأنها ام لا فاجابهُ صاحب القلعــة بما قوَّى املهُ بالنجاح قائلًا:

« لا ريب ان جوسلين لا يودُّ اصلًا ان يأتي الى بشرَّاي لكي يؤدي حسابًا عن سلوكهِ . غير انَّه لا يترَّجح في بال احد انهُ يجسر على ان يخالف جهارًا أوامر المقدم رزق الله لان حريقهُ لدير حصن سليمان صيَّر مركزهُ في القليعة حرجًا وهيَّج عليهِ المسيحيين والنصيريَّة والاسماعيليَّة ايضًا بما ان الاب يوحنَّا كان مكرمًا ومعززًا عند الجميع على اختلاف النِحَل . ومذ علم النــاس برجوع الامير رزق الله ظافرًا منصورًا أخذ اتبــاع جوسلين يتخلَّون عنهُ من تلقــاء انفسهم حتى صار اشبه بالمحصور في قصرهِ حيث لا يحرسهُ سوى زمرة من مؤتمنيهِ الذين شاركوهُ في كل ما امرهم بارتكابهِ من حوادث السلب والقتل »

— أتظنُّ انهُ يرضى بان يرافقني الى بشرَّاي

— لا استطيع تأكيد الامر . ولكني أعرف حق معرفــة ان جوسلين رجل لئيم جبان ولا اظنهُ الآن وقد اكفهرَّت عليهِ الوجوه واظلمت لهُ الدنيا يجسر على ان يلحق سوءًا برسول الامير رزق الله . ومع كل هذا فانا عامد ان أرسل معك خفرًا من الجند

— لا فائدة من هذا في مهمة سلميَّة محضة بل الاحسن ان أُسافر وحدي وسطوة مولاي وسيدي هي بعد الله تعالى افضــل واقٍ لي . واذا مضت اربعة ايام ولم اعد الى قلعة فليس فارجو منك ان تتكرَّم بتنبيــه

المقدم رزق الله وتسرج شمعتين على هيكل السيدة. والآن اودعك على امل الملتقى قريبًا فادعُ لي بالنجاح

وما كاد يتمّ هذا الكلام حتى امتطى متن «الريح». فاظهر الحصان في بادئ الامر بعض المقاومة غير انهُ ذلّ اخيرًا لفارسهِ ونزل بهِ في الشِعْب الضيق المؤدي الى النهر الكبير. وكان سيد قلعة فليس قد ارتقى الى برج وجعل يرقبهُ ببصرهِ فما مضى عليهِ نصف ساعة حتى شاهدهُ طالعًا من الناحية الثانية من الوادي وسائرًا نحو قريتي عُزَير وحالات في وجهة برج صافيتا فندم على كونهِ تركهُ يذهب وحدهُ وخاف عليهِ الشرّ لان جوسلين قد طالما برهن على لؤمهِ اذا قدر. وسنرى في الفصول التابعة اي شيء أُعدَّ لهُ في طي الغيب

١٤

حالما انتهى الى جبل اللكام خبر رجوع الامير رزق الله منتصرًا ظافرًا جدَّ صاحب قصر القليعة في مزيد تحصينهِ وتقوية استحكاماتهِ خوفًا من امر مفاجئ يأتيهِ فامر باخراج جميع ما في اقبية القصر من آلات الحرب القديمة مثل المجانيق والكبوش ومرامي النار وصفَّفها على الاسوار. ونصب في قمة آكبر مُشرف من مشارقهِ آلات مخيفة يمكن تصويبها الى الغرض كما يُصوَّب المدفع فتقذف الى مدى بعيد نبالًا طويلة وقضبانًا من الحديد المحمى وسهامًا محرقة الى غير ذلك من وسائل الهلاك (١

---

١) راجع تأليف «رَاي» في المستعمرات الشرقية

وكان قد اختُرع البارود والمدفع من زمان قريب فأدخلهما سلاطين مصر في جيشهم (١ الّا انَّ هذا الاختراع الحديث لم يكن قد وصل بعدُ الى جبل اللكام ولا كان جوسلين يعرف منهُ شيئاً الّا بالسمع والخبر. وكان قد اقام الرقباء ليلًا ونهارًا في أعلى البرج المشرف على الجسر النقّال الذي يوصل الى القلعة فكانوا يسهرون فيهِ دائماً ملاحظين كل حركة تجري وكان هو ايضاً لكثرة اهتمامهِ واشتغال بالهِ لا يفتكر بشيء من أنواع القصف واللهو والقنص التي كان يصرف فيها قبلًا معظم اوقاتهِ بل كان يدور القصر على عدد الساعات متفقداً أحوالهُ ومحرضاً المشتغلين في ترميم أسواره على مزيد النشاط في إصلاحها . وكان يراقب ايضاً ادخال المؤن والأقوات ويسهر على الخفر ويلاحظ كل شيء من كبير وصغير وبالجملة فقد كان يستعد للقيام بحصار طويل

ولا ريب ان خوفهُ من العقاب الذي كان يتوقّعهُ ويشعر بانهُ كان مستأهلًا لهُ كل الاستيهال قد بدَّل حالهُ تبديلًا تامًّا وبعد ان كان حليف خلاعة وفجور صار آيةً في النشاط والعمل حتى تعذرت معرفتهُ على رفقائهِ الذين ما كانوا يشاهدونهُ الّا والخوذة في رأسهِ والدرع على بدنهِ وهو يحرّض الفعلة على الجدّ والخفر على الانتباه والسهر

على انّ الحامية القليلة المقيمة في القليعة كرهت هذه الحال وبدأت تتشكّى من وقوفها الدائم موقف الحرب والقتال وكانت كل يوم تزيد نقصاً بالفارّين من بين صفوفها . وفي اثناء ذلك كان اهل الجيرة ايضاً يزيدون تظاهرًا بعداء جوسلين على قدر زيادة ضعفهِ وضوحاً وأخذ القوم

---

١) صبح الاعشى للقلقشندي وابن خلدون

العديدون الذين ذاقوا طعم عسفهِ ينذرون بقرب سقوطهِ ويطالبونهُ برد الاملاك التي غصبهم أياها ظلماً وعدواناً وأخذ النصيريّة والاسماعيلية يهجمون بلا تهيُّب على أراضيهِ وأملاكهِ وينهبونها أمام عينيهِ وهو عاجز عن ان ينالهم بسوء

وفي ذات يوم بينما كان جوسلين يدور حول الاسوار متفقّداً هجم عليهِ واحد من الحقر كان ساهراً في قمة برج متنحٍّ وطعنهُ بخنجرهِ طعنةً شديدة ولولا الدرع القويّة التي كان يلبسها تحت ثوبهِ لاختطف روحهُ غير مأسوف عليهِ. ولمّا سُئل الجندي عن السبب اعترف بانهُ رجل فداوي(١ ارسلهُ امير مصياد لينتقم من جوسلين على المعاملات السيئة التي انزلها هذا الاخير بالاب يوحنّا الرجل البار

ثم انّ الجندي قال لجوسلين: انك تستطيع ان تقتلني ولكن ينبغي ان تعلم ان ورائي رجالاً يأخذون بثأري فانّ عشرة من رفقائي قد اقسموا بكل محرّجة ان يحملوا رأسك الى قصر مصياد. واعلم اني لست آسفاً الّا على شيء واحدٍ اعني عجز ذراعي عن اغمـاد الخنجر في صدرك. على اني اذا كنت لم أُصِب في مهمّتي توفيقاً فلا بدّ ان يأتي غيري فينجح في ما قصّرتْ عنهُ يدي

وكان جوسلين يعرف بطش الاسماعيليّة وسطوتهم ويدري انهم اهل افعالٍ اكثر ممّا هم اهلُ كلام. فاشتدّ خوفهُ على نفسهِ حتى كانت تعرض لهُ من جرّاء ذلك عوارض من الغضب اشبه بعوارض الجنون تحمـلهُ على إصدار أوامر متناقضة ادّت الى ذهاب الصبر من صدور الذين استمرّوا

---

١) راجع المجلّة الاسيويّة والقلقشندي وابن بطوطة

حتى هذا الوقت أُمناء لهُ. فكرهوه كل الكره واصبحوا ولا همَّ لتلك الزمرة التي جمعتها جامعة الاثم والجريمة في قصر القليعة الَّا البحث عن وسائل الفرار والنجاة من هذا الطاغية

وشعر جوسلين بذلك فجزع واضطرب ورأى ان لا واسطة تردُّهم عن الانتقاض عليهِ الَّا الذهب فبذلهُ لهم وافرًا. ولا ريب انهُ لم يأْتِ بهِ من دير حصن سليمان لان السلاَّبين الذين اغراهم بنهب الدير المذكور وحريقهِ لم يجدوا فيهِ غير كنوز ادبيَّة فما اكترثوا بها. وعلى كل حال لو ان صاحب القليعة ملك خزائن قارون لما ابقى عليها زمانًا طويلًا لانهُ كما عرفتَ كان رجلًا مسرفًا خليعًا

١٥

وفي ذات مساء حضر الى القصر رجل بالي الثياب وسأل ان يبيت فيهِ ليلتهُ فانزلوهُ في احد الاقبية. ولمَّا طلع الصباح صرَّح بانهُ آتٍ من بشرَّاي وان لديه امورًا ذات بال يريد ان يطلع صاحب القليعة عليها. فما كاد يعرف بهِ جوسلين حتى استدعاهُ اليهِ في الحال وطالت المواجهة بينهما كثيرًا ولم يُعرف بالتحقيق شيء من امرها. ولكن الرجل الغريب اخذ من بعدها يتردَّد على القصر بدالَّة وحريَّة وكان اذا وافى تُفتح لهُ الابواب بمجرَّد اشارة خفيفة ويُنزَّل الجسر النقَّال لاجل مروره لانهُ كان يعرف الكلمة السريَّة التي لا يدري بها غير الخفر. وحاصل القول انَّهُ في قليل من الزمان اغتنم صداقة جوسلين وكل اميالهِ حتى كان يظهر من امر هذا الاخير انَّهُ لا يستطيع ان يستغني عنهُ

على انَّ إقبال صاحب القصر على الغريب لم ينفخ فيهِ روح الكبرياء بل كان دائماً يؤانس الكل ويلاطفهم محافظاً على حالة الابتذال التي كانت لهُ يوم وصولهِ الى القليعة . ولم يكن احد يعرف بالتأكيد هويَّة الرجل المذكور لانهُ كان اذا سُئل عن اصلهِ امتنع عن الجواب او أجاب بما لا يُستفاد منهُ شيء . واما جنود الحامية فكانوا يصفونهُ باليهودي نظرًا لذؤابتين من الشعر كانتا تنوسانِ دائماً حول صدغيهِ ثم نظرًا لانفهِ الكبير الذي هو من مميّزات الجيل اليهودي . وكان كسائر الاسرائيليين بني جنسهِ عارفاً بطرق المكاسب خبيرًا باستجرار الارباح يعضدهُ على ذلك ضمير واسع لا يعرض لهُ ادنى ارتباك في انتخاب الوسائل المؤدية الى المغانم . وكان من زمان مديد قد رأى من جوسلين فريسةً تناسبهُ فوعد نفسهُ بان يحتال عليها حتى لا يفوتهُ شيء من دسمها

وكان اليهودي نثنائيل كما لقَّبهُ الجنود قد صرَّح من اول مواجهة لصاحب قصر القليعة بانهُ آتٍ يعرض عليهِ خدماتهِ وانهُ عرف بارتباكهِ في شؤونهِ الماليَّة فجاءهُ بالوسائل الكافلة بخروجهِ من الضيق

اماَّ جوسلين فاخذهُ العجب من كرمهِ لاسيما وان الغريب احضر اليهِ في بادئ الامر من غير تردُّد كل ما يحتاج اليهِ من المبالغ الطائلة لراتب الحامية وقدَّم لهُ ايضاً هدايا كثيرة لكي يستعطف بها صداقة الرؤساء الذين في جواره او يكتسب على الاقل حيادتهم . على ان كلَّ ما تظاهر بهِ من النزاهة لم يكن مصدرهُ القلب لانهُ كان كلما اعطاهُ مبلغاً من المال لا يذهل عن تقييدهِ في دفتر معهُ

وفي ذات يوم بينما كان جوسلين يطلب منهُ دفعةً خلع نثنائيل ثوب

الاحترام الذي قد طالما حفَّ بهِ صاحب القليعة وافهمهُ بان قد حان الوقت لعمل الحساب. وفي الوقت نفسهِ اخرج من جيبهِ دفترًا وسخًا ودفعهُ الى جوسلين الذي اخذ يطالع بتمعُّن قائمة المبالغ التي استقرضها والى جانبها قيمة الفوائد الفاحشة التي ارتأى اليهودي إضافتها فوقف مبهوتًا وصرخ قائلًا :

لم يجرِ الكلام بيننا على شيء من هذا

— وهل ظننتَ انني اتسبَّب لنفسي بالخراب وضياع المال لاجل منفعتك ؟ وهل ذهلتَ اسفاري العديدة الى بشراي وجبيل حتى أُطلعك على ما هناك من الحوادث ؟ واذا كنتَ لم تؤخذ على حين غفلة فذلك بفضل ما نقلتهُ اليك من المعلومات التي توصلتُ اليها في الغالب بتعريض حياتي لاعظم الاخطار وانت تعلم ان اللبنانيين يعاملون اهل ديني بالقسوة . . . . !

— اذا كنتُ قد ارتكبتُ غلطًا فاعظم غلطي هو وثوقي بك. امَّا اليوم فقد تقطَّع كل ما بيننا من العلائق ومن الآن فصاعدًا كفَّ عن أداء خدماتك اليَّ. واماَّ ما ذكرتَ من اسفارك لاجل منفعتي فهذا هو الكذب بعينهِ لانك ما نقلت قدمًا الَّا لاجل صوالحك الخصوصية. امَّا المعلومات التي ذكرتها فكنتُ في غنًى عنها لانني اعرف الامير رزق الله حق معرفة وأعلم ان السيف سيقضي اخيرًا بيني وبينهُ . . .

ورأى نثنائيل ان الحديث زاغ عن النقطة التي يرومها فعاد الى نغمتهِ الاحترامية قائلًا :

الحقَّ أقول لحضرتك انهُ لم يخطر على بالي قطّ مخالفتك وازعاجك . . . ولكن اسأَلك ان تأْذن لي بكلمة أقولها ايضًا . هل نسيت

المذاكرات التي كلفتني باجرائها باسمك مع متاولة بلاد بعلبك ولبنان تحريضاً لهم على مهاجمة الامير رزق الله ؟ ولم تزل بيدي الرسائل التي سلّمتها اليَّ لأطلعهم عليها وهي ممهورة بخاتمك وتوقيعك وكلها محفوظة عندي بتزيد الحرص في مدينة طرابلس. ولا يخفاك اني لو اردت ضرراً بك لدفعتها الى القدم رزق الله الذي يتخذها حجّةً عليك قويّة. غير اني لا اظن ان الاحوال توصلنا الى هذا الحد. فقط ارجو من سيدي ان يتذكر دائماً انهُ لولا خدماتي النافعة لكان ملقىً اليوم في حبس بشرّاي

وكان جوسلين ضابطاً حدّتهُ حتى ذاك الوقت غير ان هذه الكلمات الاخيرة اسخطتهُ جدًا فقال :

ولكنك لست غير مُرابٍ مسكين. والظاهر انك تنسى انك في قبضتي وتحت حوزتي واستطيع ان آمر بتعذيبك حتى تذوق جزاء تهوُّرك. واعلم ان عندي من الوسائل ما يقطع لسانك قطعاً اذا همَّ بكلمة خارجة عن حدود الرصانة

— لا أجهل ذلك. بل أعلم انك ايضاً تستطيع ان تحتزَّ رأسي او بالحري رأس المرابي كما تشاء ان تدعوني. ولكني اعلم من جهة ثانية انَّ هذا التصرُّف لا يملأ صناديقك فضةً وان بعض رجالك الناقمين عليك لا يلبث ان يحمل رأسك اما الى امير مصياد واما الى القدّم رزق الله استغفاراً عن معصيتهِ. وفي هذه الليلة نفسها بينما كنتُ أدور على الاسوار سمعت حديثاً بين الخفر اطلعني على أُمور كثيرة اخصُّها انهم صاروا يكرهون الاقامة في القليعة. واذا جاء امير بشرّاي لمهاجمتك فالافضل لك ان لا تتكل الّا على نفسك. واظن ايضاً ان الفداوي الذي

اوشك ان يفتك بك تلك المرَّة لهُ أصحاب غيرهُ ايضًا من بني جلدتهِ ناوون عليك نيَّة خبيثة

على ان هـذه الكلمات الاخيرة نبَّهت جوسلين الى فظاعة مركزهِ وبدَّدت عن عقلهِ ما كان عليهِ من الغرور وكسرت حدَّتهُ في الحال فلطَّف نغمتهُ وبدلًا من الغطرسة والكبرياء انقلب يتوسَّل الى اليهودي بعد ان كان يتهدَّدهُ ثم قال:

لا اقوى على ان أسدّد دفعـةً واحدة هذه المبالغ الكبيرة مع ما يلحقها من الفائدة الفاحشة

— اني اعلم هذا ايضاً ولذلك لا اطلب منك فضةً . فقط اريد منك شيئًا زهيدًا وهو ان تضع توقيعك على هذه الورقة

قال المرابي هذا الكلام وقدَّم ورقة لجوسلين وكانت تتضمَّن تخليةً بصورة شرعيَّة عن كل الاراضي التي كانت تخصّ قبلًا دير حصن سليمان

فوقَّع جوسلين على أسفل الصك بخاتمهِ وهو يعد نفسهُ في سرّهِ بانهُ سيسترجعهُ يوماً ما من اليهودي او يعمل على ابطالهِ بطريقة أخرى. وكان يظن انَّ التوقيع لا يقيدهُ بشيء كما انَّهُ لم يتقيَّد قبلًا بشيء مما حلفهُ من الأقسام. ولا يخفى انَّ احد السياسيين كان يقول قبلًا : « انَّ النطق أعطي للانسان حتى يكتم افكارهُ » امَّا جوسلين فزاد عليهِ راغباً في ان تقوم لهُ الكتابة ايضاً بهذه الخدمة التي ترضيهِ

امَّا اليهودي فلما فاز بمرامهِ انحنى أمام جوسلين قائلًا : ان الحساب الجيد هو من دلائل الصداقة المخلصة وعليهِ فاني برغبة عظيمة اشتهي مواصلة الخدم التي قمت بها حتى الآن وتأييدًا لذلك ها انا ذاهب في هذا المساء

نفسـهِ الى طرابلس (١ لآتي بما يلزم من المال لدفع المتأخر من رواتب الحامية . وفي املي ايضاً اني أتمكّن من الاطلاع على حركات القدم

رزق الله

ثم انهُ حنى رأسهُ احتراماً وسافر . امّا جوسلين فلمّا خلا الى نفسهِ فهم انهُ ارتكب غلطاً جسيماً بسماحهِ لليهودي في الذهاب . وكان المذكور قد بعد عن القليعة ولم يعــد في الوسع ادراكهُ

١٦

وكانت الهاجرة قد قربت فاشتدَّت حرارة الشمس وارسلت أشعتها المحرقة على تلك الصخور الرماديَّة التي فوقها انتصب قصر القليعة وكان جوسلين قد خلع لأمَتَهُ ليجلس على الطعام فوافاهُ العــيَن اي الرقيب المكلَّف برصد الحوادث من قمة برج القلعة وأعلمهُ انهُ شاهد خيّالاً مقبلاً على فرس صغير اسود اللون وهو يرتقي بخلوّ بال في الشِّعْب المؤدي الى الجسر النقَّال ويظهر من هيــأة ملابسهِ انهُ لبناني ولكنهُ قصير القامة مشوَّه الخلقة والبادي من حالهِ يدلُّ على انهُ أعزلُ لا يحمــل سلاحاً . فامرهُ جوسلين بانزال الجسر وإدخال الرجل المجهول

على ان الخيال ما كاد يترجَّل في فناء القصر حتى صرَّح بانهُ آتٍ من قِبل الامير رزق الله وطلب في الحال مواجهة صاحب القليعة فدخل الحرس واعلموا جوسلين برغبتهِ فبادر اليهِ خلافاً لعاداتهِ السابقــة لان

---

١) عن اليهود المقيمين في طرابلس راجع البلاذري (ص ١٦٧)

الاحوال كانت قد حالت والازمنة قد تغيَّرت وما عاد يمكنهُ ان يتوعَّد الزائرين الذين يزعجونهُ باطلاق كلابهِ عليهم لتنهشهم. ولم يكتفِ بذلك بل نزل ايضاً الى فناء القصر لمقابلة الخيَّال المجهول الذي طلب مخاطبتهُ في شؤون هامَّة مستعجلة .

ولا حاجة الى ان نبيّن للقارئ من هو هـذا الرجل المجهول لانهُ علم من سياق الحديث انَّهُ مالك حاجب رزق الله في بشرَّاي ومُرسَلهُ الى جوسلاين. فلما اجتمع بصاحب القليعة صرَّح لهُ بالقابهِ ووظائفهِ عند مقدَّم بشراي ثم دفع اليهِ ورقة على وجهها خاتم الامير رزق الله وشعارهُ فتناولها جوسلاين وبعد ان أجال النظر فيها ظهرت على محياه ابتسامة ما كان امرَّها ثم التفت الى الجنود المحيطين بهِ وقال بتهكُّم:

ان امير بشراي مولانا وسيدنا المرهوب ما زال يفتكر بنا وقد أراد ان يولينا شرفاً وسيماً فدعانا الى مواجهتهِ في محل إقامتهِ بلبنان

ثم التفت الى مالك خاصَّةً وقال: تقول لهُ اننا سنلبّي هذه الدعوة في اليوم والساعة اللذين نختـارهما نحن. هذا هو الجواب الذي تستطيع ان تردّهُ لمن ارسلك الينا

وكانت هذه الكلمات تتضمن تحت طي التهكُّم رفضاً صريحاً لطاعة اوامر المقدَّم وقد فهم مالك كل ما تعنيهِ غير انهُ لمَّا تذكر وصية مولاهُ الذي امرهُ ان يعود بجوسلاين إمَّا حيًّا واما ميتاً رأى من الواجب ان يستدعي منهُ تكرار التنبيه على صاحب القليعة ولم يكن يجهل ما دون ذلك من الاخطار على حياتهِ ولو فُرض انهُ جهلها لأخطرها على بالهِ وجودهُ في تلك القلعة المنيعـة ما بين قوم أشرار اهون ما عندهم سفك الدماء. ولكنهُ كان من الذين لا تهولهم المصاعب فعقد العزم على توفية حق المهمة

التي أرسل فيها ومتابعتها حتى نهايتها ثم خاطب جوسلين بقولهِ :

أهذا آخر جواب من جنابك ؟

— هذا الجواب الاخير بلا مراء فافضل شيء لك والحالة هذه ان تعود من حيث اتيت لاني اشعر بان صبري قد فرغ ولا اعلم اي شيء يردّني عن معاقبة هذه الجسارة العادية من خادم حقير مثلك. فبناء عليهِ يجب ان تحسب نفسك سعيدًا بسكوتي عنك وترخيصي لك بالسفر

غير انَّ مالكًا لم يُرهبهُ هذا الكلام مع ما فيهِ من الوعيد الظاهر بل قال :

اني مكلَّف بان لا اسافر من القليعة الّا في صحبة جنابك. هكذا امرني بصريح المقال سيدي ومولاي المقدَّم رزق الله. وهو يرجو منك ان لا تحوجهُ الى استعمال وسائط أخرى عنيفة ولكنك اذا خيَّبت رجاءهُ يضطر الى العمل بما لا تحب. فتبصَّر اذًا ايها السيد جوسلين واختر لنفسك ما يحلو امَّا ان تذهب الى بشراي وتبرّئ نفسك ممَّا يُسند اليك امام الامير رزق الله مقدَّم لبنان وامَّا ان تؤخذ قهرًا وعنوةً من قصرك هذا. وانت ادرى بما للمعصية والثورة من العواقب الوخيمة وكفاك زاجرًا عنهما ما حلَّ بمقدَّم ايطو فانهُ قد شُنق على اطلال البرج الذي ابتناهُ جزاء جسارتهِ على مخالفة مولاي وتمنّعهِ عن الذهاب الى بشراي بغية استجوابهِ عن التهم التي نُسبت اليهِ

فما سمع جوسلين هذه الكلمات حتى كاد يتمزَّق من الغيظ فانقلبت سحنتهُ وجحظت عيناهُ واندعر منهُ اتباعهُ مع انهم كانوا قد اعتادوا مشاهدتهُ في مثل هذه الحال ثم انهُ التفت الى مالك قائلًا :

كيف تجسر على تهديدي في قصري بحضور اعواني وجندي ؟ ألا

تدري ايها الشقي انك قد سعيت الى حتفك بظلفك : نعم اني لا اعلم بما يعدهُ لي المستقبل في مطاوي اسراره ولكنهُ اذا كان لا بد ان تنتهي حياتي بالشنق فالواجب ان تعلم انك ستسبقني اليه واذا كنت اول من تجرأ على مخاطبتي بمثل هذه التهديدات فثق بانك ستكون الاخير

وكانت في فناء القصر مشنقة منصوبة على الدوام لان جوسلين لم يبقَ لديه غير وسائل الارهاب للمحافظة على بقيَّة الترتيب والنظام ما بين مؤتمنيه وشركائهِ في جرائمهِ . ولم يكن يستطيع الاعتماد على فضة اليهودي نثانيل الذي من حين سفرهِ قطع اخباره بالتمام والكمال . وكان قبل بضعة ايام قد شنق جنديًّا متهماً بكونهِ حاول الفرار وترك جثتهُ معلقةً تذكيرا الحامية القليعة بان مولاهم لا يتساهل ولا يلين في الامور المتعلّقة بخدمته

وبموجب اشارة من جوسلين تقدَّم عدد من الجنود المتسلحين فاحاطوا بمالك ووضعوا في عنقهِ حبلًا وباشارة ثانية منهُ ايضاً علقوهُ في المشنقة ففاضت روحهُ سريعاً ولحق بالجندي السابق ذكرهُ المتهم بالفرار وهكذا اصبح في مشنقة القليعة جثتان . ومع ان جنود جوسلين كانوا قد تعوَّدوا رؤية هذه المشاهد وتربَّوا على عدم اعتبار الحياة البشريَّة بشيء لم يقووا على عدم التأثر من هذا الصنيع البربري فاقاموا في اماكنهم مبهوتين كأنهم تسمَّروا بها تسميرًا . وبينما هم على هذه الحال سمعوا ضجةً عظيمة لان « الريح » الذي هو حصان مالك كان قد توصَّل الى قطع القيود التي ربط بها في حلقة من الحديد مغروسة في السور فسار بسرعة عظيمة الى الباب الذي كان قد أُبقي مفتوحاً وغاب عن الابصار في الطريق المؤدية الى جهة حصن سليمان

غير انهُ لم يحفل احد بما اظهرهُ الريح اولًا لان الحصان المذكور كان ذا منظر ضئيل فلم يكن احد ليطمع في امتلاكهِ وهب انهم طمعوا فيهِ ما كانوا ليدركوهُ لانهُ في دقائق قليلة قطع مسافة شاسعة فات فيها جهد اللاحقين

وفي مساء النهار قبل مغيب الشمس حُفرت حفرة عميقة تحت الشنقة ودفنت فيها جثة مالك واقام جوسلين ينظر اليها مدّة بضع دقائق وهو يتبسّم تبسُّم المتشفي ثم قال :

الآن يستطيع المقدم ان ينظر بصبر وتؤدة رجوع حاجبهِ وكيف يردُّ القبر زائره وكيف يتكلم الاموات . نصبتَ لي يا رزق الله فخًا فاحبطتُ خديعتك فانا الآن على حذر ولسوف نعلم من ترجح بيده كفّة الميزان

١٧

ولنعد الى الكلام عن بشراي فنقول انَّ القوم فيها كانوا حتى ذاك الوقت يقيمون الاعياد فرحين بعودة المقدم رزق الله ظافرًا منصورًا وجميعهم أَلسنة ناطقة بحمدهِ لانهُ أَبعد عن لبنان جائحة الحرب وكان الفلاح يتوقّع بمسرةٍ نموّ زرعهِ دون ان يخشى عليهِ هجوم عدوّ والامهات تعتني بتربية اطفالهنَّ في سلام وسكينة بلا خوف من تعكُّر كأس صفائهنَّ وعليهِ فان تلك الاشهر القليلة التي اظهر فيها المقدم حكمةً وثباتًا في التدبير كانت كافية لاحداث الثقة في كل محل وتأكيد الخصب والسلام في تلك الجبال الجميلة وقد نال هذه الثمرة بوساطة جاشهِ

وبالعقوبات الزاجرة التي انزلها بمن كانوا سبباً في اقلاق الراحة العمومية

ولمّا كان يوم الاحد جلس الامير رزق الله بحسب عادته الحميدة تحت السنديانة النابتة الى جانب الكنيسة الكبرى وجلس الى جانبه فرا غريفون الذي كان قد عاد حديثاً من سفرته الى اوربّة فاقبل القدم يسألهُ عن رومية وعن الامراء الذين زارهم في جهات الغرب فجعل الراهب الفرنسيسي يقصّ عليهِ كيف انهُ لمّا كان في رومية وفد تجار من البندقية حاملين رسالةً من عزيز مصر الى الحبر الاعظم وكانت مكتوبة على نصف طلحيَّة كبيرة وفي صدرها اعلام السلطان تليه العبارة الآتية: « ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة السامية الباب الجليل القديس الروحاني الخاشع العامل بابا رومية عظيم الملّة المسيحيَّة قدوة الطائفة العيسويَّة مملّك ملوك النصرانيَّة حافظ البحور والخلجان ملاذ البطاركة والقسوس والرهبان تالي الانجيل معرّف طائفته التحريم والتحليل صديق الملوك والسلاطين » (١. وبعد الدعاء هذه الكلمات « صدرت هذه المكاتبة عن الابواب الشريفة » وعلى اثر ذلك بسط الغرض المقصود مؤكداً لقداسة الحبر الاعظم انهُ ينصر المسيحيين الافرنج في بلادهِ ويعطيهم ملء الحرّية في ممارسة شعائر ديانتهم وتجارتهم. ثم تشكّى من اعمال اللصوصية البحريَّة التي كان يأتيها بعض القرصان الجنويين وسأل البابا ان يتوسَّط في المسألة منعاً لمثل هذه الحوادث

ولم يكن في رومية اذ ذاك من يعرف العربية سوى فرا غريفون فترجم الرسالة وعند عودتهِ الى الشرق اعطاهُ البابا جوابها الى سلطان مصر

---

١) عن صبح الاعشى للقلقشندي بحروفهِ ج ٤ ص ١٦٤

ثمَّ ان فرا غريفون قصَّ ايضاً على المقدّم رزق الله مواجهتــه لدوق بورغوندية اميره الذي قابلهُ بما لا مزيد عليهِ من التجلَّة والاكرام في مدينة بروج قاعدة مملكتهِ . وكان الدوق المشار اليــهِ اقدر واغنى سلاطين اوربَّة لذاك العهد وكانت ولايته شاملة لبلجكة وهولندة وعدَّة أقاليم أخرى في شمالي فرنسة . وكان يهتم ايضاً بشؤون الشرق واحوالهِ لسببين اولهما ديني وهو احترامهُ للارض التي تقدَّست بحياة المخلّص والثــاني سياسي وهو رغبتهُ في توسيـع العلائق التجاريَّة لممالكهِ مع هذه الجهات (١

ولمَّا شاهد فرا غريفون الذي كان من جملة رعاياه خبيرًا بالأحوال التي يريد استيضاحها سُرَّ بهِ كثيرًا وأكرمهُ جدًّا وكان يفتكر وقتــئذٍ في عقد محالفــة مع ملك العجم فلهذا لما قابلهُ مقابــلة الوداع صرَّح لهُ بأنهُ قد اختارهُ سفيرًا من قبلهِ لدى بلاط اصفهان (٢

وكان المقــدَّم رزق الله يسمع حديث غريفون بشوق ولذة فلما دار الكلام على دوق بورغوندية قاطعهُ قائلًا :

انَّ سيدي الاب يوحنا رئيس دير القديسة تقلا كثيرًا ما كان يحكي لي عن الدوق فيليب الملقَّب بالصالح فهل هو حيٌّ للآن ؟

— أعطاك الله عمره وقد خلفهُ ولدهُ يوحنا فلقبــهُ الشعب بالجسور لشجاعتهِ . غير انَّ الاسم الذي ذكرتهُ ايها الامير فطَّنني الى مهمَّة خطيرة كُلّفت بابلاغها اليك فقد كنَّا نظنّ جميعًا ان الاب يوحنَّا البــار ينتمي الى أسرةٍ شريفة في المغرب ففي سفرتي هذه وجدت انَّ ظنَّنا في محلّهِ لان

---

١) راجع بارنت : تاريخ دوقات بورغندية

٢) بارنت

الاب المذكور هو من انسباء دوق بورغوندية حتى انَّ الدوق يوحنا بعينهِ سألني عن اخبارهِ فلم استطع ان اذكر لهُ سوى معلومات يسيرة مبهمة لاني كنت اجهل كلَّ الجهل ما جرى لهُ في غيابي

— ليطمئن بالك يا أبي من قبلهِ لانَّ حاجبي مالك قد سافر منذ اسبوع الى جبل اللكّام. وهو رجل صلب لا تعوقهُ الاخطار مهما كانت عن تنفيذ ما أُكلفهُ بهِ من المهمَّات وانا الآن انتظر رجوعهُ من يوم الى آخر بذهاب صبر . . . !

وما كاد يتمم هذهِ الكلمات حتى شاهد حصانًا راكضًا فأتى ووقف تجاه الجماعة المحيطين بالامير والاب غريفون فعرفهُ الكل وقالوا « هذا الريح هذا حصان مالك »

وكان « الريح » في اشنع حال يرتجف رعدةً وقد خرج الزبد من فمهِ وتصبَّب العرق من بدنهِ وغطَّى الغبار ثوبهُ الاسود. وكان عليهِ سرجهُ ولجامهُ مع خُرجٍ متدلٍّ على خاصرتيهِ كان مالك يتَّخذهُ دائمًا في اسفارهِ

وقد تعجَّب الامير رزق الله من قدوم الحصان بلا فارسهِ واخذ يستخبر عن مالك هل رجع من سفرهِ ولكنهُ مع التفتيش والفحص البليغ لم يعرف لهُ خبرًا اذ لم يرَهُ احدٌ راجعًا لا في بشرّاي ولا في اهدن ولا في أيطو ولا في داريّا ولا في زغرتا ولا في غيرها من الاماكن التي على طريق طرابلس. فحينئذٍ امر بان يُفتح خرجهُ فشاهد فيهِ كل أمتعتهِ ما عدا الامر الذى وجَّههُ لجوسلين. فترجَّح عندهُ ان جوسلين تجرأ على قتلهِ او في الاقل على سجنهِ لانهُ كان يعرف المذكور حقَّ معرفة ويعلم لؤم

طباعهِ ويقدّر انّهُ لا يحجم عن ضمّ هذه الجريمة الاخيرة الى سائر مساوئه السابقة

وكان الريح يأتي بحركات غريبة استلفتت اليها الابصار واستدعت مشاهديها الى التأمل والافتكار. وذلك ان الحصان الذي لم يكن احد من قبل يستطيع ركوبهُ ألانَ تلك الطباع الجافية بحيث كان يمكّن من ظهرهِ كل من اراد دون مقاومة وكثيرًا ما كان يصهل صهيلًا ينبئ بشكواهُ ويخفض رأسهُ حزينًا كأنهُ يبكي فراق رفيق حتى كان يتوهم مشاهدوهُ في بعض الاحيان ان دموعًا تجول في عينيهِ

واذ ذاك عزم المقدم رزق الله على الذهاب بنفسهِ للتحقيق وانزال العقوبة بتابعهِ المتمرد اذا اقتضت الحال. وفي اليوم نفسهِ ارسل الاوامر الى الجنود في بشرّاي وما حواليها بان يستعدوا للسفر من غد اليوم التالي الى جهة غير معلومة وان يحملوا من الزاد ما يكفيهم اسبوعين

امّا فرا غريفون فاحبَّ مرافقة هذه الحملة لغرضين اولهما ان يقدم للجنود ما ربّما الجأت اليهِ الحاجة من المساعدات الدينية والثاني ان يشاهد صديقهُ القديم الاب يوحنّا رئيس دير القديسة تقلا . وكان « الريح » قد انهكهُ التعب فابقوهُ في بشرّاي في اصطبلات الامير. ورغبةً في كتم سرّ الحملة على جواسيس جوسلين وانصارهِ اتخذوا كل ما يمكن من اسباب الاحتياط فجازوا بلاد الجبة وجبل عكّار مارّين على القبيات ومقام الرب (١ ومنجز حتى وصلوا الى قلعة فليس في اقل من يوم فاستراحوا هناك قليلًا . وكان الامير رزق الله يستخبر عن مالك فكان

---

١) هو اطلال هيكل قديم بالقرب من منجز

كل من في الناحيـــة يقولون انهم رأوهُ ذاهباً ولكنهم لم يروهُ راجعاً. ثم ان جنود صاحب قلعة فليس انضمَّت الى جنود المقدم وزحف الفريقـــان يريدان القليعة

فلمَّا كان سحر اليوم التالي استيقظت حامية القليعـــة مذعورةً من اصوات أبواق الحرب وتراكضت وفي مقدَّمتهـــا جوسلين لمشاهدة ما عسى ان يكون. فشاهدت عدداً غير قليل من الفوارس مقبلين على طريق حصن سليمان غير انهم لمَّا جازوا العين المعروفة بعين الباردة ووصلوا الى المضيق المؤدي الى عين الشمس ارتدُّوا جميعاً الى اليسار وساروا الى ناحية التليمة. وكان الامير رزق الله لابساً لأمتـــهُ والخوذة في رأسهِ وهو سائر في مقدَّمة الكتيبة المتألفة من رجال منتخبـــين مسلَّحين جميعاً بالرماح والأقواس حسب عادة المقاتلة بلبنان في ذالك العصر. وكان قد انضمَّ اليهم في الطريق عدد غير قليل من اهالي بلاد عكَّار

وكان وراء الخيَّالة المذكورين ما بين امتعة الجنود وخيامها صفٌّ من الجمال تحمل المواد اللازمة لبناء الكبوش والمجانيق وسائر آلات الحصار. وفي آخر الموكب كلهِ فرقة من صانعي الألغام وحملة البلطات (بلطجية) من اهالي حلب الذين كانوا مشهورين في كل الشرق بمهارتهم في صنيع الألغام (١

وكان جوسلين يرصد من اعلى مرقب في القليعة كل هذه القوَّة التي لم يكن ليخفى عليهِ القصد من زحفها وقد اقلق بالهُ على الخصوص ما رآهُ محمولًا على ظهور الجمال من الانابيب الحديديَّة الطويلة وبما انهُ لم يعرف

---

١) راجع راي: المستعمرات الافرنجية في سورية

المقصود منهـا التفت الى احد جنودهِ الذي كان قد خدم مدة طويلة في عسكر سلطان مصر وسألهُ عنها فاجابهُ الجندي قائلًا :

« ان هذه الانابيب التي تراها هي مدافع تستعمـل لقذف النفط. ومنها انواع كثيرة فبعضها يقذف صواريخ عظيمة (هي قنابل من الورق محشوَّة بالبـارود) تقوى على احراق القـلاع. وغيرها يقذف كرات من الحديد تختلف زنتها بين عشرة ومئة من الارطال المصريَّة. والمدافع التي رأيتها في مصر هي اكبر من هذه بكثير منها واحدٌ في الاسكندرية مُنطَّق كلهُ بالحديد قذف من الميدان كرةً كبيرة حمراء وقعت في بحر السلسـلة بخارج الباب البحري (١) ». امَّا جوسلين فبعد ان سمع هذه الايضاحات لم يطلب عليها مزيدًا ولكن لاحت على وجههِ امائر القلق والانزعاج

وكان في الحقيقة يتوقَّع زيارة الامير رزق الله غير انهُ لم يكن يحسب انهُ يفد عليهِ بمثل هذه السرعـة. فاضطربت افكارهُ وخطر لهُ في بادئ الامر ان يتحصَّن في قلعتـهِ لكنَّهُ بعد التأمل رأى ان ذلك لا يجـديه نفعًا وانهُ لا يقوى على الثبات مدَّة طويلة اذا ما حاصرهُ الاهالي الذين كانوا قد سئموا ظلمهُ وعدوانهُ وعضدتهم جنود المقـدم مولاه. ومن ثمَّ عدل عن المقاومة الصريحـة وآثر الحيلة والخديعة اللتين كانتـا سلاحهُ المألوف وعزم على استعمالهما هذه المرَّة ايضًا

ولم يكن ما عدا الجنود المتلطخين بالجريمة كرئيسهم من شاهدٍ على مقتل مالك. فعزم جوسلين على ان يتظاهر بالجهـل وانكار كل ما يُنسب اليهِ. ثم انهُ امر الجنود فانزلوا الجسر النقَّال وفتحـوا البوَّابة

---

(١) القلقشندي

الكبيرة واقاموا يستعدون في عرصة القصر الداخليَّة لاستقبال الامير رزق الله بالتكريمات العسكريَّة

١٨

ثمَّ ان موكب الامير جاز الجسر النقَّال ناشرًا اعلامهُ ورايانهِ واصطفَّ العسكر المتأهب للقتال في ساحة القصر الداخليَّة التي اكتظَّت في يسير من الزمان بالجنود والخيل وآلات الحرب. وبحسب اوامر المقدم رزق الله انفصل قسم من رجالهِ لحراسة مدخل الجسر السابق ذكره. واما باب القصر فأُبقي مفتوحاً والجسر النقال متزلًا محافظةً على دوام الاتصال بين الامير وسائر عساكره التي بقيت في خارج القلعة

وبعد ان رتَّب الامير بنفسهِ كل هذه الامور الاحتياطيَّة دخل القصر راكبًا وما كاد يترجَّل حتى خاطب جوسلين بقولهِ :

لا ريب ان قدومي اليوم من شأنهِ ان يذهلك يا سيد القليعة

فأَجاب جوسلين وهو حانٍ رأسهُ احتراماً والابتسام يعلو أسرَّتهُ تكلُّفاً : لقد اذهلني كثيرًا يا سيدي الامير لاني بالحقيقة ما كنتُ اتوقَّع هذا الشرف الوسيم الذي ما عوَّدتناهُ من قبل

— ألم يكن من شيء يدلُّك عليهِ ؟

— كلاَّ يا سيدي الامير لان اتباعك في جبل اللكَّام كانوا يظنون انك ما زلت متشاغلًا بقتال العربان في البقاع

— حقًّا لو كان الله اصاخ لادعيتك لما عدتُ اصلًا من البقاع. ويا ليتك اكتفيت بالادعية فقط ولم تضف اليها الاعمال والمساعي

امّا جوسلين فتظاهر انّهُ لم يفهم شيئاً من مدلول هـذه الكلمات الاخيرة ولذلك اراد الامير رزق الله ان يزيد كلامهُ ايضاحاً فقال:

أتعرف عربان ومتاولة البقاع ونصيريّة الضنية ؟

— نعم اعرف انهم اعداء بلادي ومتبوعي وهذا غاية ما اعلم من امرهم

— كيف ذلك والكل يؤكدون ان المواصلات بينك وبينهم متتابعة ؟

فأجاب جوسلين دون اضطراب بقولهِ :

نعم ان لي معهم علائق اضطراريّة لا غير ولولاها لكان يتوالى اذاهم على رعاياي

— لا اقول ان لك معهم علائق ولائيّة تقصد منها كفّ تعدياتهم بل انّك متواطئ معهم

— لا اشك ان قوماً من المفسدين هم الذين ابلغوا الى سعادتك أموراً غير صحيحة قاصدين تكدير صفو خاطرك على خادمك الامين

— لا تذكر الامانة فقد علّمتنا سيرتك الماضية منزلتك منها وقل لي الآن بايّ ضمير — ان كان لك ضمير — اغتنمتَ فرصة العفو الكريم الذي خوّلتك اياه اجابةً لشفاعة الاب يوحنّا فسطوت على ديرهِ واحرقتهُ وابعدت الاب المذكور الى منفى يقضي فيهِ حياتهُ بالعذاب ؟

— لا صحّة لشيء من هذا كلهِ وانما اقترف هذه الجريمة بعض الشذّاذ من البدو ولم ندرِ بها الّا بعد وقوعها بزمان فما كان في الامكان منعها . ولا ريب عندي في عدلك واستقامتك فهل يليق بك ان تعاقب البريء بجريرة المذنب

— وكم ارسلتُ اليك من الاوامر طالباً حضورك فما رددت عليها جواباً. وقد بعثت بآخر امر مع خادمي مالك ولا بدَّ ان يكون قد انتهى اليك

— هذا اول خبر اسمعهُ لانهُ لم يأتني احد من قبلك على سبيل الاطلاق. على ان الطرق في جبل اللكّام غير مأمونة ولو كانت سعادتك تشرّفنا بزيارتنا مرة بعد اخرى لتأكدت ان لنا نحن عبيدها المخلصين فضلًا عظيماً في الاقامة بهذه الجهات. ولعلَّ الاسماعيليَّة النازلين في مصياد او الرصافة ونصيريَّة برج مقصور يعلمون شيئاً من اخبار الخادم الذي ارسلتهُ الى هنا لان جماعاتهم المتسلحة لا تزال تتجوَّل دائماً في هذه النواحي وكلهم اعداء للمسيحيين فلا يبعد ان يفتكوا بخيَّال سائر وحدهُ ثمَّ لا يخفاك ان النصيريَّة بعد ان طُردوا من بلاد البترون والجهات الاخيرة التي كانوا يحتلُّونها في جبل لبنان (١ اصبحوا يبغضون اللبنانيين بغضاً عظيماً ولاجل تأصل البغضة وتمكينها في قلوبهم تراهم في كل حفلاتهم واجتماعاتهم الدينيَّة يلعنون القديس يوحنَّا مارون(٢ . واظنُّ كل الظن انَّ مالكاً ذهب بايديهم ضحيَّة عن قومهِ. وحوادث القتل تقع كل يوم ولحظة في هذه الجهات فاذا كانت الاحوال سيئة عندنا فما نحن بمسؤولين عنها بل اننا اول من يشكو منها

— اعلم ان كثيرين شاهدوا مالكاً قد مرَّ في قلعة قَليس وحالات وبرج صافيتا وحصن سليمان وغير ذلك من الاماكن التي على الطريق ولم تختفِ آثاره الّا بعد وصولهِ الى قصرك فكيف تشرح هذا ؟

---

١) ابو الفداء والدمشقي وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى
٢) الباكورة السليمانيَّة (ص ٤٥)

— لا اعرف شيئاً بل اؤكد لك ثانيةً انهُ لم يأتِ الى هنا احد من قبلك. واذا شئت فاسأل جميع هؤلاء الناس الذين يقيمون عندي وفتش جميع مخابئ القلعة وانا اول من يعاونك على التحقيق ولا ريب عندي انهُ سيثبت لك براءتي من كل تهمة باطلة

ثمَّ ان جوسلين اخرج مجموعة من المفاتيح وتهيأ للمسير فتبعهُ الامير رزق الله مصحوباً بعدد من رجالهِ حاملين المشاعل وفحص بكل تدقيق كل ما هناك من المخابئ فلم يعثر على شيء.. وكانت المخابئ المذكورة مصنوعة في داخل الاسوار الضخمة على شكل لا ينبئ ظاهرهُ بوجود شيء منها

ثم انهم نزلوا الى الاقبية المنقورة في جوانب الجبل بعضها لخزن الاسلحة والأقوات والبعض الآخر للسجون. فلم يجد الامير في الاقبية المذكورة الّا اشخاصاً قلائل من الفلاحين كان جوسلين قد زجّهم في الحبس مقيدين بالسلاسل لغير ذنب يوجب ذلك. وكان في جملتهم الراعي عبد الله الذي مرّت عليك حكايتهُ. فامر المقدم رزق الله حالًا باطلاق سراحهِ واقبل على تتمّة البحث والتفتيش غير انهُ لم يتصل الى مرامهِ

وكان جوسلين يتظاهر بالمسرَّة والابتهاج مدَّعياً بظهور براءتهِ ممَّا قذف بهِ ولكن الامير رزق الله لم يقتنع بذلك وظلَّ قلقاً ثم التفت الى جوسلين

— اكرّر عليك القول بان كثيرين من القوم الصادقين اكدوا لي انَّ مالكاً دخل قصرك فعليك اذاً ان تؤدي لي حساباً عن كل ما جرى لهُ من ساعة ولوجهِ الى هذا المكان. فاذا كنت ترجو مني عفواً فاعلم ان أقرب وسيلة للعفو هي ان تعترف لي بكل شيء... فتأمل

١٩

وهمَّ جوسلين ان يردَّ جوابًا يبرّئ بهِ نفسهُ غير ان الضجّة التي علت في القصر وقتئذٍ حوّلت عنهُ الاسماع وكان انَّ حصانًا اسود اللون ضئيلًا دخل من البوّابة محضرًا وقد وقف شعر عنقهِ وخرج الزبد من فمهِ وغطى العرق والغبار بدنهُ فحالما شاهدهُ رجال الامير رزق الله صرخوا بصوت واحد قائلين « هذا هو الريح »

واخذوا يتساءلون متعجبين كيف استطاع ان يلحق بهم لانهم عند مبارحتهم بشرّاي كانوا قد تركوهُ مربوطًا في اصطبلات الامير وفي اثناء سفرهم لم يلمحهُ احد منهم

امَّا « الريح » فانهُ سار توًّا الى المشنقة واخذ يصهل بشدَّةٍ ويحمحم بنغمة مخصوصة تدلّ على شكواهُ. ثم انهُ علق يشمّ الارض واقبل يحفرها بسنبكهِ. وكان الكل ينظرون اليهِ ويتعجبون من حركاتهِ الغير الاعتيادية غير انهُ لم يخفَ شيء من ذلك على جوسلين الذي مذ شاهد الحصان يفحص الارض دبّت الرعدة في كل اعضائهِ

امَّا الامير رزق الله فكان ينظر الى المجرم ويراقب جميع حركاتهِ فامر ان يُصفد بالاغلال وان تُحفر الارض التي وقف عليها الحصان. فما كادوا يضربونها بالمعول بعض ضربات حتى بان ان التراب مقلوب حديثًا ثم بانت جثة دبّت فيها عوامل الفساد وكان مشهدها يدل على انها أُودعت القبر من نحو ثمانية ايام على الكثير. ولدى التأمل في الوجه الذي كان حتى ذاك الوقت غير متنكرٍ ولا مشوّه ظهر انهُ وجه مالك بعينهِ حاجب

الامير وكان عنقهُ محوطاً بخط ازرق كبير ولسانهُ خارجاً من فمهِ بشكل فظيع يدل دلالة بيّنة على نوعيَّة الموت الذي ذاقهُ . امَّا جوسلين فقد حاول الانكار حتى بعد ظهور الجثة ولكنهُ ما لبث ان فقد الجلَد وداخلهُ الاضطرب واتى في كلامهِ بالمتناقضات

ومع وضوح الجريمة وثبوتها حاول الامير رزق الله ان يحمل جوسلين على الاقرار بها والندامة عليها فلم يستفد من ذلك شيئاً فحينئذٍ أخرج من جيبهِ رزمةً من الاوراق واراها ايَّاهُ قائلاً :

هذه ادلَّة لا تستطيع انكارها شاهدة على خيانتك فقد اردت ان تبيع لبنان الى اعدائنا نصيريَّة عكّار والضنّية والمتاولة وعرب البقاع . انظر الى هذه التحارير أليست هي من خطك . تمعَّن في هذا التوقيع أليس هو ختمك بعينهِ ؟

فلم يُحرِ جوسلين جواباً امَّا الامير رزق الله فاتمَّ كلامهُ قائلاً :

اي شيء تقضي شرائعنا على الخائن ؟

« الموت الموت . الموت للخائن . لا رحمة لقاتل مالك ومضطهد الاب يوحنا ومحرق دير حصن سليمان » . هكذا هتف جميع الجنود اللبنانيين بصوت واحد

فلمَّا ركن الحضور الى الهدوّ عاد الامير رزق الله وخاطب جوسلين قائلاً :

هل لك ما تعترض بهِ يا جوسلين على هذه الشكايات والبيّنات الواضحة . أتؤثر السكوت ولا تعلم ان السكوت كالاقرار . . . فليجرِ العدل

واذ ذاك سُمع صوت هاتف يقول : « وانا اطلب العدل ايضاً »

فالتفت الكل الى جهة الصوت فشاهدوا رجلًا يحاول ان يشقّ صفوف الجند حتى يتصل الى مجلس الامير وكان الرجل المذكور هو عين ذاك اليهودي المرابي الذي تقدّم الخبر عن مغادرته بغتةً لقصر القليعة قبل وصول مالك اليها ببضعة ايام . وكان قذر الملابس شنيع الصورة فحالما مثل بحضرة الامير صرخ قائلًا :

اني آتٍ من بشراي التي ذهبت اليها لكي أُطلعك على خيانة جوسلين وجرائمه بالادلة والبينات الساطعة التي لا تقبل ردًّا . ولا ريب انك تكافئني على هذا الاخلاص بان لا تضيع عليَّ شيئًا من حقوقي

قال هذا ومدَّ يدهُ الى جيبهِ ولمزيد عجلتهِ أخرج دفترًا كان قد قيَّد فيهِ المبالغ المختلفة التي أقرضها الى جوسلين وهي التي سوَّلت لهذا الاخير تماديهُ في معصية مولاهُ

فلمَّا أجال الامير فيهِ نظرهُ ظهرت على وجههِ امائر الغضب لانهُ لمَّا قلب الصفحة الثانية من الدفتر قرأ فيها ما نصهُ : « براطيل الى خدَم الامير رزق الله لاجل استكشاف بعض الاسرار منهم . . . كلفة السفر الى جبيل لاجل مذاكرة مقدميها في الاتفاق مع جوسلين . . . »

— يا لك من شقي . باي جرأة استعملتَ فضَّتك تسعيرًا لنيران الثورة . وباي وقاحة سعيتَ في افساد رجالي وبثّ روح المعصية في لبنان . ومن بعد هذا كلهِ تتجاسر على طلب المكافأة

حينئذٍ خرَّ نتنائيل راكعًا على ركبتيهِ فقال : عفوًا ايها الامير قد غلطتُ في ما قدَّمتهُ لسعادتك وهاك ما يبين حقوقي بنوع صريح ويثبت صوابيَّة مطالبي

ثم قدَّم للامير الصك الذي وقَّعهُ جوسلين وفيهِ يملّكهُ كل الاراضي التي كانت مختصة بدير حصن سليمان

فلمَّا اتمَّ الامير قراءة الصك المذكور مزَّقهُ قطعاً ورماهُ ثم قال:

ان هذا الصك باطلٌ لان جوسلين لا يستطيع ان يسلّم ما لا يملكهُ بوجه شرعي. واماَّ انت ايها اللئيم فالشنق اقل عقاب تستحقهُ ولهذا فعدَّ نفسك سعيداً اذا كنتُ لا اعاملك بموجب جريرتك

فلما سمع نثنائيل بالعقاب والمشنقة غيَّر لهجتهُ ولجأَ الى النعومة التي يمتاز بها جيل اليهود عند المصاعب وقال:

ان كل ما تفضَّل بهِ سيدي الامير حق وصواب فليفعل بعبدهِ ما يشاء ويريد... ولكن فليسمح لي ان اعرض على مسامعهِ باني كنت على الدوام مخلصاً لسموّهِ. واذا كنت قد دخلت قصر القليعة فذلك للمواظبة على خدمتهِ لاني كنت اطمع بالوقوف على أسرار جوسلين. نعم اني كنت آتيهِ ببعض معلومات ولكنها لم تكن بذات بال وكان قصدي ان اطّلع منهُ على ما هو اهمّ واعظم شاناً لأبلّغهُ الى سموّك. ولم ازل محافظاً في منزلي بمدينة طرابلس على أوراق كثيرة موقَّعة بامضاء جوسلين وهي تثبت بما لا مزيد عليه من الصراحة والوضوح اشتراكهُ في كل ما جرى من القلاقل والاضطرابات بهذه السنوات الاخيرة في لبنان

وكان اليهودي هذه المرَّة يحكي الصدق ويقول الحق لانهُ حافظ بكل حرص على جميع المراسلات التي كانت متداولة بين جوسلين والمتاولة غير ان الامير توهَّم ان هناك مكيدة فانف من مجاوبتهِ ولكن اليهودي اتم كلامهُ بسكينة قائلاً:

واذا كنتُ قد طلبت منهُ ان يملّكني الاراضي المختصة بدير حصن

سليمان فقد كنت ناويًا ان اردها الى رهبانه الاجلاء مالكيها الشرعيين

فلما سمع جوسلين هذا الكلام لم يقوَ على كتم غضبه ولو لم يردهُ الحاضرون لانقضَّ على اليهودي فخنقهُ خنقًا ثم قال:

ايتوني بسيف. ايتوني بسيف لاني اغادر الدنيا مسرورًا اذا ارسلتُ قبلي الى دار البلاء هذا المرابي اللئيم النجس. والتفت الى الامير قائلًا: ايها الامير انك جندي مستقيم وانا اقبل الموت من يدك ولكن لا تترك هذا الوغد يستطيل عليَّ في الاهانة فقد استصفى أموالي في حياتي ويريد الآن ان يتاجر بجلدي

وكان جوسلين يهمّ باكمال حديثه ولكن الامير رزق الله التفت الى اثنين من جنوده وقال لهما وهو يشير الى نتنائيل: أبعدا الآن هذا الرجل فعلينا أُمور اهم يجب ان نستوضحها

امَّا اليهودي فلم ينتظر الجنديين ان يقبضا عليهِ ويخرجاهُ قهرًا ولكنهُ بادر الى مغادرة القليعة آسفًا على انهُ لم يبقَ لهُ فيها من ربح

وبذل فرا غريفون غاية ما في وسعهِ لحمل جوسلين على الندامة فذهبت تحريضاتهُ باطلًا لان جوسلين لم يجاوبهُ الَّا بهذه الكلمات: أُريد ان اموت كما عشت ودونكم رأسي فعجلوا بقطعهِ وهذا كل مشتهاي

وبعد قليل نابت جثة جوسلين في المشنقة عن جثة مالك التي كانت أُنزلت عنها من نحو ثمانية ايام. وهكذا ارتضى العدل البشري ولا نعلم كيف ان العدل الالهي استوفى ايضًا حقهُ

امَّا جثة الحاجب مالك الذي ذهب ضحية القيام بفروضهِ فبعد ان صلَّى عليها فرا غريفون وكُفِّنت بكفن لائق أُلحدت بالاكرام في ضريح

خاصٍ أُعدّ لها . وقد حضر حفلة الدفن جمعُ الامير منكسي الرماح دلالة الحزن ولما هيل التراب على الجثــة تناول كل منهم قبضة وألقوهــا على الدفين وكان الامير رزق الله أوّل من فعل ذلك وقد بكى خادمَهُ الامين بدموع غزار

وحاول فرا غريفون ان يعزّيهُ فأبى ان يتعزّى قائلاً :

دعني يا ابي ابكي هذا الخادم المسكين فبعــد الله تعالى ليس احد غيري يعرف مقدار ما كان متزيّناً بهِ من الاخلاص والحمية . فهو لا شك شهيد الامانة والواجبات

ولمّا فرغ الجند من دفن مالك جاء « الريح » فرسهُ ورقد على قبره فحاول الجند ابعادهُ فلم يستطيعوا وقدموا لهُ علفاً فابى ان يذوق منــهُ شيئاً . وفي صباح اليوم التالي وجدوهُ متمدداً بلا حراك على قبر فارسهِ

٢٠

وفي اثناء هذه الحوادث التي جرت في جبل اللكام كانت راحيــل المنكودة لا تزال تقاسي من العذاب امرّهُ في دار المقدم زين بالبترون . وكانت قد سلكت بالتمام والكمال على موجب نصائح الاب يوحنا ومشوراتهِ على امل ان ترى اقبالاً عليها من بعلها ولكنهُ ما كان يزيد سوى إعراض وصدّ

وفي مساء ذات يوم اشتدّ حزنها وخانها جلَدها فسارت الى كنيســة البترون لعلها تبرّد هناك بالصلاة حرارة قلبهــا . وكانت الكنيسة في تلك الساعة فارغة وقد امتــدّ عليها بساط السكينة والهدوّ . والكهنة قــد

اتمّوا من زمان يسير صلاة المساء فبقيت بقيّة من روائح البخور منتشرةً في جوّها . ثمّ ان الشمس كانت قد مالت الى المغيب ودخلت اشعّتها المصفرّة من النوافذ القليلة المصنوعة على هيأة المرامي

ومن اوصاف الكنيسة المذكورة انها كانت ذات ثلاثة اسواق وثلاث حنايا شيّدها الصليبيّون بموجب الهندسة الغوطيّة يختلط بها شيء من الهندسة الشرقيّة . واقاموا من جهة الهيكل شيئاً اشبه بالايقونستاس عند الروم وهو عبارة عن درابزين او شعريّة من الخشب المثقّب كانت فاصلة بين المقدس وسائر الكنيسة . وكان الدرابزين المذكور مزيّناً بصور شبيهة بالصور البوزنطيّة . وامامها قناديل لا تزال متوقدة ليلاً مع نهار . واما ارضها المبلّطة بالفسيفساء فكانت تشتمل على رسوم رمزيّة كالحروف الابتدائيّة من اسم المخلص وصور حمام وطواويس تنقر اغصان الدوالي وسنابل القمح . وكان في أقصاها شعريّة ثانية تفصل المحل المخصوص بالنساء

فلماّ دخلت راحيل الى الكنيسة السابق ذكرها سارت بقدم مرتجفة الى ناحية الدرابزين لعلها متى قربت من بيت القربان تصل شكواها باوفر سرعة الى مسامع العليّ . وهناكِ خرّت على ركبتيها وبعد ان صلّت مدة بدموع حارة رفعت عينيها فشاهدت على الدرابزين صورةً تمثّل نزاع السيد المخلص في بستان الزيتون وذراعاهُ مبسوطتان ووجههُ كئيب وعيناهُ مرتفعتان الى العلى وكانت الصورة صُنع مصوّر ماهر فتخيّلت راحيل حالما وقع بصرها عليها ان المخلص يتلفّظ بهذه الكلمات : « الهي الهي لماذا تركتني » فاخذت هي تهتف وتقول:

الهي لماذا تركتني ? الهي لماذا سمحت للمحبة ان تعظم في قلبي مع

معرفتك بانها ستصير لي آلة عذاب وألم ؟ . . . مولاي اني لا افهم ولا اعقـل واني لخليقةٍ حقيرةٍ نظيري ان تحكم على عنايتك المسجود لها . ولكن اسـألك ان تشفق على ضعفي . اشفق ايضاً على زين زوجي الذي لا ازال احبهُ . . ارثِ لانفراد قلبينا . . . واذا اردتَ فانت قادر على كل شي . . . .

وكانت العتمة تزيد كثافةً في الكنيسة ولم يكن سوى الصدى من مجيب لشكوى تلك القرينة المهملة التي اخذت بعد ذلك تتوسّل الى ربها قائلة :

« ألا تجاوبني يا ربّي ؟ كلاً انهُ لمن المحال ان تستعمـل قدرتك لتعذيب خلائقك لانك قد احتملت العذاب من اجل الكل . . الهي دع بوارق الامل تومض في سمائي . الهي كما كان الاعلاء ينطرحون على قدميك في ايّام حياتك الطبيعيّة طالبـين منك البرء والشفاء هكذا انا ايضاً اتقدّم اليك منسحقـةً ذليلةً . لست انا شيئاً وانت كل شيء . أما انت القائل : « تعالوا اليّ جميعاً ايها المتعبون وانا أُريحكم » فانا بالاعتماد على كلامك قد جئت منطرحةً في هيكلك . . . وانت فاحص القلوب تعلم كم أُقاسي من العذاب وتعرف ان قلبي الذليـل بريءٌ من الارجاس التي لاجلها يكابد . . . كانت والدتي في ايام طفوليّـتي تعلّمني ان اضمّ يديَّ الصغيرتين امامك وتقول لي انك « رب رؤوف رحيم » وهذا اول وصف عرفتك بهِ وهو الكمال الوحيد الذي اريد ان اعلمهُ منك . . . رُحمـاك رُحماك . . . أجبني يا الهي . . . »

غير ان السيد المسيح ابى في تلك الساعة ان يخفض بصرهُ حنوًّا على الخليقة الضعيفة المتحنية عند قدميهِ . وتلك الصورة الفاقدة الحس المتعودة

من ادهار واجيال مشاهدة احزان البشر واوجاعهم سمعت صراخ راحيل الذي انطقها بهِ عظم شقائها فلم تتحرَّك بالشفقة عليها

ولكن يا تُرى هل كفَّ المسيح عن ان يكون هو المسيح . وهل غشَّنا الانجيل لمَّا مثَّل المخلِّص باكياً مع الحزانى متشفقاً على الجموع ومشاركاً احباءهُ في اوجاعهم . لا لعمري لكنَّ الساعة لم تأتِ بعد لنجاتها فعند ذلك هتفت تلك المسكينة صارخةً باعلى صوتها :

لقد انكسر قلبي يا ربي والهي فلماذا لا تجاوبني ؟

وكانت الظلمة والوحشة تزيدان في الكنيسة وما كانت راحيل تسمع فيها غير صدى تنهُّداتها مع زفير خفيف من المصابيح الموقدة امام الهيكل فخرجت كئيبة يئسة دون ان تسمع كلمة تعزيها في مصابها او تُشعر بالشفقة على شقائها . ومع انها كانت قد وعدت الحبيس بان تعود اليهِ في آخر الشهر لتخبرهُ عن حالها استقرَّت في مكانها وكانت تقول في نفسها : ماذا يجديني السفر الى الحبيس وقد اهملني الخالق اهمالاً نهائياً . ولذلك خالجها الريب في كل شيء وعدمت ما كان لها من الثقة في الله تعالى وفي الاب يوحنا . . . وكثيراً ما كانت تتوهَّم ان الحبيس استهزأ بها فسلاَّها بتسلية باطلةٍ . وعلى ذلك فكان وجعها عظيماً وشعورها بان الله والناس اهملوها كان يزيدهُ شدَّةً والماً

وكان زين قد سافر بغتةً الى بشرَّاي قائلاً ان غيبتهُ عن البترون تطول عدَّة اسابيع . وكان قبل ذلك بعدَّةٍ قد اخذ يُكثر من الاسفار ويستثقل الاقامة في البترون بعشرة قرينتهِ . وكان اقل الاسباب يحملهُ على السفر فتارةً كان يخرج للصيد وحيناً لزيارة بعض المقدَّمين رصفائهِ وآخر لتفقد املاكهِ واراضيهِ . وكان في اكثر اسفارهِ يستصحب وهبي خادم راحيل

ويظهر لهُ ثقة غير اعتيادية. ولمعرفتهِ بمحبة الخادم المذكور للاب يوحنا كان كثيرًا ما يحدّثهُ عنهُ وبهذه الوسيلة علم منهُ ان الاب المذكور محبوس في جزيرة بحيرة قدَس. وفي احدى المرات اتفق لموسى على غير انتباه ان اخبر مولاه بزيارتهِ للحبيس السابق ذكرهُ. اماَّ زين فتظاهر بعدم الانتباه للخبر ولكنهُ اضمر انهُ سيعود مرَّة اخرى لمحادثتهِ في هذا الامر

وكان الاضطراب والقلق قد بدأا في مخالجة هذه النفس الشريفة التي ضلَّت حيناً في سبيل محبةٍ اصبحت الآن تحمرُّ منها خجلًا. وهكذا اخذ زين يلوم نفسهُ على سابق سلوكهِ الملتوي مع قرينتهِ. ولرغبتهِ في التخلُّص من تبكيت الضمير كان يطلب وجوهاً للتسلية مبتعدًا عن البترون حتى لا تتجدَّد اسباب التوبيخ الباطن بدوام مشاهدتهِ لتلك القرينة الصالحة وعلى ذلك فقد كان يقاسي امرَّ العذاب في داخلهِ ولو انهُ كان يجتهد كل الاجتهاد في ابعاد الافكار المقلقة عن حالهِ

كذلك حنة تلك الصبيَّة النقيَّة والخالية من الغش اخذت هي ايضاً تفتح عينيها وتنتبه لما يجري حولها من الحوادث. فقد كانت حتى هذا الوقت تقبل من صهرها البشاشة والاكرام والمؤانسة بكل سلامة ضمير ولم تكن ترى في شيء من ذلك شرًّا. ومن كانت نيَّاتهُ قويةً لا يرى سبباً لاساءة الظن في نيات الغير. وقصارى القول ان هذه الابنة الطاهرة كانت من السن في اضيق مدَّاتهِ واحوجها تنظر الى المستقبل بثقةٍ ورجاء كأنَّ المستقبل بيدها ويحملها خلوُّها من التجربة والاختبار على ان تأتي احياناً ما يخالف الفطنة والحكمة. وبالنظر الى اطمئنان ضميرها وغبطة باطنها كانت تتعجَّب ممَّا تشاهد حولها من اسباب الانزعاج والضيق ومما

تقف عليــهِ عند كل خطوةٍ من الاحزان والاكدار التي لم تكن تعرف لها علّة

وفي ذات يوم دخلت بغتةً على شقيقتها فرأتها تبكي بدموع سخينة وتضمُّ طفلها الى صدرها وتقبّــله بحنوّ وانعطاف والدي وهي تقول: « يا كنزي ويا عزائي الوحيد عند ما يهملني ابوك ! ايها الملاك التقي ليس في وسعك ان تعلم بمــا تقاسي امك من العذاب ! »

فتأثرت حنة شفقةً على اختها واستفهمتها عن اسباب حزنها. وكانت راحيل قد اوشكت ان تبوح بسرّها وتعترف بانها غَيْرى. وممَّن ؟ من شقيقتها... وقالت في ذاتها : ماذا يجديهــا قهر النفس والاصرار على الكتمان بعد ان سألتها هذه الشقيقة ؟ أما يحق لها بل يجب عليها ان تجاوبها وتنبهــا الى خطائها ؟ ولكن اين تذهب وُعودُها للاب يوحنا ؟ وهل تقدر ان تبوح بشيء يُنزل الغمّ الشديد بل الموت بعينهِ على قلب شقيقةٍ تعرف هي سلامة سريرتها وطهارة ضميرها ؟

على انَّ من كانت طباعهُ كطباع راحيل قد تشرَّبت حزماً ودرايةً يكون طرح هذه الاسئلة عليهِ بمنزلة حلّ مبرم. ومن ثمَّ كتمت ما في نفسها واجابت جواباً مبهماً ولكنهُ مع غموضهِ ايقظ انتباه شقيقتهــا. فشعرت هذه كأنَّ حجاباً كثيفاً قد تمزَّق عن بصرها وعلمت ان اختهــا صارت متزعجةً من وجودها وغائرةً منهــا فقلقت لهذا الامر جدًّا ولامت نفسها كل اللوم على كونهــا صارت سبباً للنكد في البيت الذي اضافها وعلةً لشقاء شقيقةٍ تحبها كثيرًا فعزمت ان تزايل البترون في اقرب فرصةٍ تتسنَّى لها

وفي تلك الاثناء كان اخوها الارشيــدياقون موسى قد عاد الى

طرابلس من سفرهِ الى رومية فكانت عودتهُ حجَّةً اتخذتها للسفر

غير انها ما كادت تبارح البترون حتى شعرت راحيل بسأم الانفراد فعزمت على ان تغتنم الوقت لزيارة حبيس بحيرة قدس مرةً اخيرة. ولم تكن تقصد من هذه الزيارة ان تسأله نصحاً او مشورةً بل ان تودعهُ الوداع الاخير لانها كانت موقنةً بان ليس لشفائها من علاج

٢١

وفي ذات يوم اشتدَّ حرُّهُ بينما كانت الشمس دانيةً من الغياب خلف جبال النصيريَّة بدأت الغيوم الدكناء تتراكم في الجوّ متكاثفةً وكان بين وقت وآخر يومض البرق وتُسمع زماجر الرعود من بعيد. وكانت الزوبعة قد تفجّرت وقتئذٍ على ظهر الجبال المقابلة للبحر واخذت تمتدّ حتى ادركت في وقت قريب ناحية حمص. وبينما كانت الرياح الشديدة في وادي النهر الكبير تثير مياه البحيرة حتى قرارها وتصدم الامواج المائجة مكسّرةً اياها على السدّ والجزيرة شوهد قارب يسير فوق الماء مغالباً بمشقَّة تلك الامواج المتلاطمة. وكان سطح البحيرة اذ ذاك عبارة عن مساحة فسيحة قد ابيضت كلها من الزوبعة ورشاش الماء وذاك القارب الضعيف في وسطها اشبه بنقطة سوداء ترقص على رؤوس الامواج

وكان اثنان من النوتية يتوليان هذه المرَّة قيادة القارب لان موسى الخادم صرَّح بانهُ لا يستطيع وحدهُ تغلُّباً على الامواج ولهذا لمَّا وصل الى قرية قطينة الكائنة بقرب البحيرة ضمَّ اليهِ رفيقاً آخر بعد استئذان مولاتهِ والتأكيد لها بان المذكور من اهل الثقة والامانة

وكان كل من النوتيَّين قد لفَّ رأسهُ بكوفية والقى على كتفيهِ عباءة لتقيهُ من الريح ورشاش الامواج وشمَّر على ذراعهِ واقبل على سَوق القارب بالمجاديف بهمَّة ونشاط. وكان الموج الهائج في بعض الاوقات يشتدُّ كثيرًا حتى يوشك ان يُغرق القارب الضعيف مع اولئك الثلاثة الذين حملتهم الجرأة على ركوبهِ

الَّا انهم في آخر الامر ذلَّلوا كل صعوبة اعترضتهم وانتهوا الى الجزيرة وارادوا ان يربطوا القارب بالشاطئ فما استطاعوا نظرًا لشدَّة الزوبعة فحينئذٍ بقي موسى في القارب لاجل حراستهِ ونزلت راحيل مع النوتيّ الآخر فطلعا الى الذروة التي عليها كان الاب يوحنا قد نصب كوخهُ

وكان الحبيس قد لمحهما من بعيد فاقام ينتظرهما في منزلهِ الحقير الذي كان مُنارًا بنور ضعيف مصفرّ يختلط مع الدخان والشومار. غير انَّ راحيل كانت قد تغيَّرت كل التغيُّر بحيث يصحُّ القول انها صارت غير ما كانت عليهِ يوم وطئت قدمُها لاول مرَّة ارض الجزيرة لان ذلك الوجه الناضر انقلب ممتقعًا شاحبًا. وتانك الشفتان قد تقلَّصتا من طول مدَّة النكد واحتقان الغضب وشهوة التشفّي والانتقام وتلك النار اي نار الحياة التي كانت تجول ملتهبةً في وجنتيها وشفتيها قد انطفأت خامدةً وايَّ خمود. ولكنها مع هذا كلهِ زادت عيناها اتقادًا واشتعالًا فكانت ترسل نظرات قاسية جافية بدلًا من تلك النظرات العذبة الحلوة التي كانت لها في السابق

ولمَّا صارت راحيل في مواجهة الكاهن الوقور بكت طويلًا في سرّها ثم ابتدأت تشرح لهُ اخبار عذاباتها الجديدة وكان صوتها يقوى

ويشتدّ في وسط الطبيعة المتبلبلة وكانت الظلمة الناشرة لواءها تشجع القرينة المسكينة على ان تعرب بملء الحريّة عن حركات نفسها المنسحقة تحت وقر الالم والوجع

— آه يا ابي لك ان تظن فيّ ما تشاء من الظنون. كلاً انّ الله ليس بعادل... ومن الآن فصاعداً قد تقطّعت كل علاقة بيني وبينهُ وكما تطير الاوراق اليابسة من امام وجه الزوبعة هكذا قد طار من قلبي ما كنت قد حفظتهُ فيهِ من الايمان القليل !

— التجئي يا ابنتي الى الصلاة فانها خير علاج

— لقد كنت انتظر منك هذه الكلمة المبتذلة بل هذه التعزية الخالية من كل معنًى والتي تصرف الانسان عن طلب غيرها. توصيني بالصلاة واي شيء عملتُ من يوم حلّ بي العذاب ? ولكن ماذا ربحت غير زيادة الالم. فالله تعالى يُسرُّ لا محالة بتعذيب خلائقهِ... ولو انهُ اجاب صلاتي مرةً واحدةً او منّ عليّ وقتاً ما ببعض الراحة لكان في الامر ما فيهِ. فكيف تريد اذًا ان اعتقد عدل الله ? آه لو اني صرّحت لك بكل شيء واعترفت لك بجميع ما في قلبي لرددتني خائبةً بل لا يبعد ان تلعنني ايضاً

— كلا بل اني ابكي معكِ واشاركِ في حزنك. نعم انّي اتعجّب مما هو حاصل لكِ من الاضطراب والهيجان غير ان ذلك لا يسخطني ولا أُبالي بهِ والله تعالى يتولّى مغفرتك

— خرجتُ اوّل امس من منزلي وركبتُ متن السفر دون ان افوه بكلمة صلاة او اصنع اشارة صليب كاني لست من الديانة بشيء... وبما اني من الآن وصاعداً اصبحت لا أُريد صلاة فستقضي الامور عاجلاً

وسأُقيم على انتظار نصيبي المرتبط بعمود الوجود... لماذا اعطاني الله هذه الحياة التي لم اطلبها منهُ ؟ واي حياة اعطانيهـا... حياة اوجاع واحجية عذاب بل دربا حقيقية للصليب امضي فيها وانا ساكتة واجمة امام اله يتوارى عن الايدي الضارعة اليهِ ويُصمّ اذنيهِ عن احرّ الصلوات ومع ذلك يزعم انهُ صالح... وغير متناهٍ في الصلاح

— لا ريب ان الألم قد اضلَّ عقلكِ وانطقكِ بالتجديف

— كلاّ ان عقلي معي والذي قلتهُ قد افتكرت فيـهِ ورأيتهُ عين الحقيقة والصواب. اتنكر ان الله عاملني بقساوة شديدة؟ ألا ترى انهُ قدَّم لشفتيّ في اول الامر كأساً لذيذة حلوة ثم ابعدها عني بغتةً. أطمعني بالسعادة والغبطة في الحب الخالص المتبادل وما لبث ان حطَّني فجـأةً حتى اراني العدم... ان الله تعـالى لا بدّ ان يكون الآن مسرورًا لكوني اتوجَّع واقاسي... أُقاسي من العذاب ما دونهُ عذاب الجحيم

امَّا الحبيس فابى ان يقطع تلك القرينة المنكودة عن اتمام شكواها واحبَّ ان تتكلَّم وتبثّ احزانها واكدارها كما تشاء وتريد. واي بأس اذا باحت بكلما يكنُّهُ قلبها وطرحت على قدميهِ كل اعتراضاتها وكلّ ما يجول في نفسها من الحركات الثـائرة ؟ ففي مثل هذه الاوقات لا يجدي السكوت نفعاً بل يكون عند بعض الناس من اهول المسالك وافظع الخطط التي يتخذونها. أليس المسيح بعينهِ مع كونهِ الهًا قد اطلق العنان لطبعهِ البشري في وقت ضيقتهِ وتركهُ يصرخ تلك الصرخة الهائلة « الهي الهي لماذا تركتني »

وبما ان الاب يوحنا لم يُجِز جوابًا على شيء من كلامها لانهُ كان قد قلق من سورة الحزن الثائرة في نفسها خاطبتهُ قائلةً :

قل لي اي شيء يحمل الباريء تعالى على تنكيد عيشي وتنغيص حياتي ؟ انك خادمه ومؤتمنه . . . فعليك ان تجاوبني

وكأن هذه المسكينة رهبت هول الجواب فاستأنفت الكلام بصوت اصمّ مختنق يتّخذهُ عادةً من جاشت فيهم الاهواء فقالت :

عرفتُ من زمان مديد ايها الرجل البار انَّ الحب يُورث الجنون . ومع ذلك لم يخطر لي قط انهُ يحملني على اقتراف مثل هذه الحماقة واي حماقة اعظم لمن هو في حالة كحالتي ان يطلب نصحاً ومشورةً من رجل بلغ الثمانين . . . من رجل قديس تجرد لله وانقطع عن كل اوهام الدُّنيا . . . فسامحني اذًا يا ابتِ ان قلت لك انك لا تفهم شيئاً من المحبَّة البشريَّة . . . فقد جاهدتُ اسابيع واشهراً كاملة لا كتم محبتي عن نفسي وعن الغير ولكني كنت كلَّما جاهدت بشدَّة فعلى نسبة ذلك يقلّ نجاحي وفوزي بالمبتغى . . . وكنتُ كعليل محترق من وهج الحمَّى كلما اراد ان يرقد يأخذهُ القلق فيتقلَّب على فراشهِ تارةً يصلي وتارةً يترنم ليلهو ويثير النعاس ولكنهُ كلما سعى في نسيان الاشياء تكاثر تواردها على خاطرهِ فيقلق ويستمرّ قلقاً معذّباً

هكذا جرى لي فقد مشيتُ على نصائحك حرفاً بحرف . ولكني كنت اذا سعيت في اطفاء محبتي زادت توهجاً . ولم تظهر لي في يوم من الايام بمثل هذا المظهر من القوة والشدَّة الَّا وقتما كنت أُحاول سترها ليلي مع نهاري . وزد على هذا ان ما كان يتبيَّن لي في باديء الامر مستحيلًا ما عدت احسبهُ اليوم الَّا لعباً ولهواً . نعم نعم ان اخفاء محبتي على شقيقتي وعلى زين ما هو غير دعابة ومزاح بالمقابلة الى صناعة كتمها على نفسي . اه لو تعلم اني في هذه التجربة الاخيرة خسرت كل ما كنت قد ربحتهُ

من قبل بالمشقة والنصب . . . لاني لمَّا اردت ان أُخفي محبتي على نفسي افشيتهـــا من حيث لا اريد الى حنَّة وزين . هذا فضلًا عن ان اضطرابي قد آل الى اقلاق راحتهما . ومع ان الاثنـــين يقدّمان لي غاية ما يمكن من الانس والمراعاة ارى ان محبَّة زين لم ترجع اليَّ لا بل قد تأكدتُ اني صرت مكروهة عنده ُ ومستثقلة فهو يحسبني اليوم خفيفـــة العقل كثيبة الاخلاق مع انهُ كان من قبل قلَّما يكترث لي . . . وبناء عليهِ ما عدت ارى دواء لدائي غير الموت والخلاص من هذه الدنيا واكدارها المرَّة . . . !

٢٢

قالت هـــذه الكلمات الاخيرة وسكتت مدَّة وكانت قد خارت قوتهـــا وضاقت انفاسها من وطأة الحركة الباطنة التي ثارت فيها فاسندت رأسها الى جدار قلاية الحبيس . فلمَّا شاهد منها النوتي المجهول هذا المشهد دنا فوقف على قدم الاستعداد لاسعافها عند اول اشارة تبدو منها . وكانت الريح تهبُّ بشدة فترفع عباءتهُ الغليظة وتكشف للنظر سيفًا مرصَّعًا عُلِّق في منطقتهِ مع ثياب فاخرة لا يمكن ان يلبسها نوتي او فلاح من المقيمين في جوار البحيرة

اخيرًا تنفَّست راحيل كانها قد خلصت من وطأة امر يهظها

امَّا الاب يوحنا فانتظر نهاية الازمة ثم قال:

تقولين انك تريدين الخلاص وتتكلَّمين عن الموت . . . ولا شك ان الموت هو أَفضل دواء لكل الشرور . . . والحق يُقال انهُ ليس بدواء

جديد بل هو علاج كل نفس ضعيفة . وعندما تسألينني قائلةً « لماذا يبلوني الله تعالى ويمتحنني ؟ » تشبهين جندياً شاباً دُعي الى ساحة الوغى لاول مرة فصرخ قائلًا : ترى ماذا صنعت لقائدي حتى يعرّضني لخاطر الحرب ؟ فيقال لهُ وقتئذٍ انك جندي وهو قول كافٍ وافٍ لمن احسن التدبّر والروّية .
كذلك في جهاد الحياة لا يسلم احد من المحن والبلايا ... وقد قضي على كل انسان ان لا ينال عظمةً او فائدة الّا ممتزجة بالمشقّة والغمّ والعذاب فاذا لم يشقّ الحارث قلبَ الارض وينصب بفلاحتها فلا يصيب غلّةً تقوتهُ . ولا تكون الوالدة والدةً ان لم تقاسِ العذاب . ودون مخاوف الحرب وكائنها من اين تُعرف بسالة الجندي ؟

وانت بدلًا من الجهاد والقتال في هذه الدنيا تقصدين ان تلقي بسلاحك في ساحة الوغى

— صدقتَ يا ابتِ فاغتفر لي هذه الكلمات التي حملني عليها عذاب مقيم ضلّل عقلي واعمى بصيرتي ويكفيني اني عرفت ذنبي وقد اخطأت الى الله واليك يا ابانا يا من اظهرتَ لي كل الحنو والرأفة في جميع الاوقات

— انك تضلّين ضلالًا بعيدًا اذا كنت تتوهمين بانك امرأة قويّة العزم اسمعي مني وعي . ولا يخفاك انّ الشيوخ يحبون ذكر امثال ماضية

— تكلّم يا ابتِ فان كلامك يعزّيني ويطفئ نار عذابي . قُل فكلّ كلمة منك تعلمني الاقتداء بصبرك وتصبّ على قلبي روح التسليم والرضى بما قضاه الخالق .

— اسمحي لي اذًا ان اخبرك قصّة امرأة أُخرى كانت في الحقيقة قويّة العزيمة ثابتة الجأش تجاه الشدّة . وما اردت ذكرها على مسامعك الّا لانها تشبه قصتك :

كان كلوتير ملكاً على الفرنج والبلاد التي اتى منها اجدادُكِ . وكان يحب امرأتهُ راديغوندة حبًّا عظيمًا وقد رُزق منها ستة اولاد . ففي ذات يوم تقدمت اليهِ راديغوندة المذكورة التي كان حبُّهُ لها كما قلنا لا يحيط بهِ حدّ وسألتهُ ان يسعى في تزويج شقيقتها التي هي اصغر منها الى شاب من الملوك يليق بها . غير ان هذه الشقيقـة نزلت من قلب الملك منزلة عظيمة جدًّا حملتهُ على ان يجاوب امرأتهُ بقولهِ :

— لقد اتممت رغبتك وبحثت لشقيقتك عن افضل البعولة فلم اجد افضل مني . . . فسأتخذها اذًا عروساً لي بدلًا منك وفي ظني ان امرًا كهذا لا يسوءك . واذا ساءك فمن يقاومني وانا ملك ليس عليّ ان اؤدي حسابًا لاحد

فوقع هذا الكلام على راديغوندة مثل الصاعقة المنقضَّة غير انهـا لمَّا كانت قويَّة النفس وشديدة الحزم سكَّنت ما ثار في نفسهـا من الغيظ والحنق واكتفت من جواب الملك بقولها :

ليفعل سيـدي الملك ما يحسن في عينيـهِ . ولكن غاية رجائي ان يتكرَّم على من كانت امرأتهُ ان تحيا في حظوة سيدها الملك . . .

وهمَّ الاب يوحنَّا ان يتمم القصـة غير ان راحيل صرخت صرخةً عظيمة اشبه بالرعد في وقت الزوبعة وقاطعتهُ قائلة :

— لم يكن صعباً على تلك الافرنجيَّة ان تكتم محبَّتها لانها لم تذق طعم المحبَّة اصلًا . . . وعلى كل حال فقد فاتتها شهامة الحب كما فاتتها حميَّتهُ وحرارتهُ . كلا انهُ مهما كان الحب المجرد عن شين المنفعـة خالصاً ونقيًّا لا يتمّ ولا يكمل الَّا اذا اقترن بشهـامتهِ الفطريَّة وحرارتهِ الطبيعيَّة . . . نعم ان كلوتير الذي تتكلَّم عنهُ كان ادنى من ان يستأهل

هذه الحرارة... غير ان زيناً ليس من هذا الصنف ولكنهُ شريف المبادئ نبيل الاخلاق رقيق الطباع حتى الآن اي وقت ضلالهِ وابتعادهِ عني. وهذا هو السبب الذي من اجلهِ لا استطيع ان انقطع عن محبتهِ واطفئ نار الحميَّة التي كثيراً ما يشعلها الحب

وكان النوتي في اثناء هذه المحاورة واقفاً على مسافة يسيرة. غير ان هذا الرجل المجهول الذي كان قد اتى بهِ الخادم موسى من قرية قطينة لمَّا سمع الكلمات الاخيرة من حديث راحيل كرَّ مسرعاً وخلع الطيلسان الذي كان ملتحفاً بهِ وانطرح على قدمي المرأة المغمومة وكشف عن صدرهِ قائلاً:

اطعني هذا الصدر اللئيم وخذي بثأرك فقد حقَّ لك الانتقام. ايتها الضحيَّة البارَّة الشريفة عاقبي جلَّادك الذي انزل بك ما لا تستأهلين من الهمّ والنكد...

ولم يكن المذكور سوى زين زوج راحيل المقدَّم. واعترى اذ ذاك شهود هذه الحادثة ضرب من الدهشة والجمود فوقف الكل مبهوتين حائرين وقد نشر الصمت لواءهُ فوق رؤوسهم. غير ان راحيل بعد ان حقَّقت النظر في من كان يتوسَّل اليها وهو خارٌّ على قدميها وعرفت انهُ زوجها افرخ روعها بغتةً وذهب ما شعرت بهِ من القلق ثمَّ سقطت خائرة القوى بين ذراعيهِ

وقد سبقت لنا الاشارة ان زيناً كان قد انتبه الى سلوكهِ الملتوي وفطن لما تقاسي قرينتهُ الفاضلة الامينة من الغصص والنكد بسببهِ فكان قصد ان يرعوي في الحال عن كلّ ما يكدرها ويعكّر صفاء عيشهِ وعيشها. ولكن اعظم الناس استقامةً واحسنهم سريرة قد تمنعهم الخيلاء عن

انتهاج طريق الصواب ولو رأوهُ واضحاً ومتى ملأ رؤوسهم بخار الغطرسة اعمى بصائرهم ولو كانت منيرةً وأزاغ عقولهم ولو كانوا من أشدّ الخلق استقامةً وحزماً وكل ذلك لان الانسان يصعب عليهِ ان يعترف بخطائهِ وهذا هو السبب في ما نلاحظهُ من التناقض وفوات الارتباط في اعمال البعض من الذين عُرفوا بمكارم الاخلاق الموجبة الى الناس وجوب احترامهم واكرامهم

وكان المقدَّم زين اوشك ان ينقاد للضعف البشري ككثيرين غيره. وقد عرفتَ مما سبق بيانه انهُ في سيرتهِ لم يُزَنّ بشيء يخالف الامانة والاخلاص. وان قلت كيف طاوعهُ قلبهُ وضميرهُ على ان يُنزل بقرينتهِ ما انزل بها من الغم ويصدّ عنها كلّ ما مرّ عليك خبرهُ من الصدود والاهمال. أجبنا ان ذلك سرٌّ من اسرار القلب البشري. ولو انهُ كان اقل تمسُّكاً بمبادئ الشرف والضمير لساقهُ تيار الاهواء الى ما لا تُحمد عاقبتهُ غير ان ما طُبع عليهِ من استقامة الفطرة ما لبث ان تغلّب على فؤاده ولكن بعد حرب طويلة داخليَّة ومعارك كثيرة باطنية أذاقتهُ الامرّين. وكلّ ذلك لانهُ كان يستصعب الاعتراف بذنبهِ والاقرار بانهُ عذَّب افضل النساء امانةً واخلاصاً لازواجهنَّ ولهذا كان في بادئ الامر يحاول مقاتلة صوت ضميرهِ ويلجأُ الى الاقيسة الفاسدة ليبرّئ بها نفسهُ قدام هذا القاضي العادل... غير ان الراحة هجرتهُ من ذاك الوقت هجراً كاملًا فاستمرّ ضميرهُ يوبّخهُ توبيخاً لاذعاً على العذاب الذي ركبهُ بخفَّتهِ وطيشهِ على هامة قرينةٍ تُعدّ من فضليات النساء

وكان موسى الخادم الامين قد سعى جهدهُ في تقريب القلوب واعادة الحب القديم الى مجراهُ لانهُ بينا كان ذات يوم مصاحباً مولاهُ في احد

اسفارهِ العديدة سألهُ زين عن السبب الذي من اجلهِ كانت راحيل تغيب عن القصر مرارًا في السنـة فباح لهُ المذكور بكلّ شيء. فتظاهر زين بالارتياب والشك. فاشار عليهِ موسى ان يذهب الى قرية قطينة على ضفّة بحيرة قدَس ليتحقّق بعينـهِ صدق الخبر. وعلى ذلك فبسعيهِ تنكّر زين بثوب نوتي وسافر الى جزيرة البحيرة حيث سمع من فم امرأتهِ اقرارهـا بعذابها الدائم وانها مع ذلك تحبهُ من كلّ قلبها حتى انها تهوى الموت من اجلهِ

ولا سبيل الى اكتناه ما شعر بهِ زين وقتئذٍ من الخجل فاحسّ كأنّ الجبال اطبقت عليهِ وساقتهُ الندامة الى ان يخرّ عند قدمي امرأتهُ قائلًا: رُحماكِ رحماكِ قد كنت جلّادكِ فهل تنعمين عليّ بالصفح الجميل ؟

امّا راحيل فما اجابت بغير ذرف الدموع. وكانت دموعها هذه المرّة دموع فرح وابتهاج وهذا كل ما كانت تشتهيـه من إدراك ثارها وقطُّ لم يخطر ببالها سواهُ. لانها في الحقيقة كانت ذات نفس سامية. نعم انهـا كانت فخورًا متباهية ولكن فخارها غير ناجم عن خيلاء مصدرهـا الحماقة والجهل بل عن مزيد الاطمئنان الذي يوليهِ صفـاء الضمير الى صاحبهِ

وبعد ان شاهد الاب يوحنّا حبيس الجزيرة هذا المنظر المؤثر هتف بصوت رزين قائلًا :

اجل انهُ ليعزّ على القوّة البشريّة ان يبقى الحب مجهولًا ومكتومًا ويتّصل حتى نسيان الذات وتلاشيها... الّا ان السعي والاجتهاد في هذا السبيل لا يخلو من فضل واجر ولهذا صدر عنـهُ بعض الخير لانهُ اعاد من كانا جديرين بالتحابّ احدهما الى الآخر... حقًّا ان المحبّة البشريّة

يمكن ان تُقابل الى حدّ محدود بالمحبة الالهيَّة ولهذا ابنها السيدة الشريفة لا يُعدّ امرًا مستغربًا قصدكِ راهبًا في الثمانين من عمرهِ لاجل طلب النصح والمشورة منهُ. فمحبَّة الله حتى في وسط العالم هي بلا ريب من الامور السهلة. ولكن الصعب هو ان نحبهُ حبًّا مجرَّدًا عن الغاية الشخصيَّة او بالحري ان نحبهُ لاجل نفسهِ لا لسبب آخر. وهو امر يمكن ان لا يكون قد ادركهُ حقّ ادراكهِ أعاظم القديسين. وهذا هو السبب الذي من اجلهِ تظهر محبَّتنا لله في اغلب الاوقات مثل حرب متردّدة في الخير وكفَّارة ناقصة في الشر لانهُ لاكمال في هذا العالم وانما الكمال في السماء

فسعدًا اذًا للمتحابين الارضيين الذين يخرجون نظير كما ظافرين من حلبة الجهاد ويستطيعان ان يتأملا بعين راضية في الكفَّارة الماضية

ثم انهُ رفع يدهُ فباركهما بين زئير الزوبعة التي في اثنائها كانا تلاقيا وتصالحا وبينما كان الجوّ فوق قمم عكّار يدوي بزمازم الرعد كان الحبيس ينهي صلاتهُ بقولهِ « امين »

٢٣

ماذا جرى للاب يوحنا وكيف كان مصيرهُ ؟

بقي هذا الشيخ الجليل في الجزيرة حيث تناوبتهُ الاوجاع والآلام ولم يكن لهُ عزاء في بهرة غاراتها سوى التأملات الباطنة والعلائق المتَّصلة مع الله ربهِ. وكان في حياتهِ كلها يرتاح الى خلوةٍ يصير فيها منسيًّا وقد ظفر بما تشتهي نفسهُ فلم يكن ليريد من اصدقائهِ سوى هذا الخير السامي في نظرهِ

وعليهِ كان يرى تلك الجزيرة جميلة جدًّا بما فيها من أغراس التـين واشجار الحور وغابات القصب التي تلجأُ اليهـا أسراب البط ويستحسن منظر النطاق المائي المحيط بها وجوّها الحارّ اللامع نورًا واشراقًا ومناظر الجبال المشرفة عليها واشدّ من ذلك الوحدة التي لا يقلقهـا مقلق . وكان اذا التفت الى قلايتهِ ورأى حقارتها والحجارة السوداء التي بُنيت بهـا تجول في خاطرهِ افكار كثيرة وتذكارات شجون عديدة حتى لا يعود يشعر بحزن على مفارقتها

فبناء عليهِ كان من المستحيـل حملهُ على ترك منفاهُ الذي اصبح عندهُ عزيزًا من جملة وجوه . ومن ثمَّ ذهبت باطلًا كل الحاحات زين وراحيـل عليهِ في مرافقتهما لانهُ عزم على ان يموت في المكان الذي قد طالما صلّى فيهِ ونَصِب وتوجَّع

وكذلك عبثًا عرضا عليهِ ان ينهي ما بقي من حياتهِ في البترون او في دير من ديورة الناحية كدير كفر حي او دير البلمند في الكورة الذي كانت حمايتهُ مختصّة من قديم الزمان باسرة لمبرياك لكنهما لم ينتفعا شيئًا من هذا كلهِ . فكفّا عن الالحاح في الطلب ليقينهما بان كلّ ما يبذلانهِ من المساعي لا يقوى على تغيير عزيمة الحبيس في شيء

انَّ في قلوب البشر لسرًّا فلا توجد في الاقل محبـة بشريّة دون ان تكون ممتزجة بشيء من الخيلاء والاثانيّة ولقد ضلَّ الاب يوحنا في ذهابهِ الى خلاف ذلك ضلالًا سمحت بهِ العناية الالهيّة لتقريب قلبين ما كان اجدر كلًّا منهما بالآخر . وكيفما كان الامر يجب القول انهُ لولا المثل السامي الذي اعطاهُ فادي الناس الاله المتأنس لاجل خلاصنا لما

عزف العالم اصلًا ما هي الرأفة الحقيقيَّة الخالصة ولا ما هي المحبة الخالية بالتمام من الاغراض الشخصيَّة

ثمَّ انَّ المقدَّم وقرينته شكرا للحبيس جميلهُ بارقّ العبارات وألطفهـا وبادرا الى السفر والاجتماع مع بعضهما بعيدين عن الانظار تعويضاً لما كان فاتهما من اوقات الألفـة والاتفاق. وكانا يحسبان السنتين اللتين صرفاهما بالغم والنكد بمنزلة دهور طويلة فلذلك قد خُيّل لهما انهمـا قد تلاقيا بعد غيبة طويلة وأنهما يعيشان بعد ذلك بما لا مزيد عليـهِ من الحب والائتلاف. وعلى اثر وداعهما للاب يوحنا الذي استخدمتـهُ العناية الالهيَّة كآلة لاجتماعهما سارا في الطريق المؤدية الى جبل لبنان

ولمَّا اقترب النهار هدأت الزوبعة التي كانت ثائرةً في الليل وعاد الى الجوّ صحوهُ ونقاوتهُ وطلعت الغزالة من وراء قمم الجبل الشرقي الى ناحية جوسية مفيضةً اشعَّتها على سهول حمص. وكان كل شيء كاسياً بحبر المسرَّة وجميع ما في الطبيعة ضاحكاً يشارك هذين الزوجين في حبورهما الذي صوَّر البحـيرة لاعينهما بجمال فائق لم يشاهداهُ قط فيها ومثَّل لهما الوَعر باسماً ومرحّباً مع انهُ معروف بوحشتهِ واقفارهِ وحجارتهِ السوداء التي تلمع تحت نور الشمس كلمعان فحم قريب الانطفاء. وقصارى القول ان ائتلافهمـا جدَّد لهما السعادة والهناء وكثيرًا ما ردَّدا ذلك على بعضهما عنـد اجتيازهما البحيرة للمرَّة الاخيرة

امَّا موسى الخادم الامين فكان ينظر الى زين وامرأتهِ اختلاساً نظر المسرور من حسن النتيجة ويزعم في سرّهِ انهُ كان اعظم وسيلة لتصافيهما ولهذا عجب كيف انهما لم يخصَّاهُ بكلمة شكر على مساعيهِ في سبيلهما. فهل كان ذلك يا ترى عن استزراء زين وراحيل لهذا الخـادم المشهورة

امانتهُ ام ان الخادم المذكور استعظم قدر خدماتهِ بزيادة على ما تستحق .
والجواب انــهُ لم يكن شيء من هذا كلهِ ولكن الزوجين كانت قد
استغرقتهما الافراح بعود عهد الهناء والصفاء الى سـابق حالهِ وكان
موسى يجهـل ان السعادة هي ايضاً من جالبات الأثرة والخيلاء مع انهُ
كان الواجب ان تبعث المرء الى الانس واللطف . ومن المقرَّر ان الانسان
متى صار الى الشقاء يحبّ ان يلقي تبعة حالتهِ على الغير ولكنهُ متى اصاب
نجاحاً فيعزوهُ الى مساعيهِ الخصوصيَّة او على الكثير الى حسن طالعــهِ
وينسى عادةً من كان سبباً لعلاء حظّهِ

امَّا ذاك الشيخ البار فانهُ وقف في أعلى الرابية التي ارتفعت عليها
صومعتهُ ينظر هنيهةً الى القارب الذي كان ينساب بسرعة على مياه البحيرة
الهادئة . فلمَّا شاهدهُ قد انتهى الى خليج كفر عبده زفر زفرة خفيفــة
كانت علامة فرح واسف معاً لان القارب عندما انفصــل عن شاطئ
الجزيرة صوَّر لهُ ان كل ما بقي من العلائق الراهنــة التي تربطهُ بهذه
الارض قد تقطَّعت الى ابد الدهر فلمعت بغتةً عينا هذا الشيخ النبيل
وتمثَّلت لمخيَّلتهِ خواطر كثيرة وتذكارات عديدة كان بعضهــا بعيداً جداً
ومن جملتها جبل لبنان ودير حصن سليمان وأسرة لامبرياك التي تنتمي اليها
راحيل وبلاد الغرب وايام شبابهِ في الجندية وقصر بروج ودوق بورغندية
وطنهِ وما اشتمل عليهِ من الاراضي الخصبة وقصر ابويه الى غير ذلك
من التذكارات التي كان يحلو لهُ ترديدها . . . وقصارى القول انهُ لما رأى
كل شيء قد تمّ واح كوخهُ وخرَّ على ركبتيهِ امام مصلوب من خشب
وهتف قائلاً : « الآن اطلق يا رب عبدك بسلام فاني قد اتممت باقــلّ
اساءة ممكنة تلك المهمَّة التي ارتضيت بتفويضهــا الى ضعفي . امنحني

اللهمَّ ان اتمتع بالسلام الذي ما استطاعت الارض اصلًا ان توليني اياهُ »

وكان زين وراحيل في تلك الاثناء يواصلان سفرهما حتى وصلا الى خيام العرب النازلين في الوعر فاستراحا بضع ساعات في نفس الخيمة التي فيها استراحت راحيل مع خادمها موسى يوم عودتهما للمرة الاولى من زيارة جزيرة قدس ثم جدّا في المسير

فلمّا انتهيا الى سهل البقيعة شاهدا كوكبة من الفوارس تلمع خوذهم ورماحهم على نور الشمس ولم يعلم زين هل هم قوم من غُزاة البدو ام من متاولة الهرمل ام بلاد بعلبك. وعلى كل الاحوال قد تخوّف منهم وحقّهُ ان يتخوّف لانهُ كان قد انزل بالاخيرين خسائر عظيمة في ما كان من الأحداث الاخيرة بلبنان. وقد كان خوفهُ خاصّةً على قرينتهِ فرأى الاصوب والافضل ان يجتنب ملقاهم ولكن الفرصة كانت قد فاتت لان المذكورين كانوا قد ابصروهما من بعيد فقصدوهما فلما صاروا على مسافة قريبة رأى زين مع التعجّب انهم قوم لبنانيون من عساكر الامير رزق الله. وكانت الحملة التي اعدّها الامير المشار اليهِ على القليعة سريعةً للغاية ومكتومة حتى ان القوم في البترون لم يكونوا يعلمون بشيء من امرها فعند ذلك سألهم مقدّم البترون قائلًا:

من اين انتم آتون ؟

— من القليعة. قال هذا زعيم تلك الكوكبة ثم قصّ على المقدّم اخبار ما جرى من الحوادث بالتفصيل الشافي وان الامير رزق الله مع بحثهِ البليغ عن منفى الاب يوحنا لم يعرف حتى الان اين هو وانهُ يرى كل ما اتاهُ من الاعمال لا يجدي نفعًا اذا لم يقف على آثار سيدهِ المكرّم

ويعوّض عليهِ كل الاساءة التي اترلها بهِ جوسلين

قال زين : اريحوا بالكم فان الاب يوحنا مقيم الآن في جزيرة بحيرة قدَس وقد ذهبنا اليهِ وتكلمنا معهُ كثيرًا لاقناعهِ بترك المحل المذكور فذهب كلامنا عبثًا . ولا ريب ان الامير رزق الله يكون اسعد منَّا حظًّا

— بناء عليهِ قد وفَّينا مهمَّتنا فما بقي علينا الَّا ان ننهي الخبر الى مولانا الامير

ثمَّ انهم لووا اعنَّة الخيل وساروا في طريق جبل اللكام وانحرف زين وراحيل يسرةً وسارا في جبال عكار وكانت الطريق التي اختاراها طويلة غير انها آمن الطرق المؤدية الى البترون . وكان اعزّ شيء يشتهيانهِ ان يصلا الى قصرهما ليتمتَّعا فيهِ بنعيم السعادة ويقضيا اوقاتهما بتبادل الحب والعناية بطفلهما الصغير . واما الماضي فكانا ينزلانه منزلة حلم مشئوم وكلَّما خطر لهما تذكاره يجتهدان في ابعادهِ عنهما

٢٤

كما انهُ تعرض للحياة البشريَّة ايَّام نحس وشقاء كذلك ايضًا قد تصفو لها السعادة ويبسم لها الحظ وقد ذاقت أُسرة مقدم البترون طعم الإمرين

وكان زين وراحيل يقتربان من البترون وقلوبهما تخفق كما سبق الخبر بحركة السرور والابتهاج ولمَّا انتهيا الى جبال الكورة ولاحت لهما تلك

المدينة الصغيرة وكزا فرسيهما فورًا تعجيلًا في السير وكانت راحيل اشدّ من بعلها شوقاً الى المنزل العائلي

وعند وصولها الى البترون وجدا ما لم يكونا بانتظارهِ من الحظ لانهما ما كادا يطآن عتبة القصر حتى استقبلتهما حنَّة اخت راحيل وشقيقها موسى ارشيدياقون انطاكية وهكذا اجتمع لاول مرَّة الباقون في ارض الشام من بيت لمبرياك بعد انفصالهم مدَّة سنتين

وكان موسى اخو راحيل قد عاد حديثاً من سفرهِ الى رومية وما كاد ينزل في طرابلس حتى جدَّ مسرعاً الى انطاكية ليؤدي الى بطريركهِ حساباً عن نتيجة المهمة التي ذهب في شأنها

وكانت انطاكية عاصمة البلاد السوريَّة في ما سلف من الزمان قد انحطت كثيرًا عن مقام عزّها لان الحروب والزلازل التي تناوبتها لم تبقِ فيها غير خراب ودمار . وكان الناس مع ما حلَّ بها من النكبات المتكرّرة يحبُّون استيطانها لما تفرَّدت بهِ من حسن الموقع لانها غير بعيدة عن البحر وعلى ضفة النهر العاصي وبالقرب من سهل مشهور بخصبهِ وريفهِ

فحالما وصل موسى المذكور الى انطاكية توجَّه الى الدار البطريركيَّة وكان ذلك في الرابع عشر من ايلول الموافق عيد ارتفاع الصليب المقدَّس

وكانت الكنيسة الكاتدرائيَّة القديمة التي تجدَّد بناؤها مرارًا قد قامت فيها الطقوس والتراتيل وتصاعدت دخنة البخور . وكان البطريرك جالساً بقرب الايقونوستاس على عرش عتيق قد نجا من النكبة الكبرى التي اصابت الكنيسة الملكيَّة وكان الشمامسة يضعون على كتفيهِ قميصاً

من الديباج محبوكاً بالذهب مربوطاً بالجلاجل رمزاً الى قميص هرون. ثم جاؤوا بالامفوريون المحبوك بالذهب وكانت قد عُلقت بهِ ذخائر القديسين واتوا بعدهُ بصليب الصدر وعصا الرعاية التي كانت تنتهي برأس حيَّتين متقابلتين. ومن بعد هذا كلهِ لبس البطريرك التاج المثلث الذهبي وكان مرصعاً بصور الاثني عشر رسولاً ورسم الصليب المقدس بحجارة الماس

وكان رؤساء الاساقفة يحفُّون براعيهم والشمامسة يتبعونهُ بملابس سوداء وشعور طويلة مرسلة على اكتافهم. حتى ان من ينظر على نور الشمع ما بين دخنة البخور الى هؤلاء الاحبار ذوي اللحى الطويلة التي بيَّضها ثلج المشيب والسيماء الشبيهة بسيماء الاقدمين وهم بملابسهم الذهبيَّة يتوهَّم ان صور القديسين الاولين في الكنيسة اليونانيَّة قد نزلت من على الايقونوستاس الذي رسمتها عليهِ أقلام البيزنطيين او ان الاساقفة المذكورين لشدَّة تمعُّنهم في هذه الصور الناتئة قد ارتسمت اشباهها على وجوههم فصارت هي هم

وكانت الرتبة الطقسية متلاحقة ما بين التراتيل والصلوات ممَّا يحمل الحاضرين على الظن انهم في ايام فم الذهب وباسيليوس الكبير لان الملابس القدسيَّة ما زالت باقية كما كانت وكذلك التراتيل والسجدات غير انَّ اللغة قد تغيَّرت فقامت العربيَّة بدلاً من اليونانيَّة وفيها كانوا يقرأون القراءات والفصول المأخوذة من الكتاب المقدَّس امَّا الصلوات والطلبات فقسم غير قليل منها كان يُتلى في السريانية (١

---

١) راجع المشرق ١٩٠١ ص ١١٢١ و ١٩٠٢ ص ١٠٤

وبعد ان سكتت التراتيل وتبدَّدت دخنة البخور وتمت حفلة القداس تمكَّن موسى رئيس شمامسة الكنيسة الانطاكيَّة ان يؤدي حساباً للسيد البطريرك عن المهمَّة التي سافر في شأنها

وقد تقبَّلهُ البطريرك المشار اليهِ محفوفاً باخصّ الموظّفين في كرسيهِ وكان شيخاً جليلاً قد اثقلهُ وقر السنين ذا وجه كالشمع ولحية طويلة قد اشتعل فيها بياض المشيب كالايقونات المعلَّقة على جدران الكنيسة

وحالما قبَّل موسى رئيس الشمامسة يدهُ دفع اليهِ الرسائل التي اتى بها من قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس الثاني مع سائر الاوراق التي جاء بها من رومية وبقيَّة اوربَّة

وكان موسى المذكور قد التقى في مدينة سيانة ببيوس الثاني لدى رجوعهِ من مجمع مانتوة الذي انعقد للنظر في شؤون الشرق (١ ومن هناك لحقهُ الى رومية

وكان قداستهُ قد تقبَّل في مواجهة خصوصيَّة مندوب البطريرك الانطاكي الذي كان في الوقت نفسهِ مندوباً من قبل بطريركي اورشليم والاسكندريَّة (٢ واستعلم منهُ بعناية واهتمام عن احوال المسيحيين الشرقيين الذين كان يحب الوقوف على اخبارهم. ولمَّا كان البابا المذكور عالماً كبيراً حسن الاضطلاع بالعلوم الادبيَّة لدى اليونان واللاتين تحدَّث ملياً مع موسى الذي كان ايضاً من العلماء الممتازين (٣

---

١) راجع پاستور تاريخ البابوات

٢) پاستور والمشرق (١ : ٦١)

٣) المشرق (١ : ٦٢)

ولم يكتفِ البابا بما اظهر من ادلَّة الالتفات بل احب ان يتقبَّل في مواجهة علنيَّة رئيس شمامسة انطاكية لكي يتسلَّم منهُ بصورة احتفالية رسائل الانضمام المبعوثة من قبل بطاركة اورشليم والاسكندريَّة وانطاكية (١ وكان هذا الامر قد ابهج قلب بيوس الثاني الذي اذاع في هذه المناسبة منشورًا حبريًّا

وجرت لموسى ايضًا محادثات طويلة مع بساريون الكردينال اليوناني المشهور الذي افرغ كل مساعيهِ لإعادة الكنيسة اليونانيَّة الى الوحدة. وقد سلَّم بساريون الى موسى بعض كتابات من قبلهِ الى بطاركة الشرق يحرّضهم فيها على الثبات في تمسُّكهم بقوانين مجمع فلورنسة التي صادقوا عليها مع اساقفة الغرب

ولسوء الحظ حدث انهُ لمَّا عاد رئيس الشمامسة المذكور شاهد انقلابًا عظيمًا في استعدادت بطريركهِ لان رصيفهُ بطريرك القسطنطينيَّة استاء من مذاكراتهِ مع رومية وما زال يعمل على تغيير افكارهِ حتى استمالهُ الى ما أراد. ولا عجب في ذلك فان بطريرك انطاكية هذا كان سريع التقلب طائش الرأي لانهُ بعد ان وقَّع لاول مرَّة مجمع فلورنسة بواسطة معتمدهِ ايزيدور رئيس اساقفة كياف عاد فحرمهُ في مجمعين من الاساقفة انعقدا في اورشليم والقسطنطينيَّة (٢. واذا كان قد سيَّر موسى رئيسَ الشمامسة الى رومية فانما قصد من ذلك مرضاة بعض الاساقفة

---

١) پاستور

٢) المشرق (١ : ٦١)

التابعين لهُ واستمالة القدَّم رزق الله اليـهِ فكل ما عملهُ اذًا قد تحرَّى بهِ التسويف واغتنام الوقت

على انهُ تقبل بالاحترام رسالة البابا وبعد ان أَطلع عليهـا قال: « سنتذاكر في شأنها مع اخوتنا الاساقفـة لان اقصى امانينا ان نرى الاتحاد ناشرًا لواءَهُ بين جميع المسيحيين »

وما كان منهُ هـذا الكلام في الحقيقة سوى اسلوب ادبي لطيف للتخلُّص من البحث في مسـألة الاتحاد. وكان البطريرك المذكور كسائر الاشخاص الطاعنين في السن يتردَّد كثيرًا ولا يجزم بشيء. ولمَّا اجتمع الاساقفة لمداولتـهِ خطب موسى في الجميع موضحًا المنافع الكثيرة الناجمة عن التقرب إلى الغرب فلم يفُز بوطر

وكان من جملة ما ورد في خطابهِ قولهُ: « ان البابا لا يطلب منَّا تضحية ولا شيئًا آخر يضرّ بنا ويجحف بصوالحنا بل يريد ان نحافظ على عاداتنا القديمة وليتورجيتنا وسلسلتنا الاكليريكية. ثم انهُ يبقي لنا الطقوس التي باشرها اجدادنا على ممرّ الاعصار الماضية واللغة التي رفعنا بهـا في حالتي السرَّاء والضرَّاء أصواتَ الوطن الارضي نحو الوطن السماوي . وليس ذلك فقط بل يريد منَّا ان نحفظ الكهنة والاحبار من دمنا وسلالتنا وصلوات لغتنا والاتحاد مع كنيسة انطاكية المقدسة والشركة مع اخواننا في العسر واليسر ولا يُرئس علينا قطعًا رؤساء غرباء او يفرض استعمال لغة مجهولة وطقوس جديدة غير التي كانت لاجدادنا. وان كانت رومية تريد ان ترى منَّا تـلامذةً للمسيح اعظم كمالًا فلا تلزمنا بجحود اصلنـا ونسيان ماضينا. وغاية ما يطلبهُ منَّا بيوس الثاني هو ان نعترف بما اعترف بهِ آباؤنا منذ اعصار طويلة اعني اوَّليـة خلفاء بطرس الرسول. على ان

بطريركية انطاكية لا تدّعي بحمد الله ما تدعيهِ بطريركية القسطنطينية ولا تلقّب نفسها بالمسكونية فما الداعي اذًا الى اقتفاء آثارها وسلوك منهاجها

« واذا كانت رومية لم تولِّ علينا في الماضي رؤساء اجانب فلم تتصرَّف معنا مثل هذا التصرُّف بطريركية القسطنطينية لان بطاركة هذه الكنيسة اي كنيسة القسطنطينية لا يهتمُّون الَّا بمنافع اليونان وصوالحهم وقد ابدت لنا التجارب اننا كلَّما حاولنا اقترابًا منهم عاد ذلك بمزيد الضرر على استقلالنا الديني والوطني ومن منكم لا يتذكر البطريرك ثيودورس بلسامون الذي نصبتهُ القسطنطينية على بطريركية انطاكية وما اثار من الحرب الشديدة على ليتورجيَّاتنا وعاداتنا (١ أفما كان الاجدر بنا ان نتعظ من هذا الامر وحدهُ ونتخذ الحيطة لانفسنا

« ولا يخفاكم اننا عشنا مع الغرب مدَّة اعصار طويلة على اتمّ وفاق وسلام وكانت تلك الأيام كما تعلمون افضل ايام تاريخنا بل يمكننا ان نثبت اننا ما انفصلنا قطّ انفصالًا تامًّا عنهُ او بالحري ان هذا الانفصال لم يعمّ البطريركيَّة (٢ . وماذا يا ترى غنمنا من وراء الانفصال أَو ليس التاريخ افضل شاهد على اننا لم نجنِ غير الخسران. اما ترون ان الانفراد ليس بكافل لسعادة صاحبهِ بل انهُ مجلبةٌ لفقدها . ام ليس الافضل ان يعتمد المرء على ذي سلطة قويَّة لا يريد لهُ غير الخير والعلاء . واذا اتحدنا مع الكاثوليك نصير مع محافظتنا على استقلالنا الخاص مرتبطين

---

١) المشرق (٣ : ٢٧١ و ٢٧٢)

٢ مجلَّة صدى الشرق ١٩٠١ . ص ٢٧٤

مع سائر العالم المسيحي وتعدّنا البابويّة بمعاونتها الادبية كما يعدنا الغرب كلهُ بعضدهِ ويعنُ علينا بميلهِ وارتياحهِ »

وكان لهذا الكلام الذي فاه بهِ موسى رئيس الشمامسة وقع عظيم في الحاضرين حتى اقتنع بهِ كثيرون من الاساقفة وعضدوه لانهُ في القرن الخامس عشر لم يكن من وجود لاخويّة القبر المقدس اليونانيّة فكانت بطريركيّة القسطنطينيّة لا تستطيع ان تتصرّف بانطاكية كما تشاء وتريد على مثل ما جرى بعد ذلك ممّا عاد بالضرر العظيم على الكنيسة الملكيّة

على ان هذه الكنيسة قد شعرت في أواخر القرن التاسع عشر بما يتهدّدها من خطر ضياع استقلالها الديني فقامت من ثمّ تستردهُ شيئاً فشيئاً وطلّقت حماية الفنار وانكرت وحدة الاصل بين اليونان والملكيّة (١ وان كان قد حامى الاولون عن هذا الامر لاغراض لا تخفى

غير ان كل الادلّة التي اتى بها الاساقفة الراغبون في الاتحاد لم تقوَ على اقناع ذاك الشيخ الجبان فكانت غاية ما عملهُ انهُ قرّر وجوب الشكر للبابا بيوس الثاني على عواطفهِ الحسنة نحو الكنيسة الشرقيّة. وكان يظن انهُ بهذه الطريقة يتحاشى الدخول في اساس مسألة الاتحاد دون ان يقطع العلائق مع رومية.

وبعد ان قام موسى بما يجب عليهِ في انطاكية كان اول خاطر خطر لهُ ان يزور شقيقتهُ راحيل التي طال عهد غيابهِ عنها فشخص الى طرابلس واستصحب شقيقتهُ الصغرى حنة وسار الاثنان الى قصر البترون وكان

---

١) الارج الزكي والمشرق (٤: ٦٧٠ و ١١٢٤ الخ)

وصولها اليهِ قبل رجوع زين وقرينتهِ ببضع ساعات من جزيرة البحيرة

ولو ان هذا الشقيق الشفيق وصل الى البترون قبل ذاك الوقت باسبوع واحدٍ لادّى قدومهُ بلا ريب الى تجديد الاحزان على تلك القرينة المهملة. امّا الآن وقد وافى بعد امتزاج الزوجين فقد شمل الفرح قصر البترون ولاسيا راحيل التي كانت قد دفنت الماضي في قبر النسيان وآلت ان لا تذكرهُ

وتحدّث موسى مليّاً مع المقدم زين عن مدينة رومية وسائر المدن الايطاليّة التي زارها. وقد سألهُ المقدم عن البندقيّة التي كانت سفائنها تأتي في مواقيت معيّنة الى طرابلس وبيروت (١ وتقف بعض الاحيان في مياه أنفة البترون

وكان موسى قد مرّ على مدينة جنوة التي نشأت فيها أُسرة لبرياك قديماً ولدى عودتهِ من اوربّة عرّج على قبرس لمشاهدة آخر فرعٍ بقي من اسرتهِ التي هاجرت من سوريّة الى تلك الجزيرة ولم يلبث المذكور ان توفي بعد سنوات قليلة غير تارك عقباً (٢

وفي مرورهِ على مانتوة لاقى مندوبي الجزائر اليونانيّة ذاهبين الى رومية لاجل طلب حماية البابا. وتحدث ايضاً مع مندوبي دوق بورغندية. ولمّا علم المذكورون ان موسى رئيس الشمامسة آتٍ من سوريّة اخذوا يستعلمونهُ عن الاب يوحنا الذي كان اميرهم يشتاق الى سماع اخبارهِ

ولمّا عاد موسى الى رومية بمعيّة الحاشية البابويّة وصل اليها الامير

---

١) راجع هيد: تاريخ تجارة الشرق والقلقشندي
٢) دوكانج: كتاب الأسر

توما احد امراء اليونان من سلالة ملوك باليولوغ وكان فارًّا من وجه اعدائه وحاملًا ذخيرة نفيسة وهي رأس اندراوس الرسول(١ فلمّا وصل بالذخيرة المذكورة استقبلتهـا المدينة الازليّة بما لا مزيد عليهِ من الاحتفـالات والتكريمات. وقصـارى القول ان موسى اطلع في كل محلّ مرَّ بهِ على نهضة الكنيسة الكاثوليكيَّة وسطوة البابويَّة وكان دائمًا يقابل هذا النجاح والتقدم مع ما يراهُ في الكنائس المنفصلة من التأخر. ولم يكن امر كهذا ليخفى على بصيرة وقَّادة كبصيرة موسى

وبعد ايام عزم المذكور على الذهاب الى بشراي لمواجهة المقدم رزق الله فصدَّهُ عن ذلك صهرهُ المقدم زين الذي اطلعهُ في الوقت نفسهِ على كل ما جرى من الحوادث في جبل اللكام وفي ناحية بحيرة قدس

٢٥

بعد ان مضت ايام قليلة على سفر مقدَّم البترون أُخرج الاب يوحنا من محبسهِ بأُبهة غير مألوفة

وكانت شواطئ البحيرة في ما مضى هادئة مقفرةً لا حركة فيها غير انها تحوَّلت في ذلك اليوم الى عكس ما كانت عليهِ فما كنت ترى غير رجال وخيل ولا تسمع سوى صراخ وضجيج واوامر تصدر الى الزعماء مصحوبة بصليل السلاح و بريق السيوف والرماح والدروع المتلألئـة

---

١) باستور

تحت انوار الشمس. وكانت الزوارق والقوارب تتجه من كل انحاء البحيرة والسدّ وقرى قطينة وزمارية وكفر عبده ذاهبة الى تلك الجزيرة الصغيرة

والتفت الاب يوحنا من نافذة كوخهِ فوقع بصرهُ الضعيف على جمع غفير يتماوج على ضفاف البحيرة وقوارب عديدة سائرة نحو الجزيرة بركابها فرابتهُ هذه الحركة وقلق مما شاهد من السلاح والجنود واخذ يحدّث نفسهُ قائلًا : « أترى هم آتون لينقلوني من سجني هذا الى سجن آخر ؟ وهل تردّد راحيل والاب جرمانوس ايقظ ظنون جوسلين فرأى ان حالتي في منفاي لم تزل خفيفة محتملة فجزم بابعادي الى حيث اذوق مرارةً اشدّ ؟ » وتذكّر اذ ذاك بارتعاش ما قاسى من الجهد والمشقة في سفره من دير الصليب الى بحيرة قدس وما تكبّد من فظاظة البدو الذين ساقوهُ اليها

وبينما هو في هذه الافكار كانت القوارب قد وصلت الى شاطئ الجزيرة وفي مقدمتها زورق خرج منهُ اثنان اول الجميع وكان احدهما طويل القامة شاكّ السلاح يدلُّ ظاهرهُ على انهُ زعيم تلك الجماعة نظرًا لما كان يُحفُّ بهِ من الاكرام والاعتبار . واما الآخر فكان اكبر سنًّا ومترديًا بملابس راهب. وما كان غير قليل حتى وصل المذكوران الى كوخ الاب يوحنا فبادر الاول وقبّل يديه باحترام وانطرح الثاني عليهِ فعانقهُ بانعطاف وكان الاول الامير رزق الله والثاني فرا غريفون

واول ما وقع بصر الامير رزق الله على ذاك الرجل البار خاطبهُ قائلًا :

نحمد الله اننا التقينا بك في آخر الامر

فقال ذلك الشيخ الجليل: ان الله سبحانهُ لم يسمح بموتي قبل ان يعزّيني بان ابارك ولدًا احبهُ وأُعانق رصيفًا قد طالما صحبتهُ في سبيل خدمة المخلص

قال هذه الكلمات والتفت الى فراغريفون وعانقهُ طويلًا وهو يذرف الدمع فعمل هذا المشهد المؤثر في كل من حضرهُ ولاسيما الامير رزق الله الذي لم يكن يقوى على تحويل بصرهِ عن وجه مثقّفهِ وغارس العواطف الشريفة فيهِ. وكانت الاوجاع التي قاساها الحبيس في السنتين الاخيرتين من حياتهِ قد خلّفت فيهِ آثارًا تدلُّ على ما كان تأْثيرها عليهِ فان لحيتهُ كانت قد ابيضّت كالثلج ومحيّاهُ قد استطال ودقّ وعينيهِ قد غارتا تحت الحجاج ورجليهِ قد خارتا فصار اذا مشى يتوكأ على العصا. غير ان صوتهُ لم يتغيَّر استمرَّ محافظًا على ما فيهِ من لطف وحلاوة وكان اذا تكلّم أشعر دائمًا بما يكنّهُ ذاك الشيخ الجليل من نفس عالية وعواطف سامية

ولمَّا نظرهُ المقدم رزق الله على هذه الحال فاضت الدموع من مقلتيهِ ولم يستطع كتمان ما جاش في صدرهِ من الغضب على الذين عذبوا هذا الاب القديس فقال:

يا لهم من برابرة كيف اساؤوا معاملتك. غير ان الاب يوحنا تظاهر بانهُ لم يسمع ما قيل لهُ فاستأنف الكلام ممسكًا بيد فراغريفون والامير رزق الله فقال:

الشكر لكما كل الشكر اذ اتيتما لتغمضا عينَيْ هذا المنفيّ المسكين. الان استطيع ان اموت مطمئنًا لاني رأيتكما وضممتكما بين ذراعيَّ. اللهمّ انك اوليتني سعادة عظيمة لم اكن استحقها

فقال الامير رزق الله : لا تتكلّم هكذا يا ابي لان الله انما جمعنا حتى لا يفرّق بيننا ولقد علمتُ بكل ما قاسيتهُ من النكد والاوجاع ولمتُ نفسي كل اللوم على كوني لم اعرف كيف اتلافى كلّ ما حلَّ بك ولست نادماً الّا على انك صددتني عن إنزال غضبي بالمنافق جوسلين ولا ريب انك تتذكر ذلك . غير اني عازم على تعويض الشرّ الذي لم استطع تداركهُ . واعلم ان محبّتنا البنويّة تعرف كيف تُنسيك مرارة الزمن الماضي . وفي الختام اقول لك ان يد الله العادل قد ثقلت على من كان يضطهدك

— أعلى جوسلين ؟ قل يا ابني هل حدث لهُ سوء ؟

— لم يَعد بين الاحياء

— هل مات ؟ وكيف ؟ هل عرف ضلالتهُ ؟ وهل استغفر الله والبشر ؟ . ولا ريب انك يا فراغريفون كنتَ حاضراً فاخبرني هل عاند ما بذلتَ لهُ من النصائح حتى يُنيب الى الله

فقال فراغريفون : انهُ مات كما عاش دون ان يبدي أسفًا على الماضي ولقد حاولت كثيراً ان أُغيّر قلبهُ الجاسي فذهب السعي باطلًا

وهنا قال الامير رزق الله : انَّ المشنقة قضت اخيراً قضاء عادلًا على حياة مشحونة بالآثم والجرائم

فقال الحبيس متوجعاً : ماذا تقول يا ابني هل مات جوسلين دون ان يندم على اساءاتهِ ؟ ثم خفض صوتهُ واخذ يقول في سرهِ : ولكن كم من مرة قدَّمت اوجاعي بل قدَّمت حياتي ايضاً لاستدرّ لهُ نعمة الاعتراف بذنبهِ قبل ان يقف امام منبر الديان الرهيب . كلا لا اظن انَّ عملي ذهب باطلًا ويلزمني ان اصلّي ايضاً وابتهل من اجل هذا الضال الشقي

ثم ان الاب يوحنّا رفع بصرهُ الى السماء متوسلًا وكانت حركات شفتيه وهيأة عينيه الشاخصتين في العلاء تُشعر بانهُ يُصلّي بايمان عظيم وحرارة شديدة طالبًا من الحقّ سبحانهُ رحمةً ورأفة بمن عذّبهُ ونكّد عيشه. فيا لله ما كان اعجب منظر شيخ في الثمانين من سنّه يبتهل من اجل جلّادهِ ومضطهدهِ

ولما شاهده الحضور على هذه الصفة اخذوا يأملون املهُ بل يوقنون مثلهُ ان الرأفة الالهيّة حركت في الدقيقة الاخيرة قلب جوسلين على الانابة والندم علمًا منهم ان للرحمة والنعمة في بعض الاحيان أسرارًا خفيةً لا تبصرها عيون الناس لان الله عزَّ وجلَّ قد يكشف نفسه عند آخر دقيقة من الحياة للنفوس التي كان معظم شقائها بجهلهِ فتكون آخر زفرة تصدر منها بمثابة نحيب يستدعي المغفرة من الذي يسبر اعماق القلوب

وهذا الامر عينه يحدث لالوف من النفوس التي تكون مديونة بالنعمة المذكورة لقوم مستترين من اهل التقى ونقاوة القلب ولا ريب ان الله تعالى لم يكن ليرفض هذه المنحة على حبيس البحيرة الذي كان يلتمسها دائمًا بصلوات وتضرعات متتابعة

ثم ان الامير رزق الله هتف قائلًا : عليَّ ان اعوض عما جرى. وعليك ايها الاب ان تترأس العمل فتتمم كلّ ما تأمر بهِ فنبتدئ بتجديد دير القديسة تقلا

— ما معنى كلامك فهل خرب الدير ؟

— قد احترق بدسائس من قد طلبتَ لهُ رحمة المولى ورضوانهُ

— والرهبان ماذا جرى لهم ؟

— تفرّقوا تحت كلّ كوكب طالبين لهم ملجأً في جبــل اللكّام وجبل عكار

— والكنيسة والمكتبة اخبرني ماذا جرى لهما ؟

— قد اتلفتهما النار كما اتلفت سائر الدير

فلمّا سمع الاب يوحنــا هذه الكلمات الاخيرة تنهّـد متحيّرًا وظهرت امــائر الغم والكآبة على ذاك الوجه الذي كان يحافظ دائمًا على الهدوء والبشاشة لان البار المذكور وان كانت قد ماتت فيهِ جميع الاهواء البشريّة من زمــان مديد غير انهُ ما زال متعلقًا بالعلم وَلوعًا بهِ . ومع أنهُ كان قد نسي أُسرتهُ واوطانه بقي كلفًا بدير القديسة تقلا فاهتمَّ اكثر من كل الرؤساء الذين سلفوهُ بان يجعلهُ مركزًا للعلم والتمــدن الحقيقي في جبل النصــيريّة الذي يعرف الكلّ ما اختصَّ بهِ اهلهُ من الهمجيّة والتوحش . وقد صرف عنايته بنوع خاص الى مكتبة الدير المذكور وجدَّ وكدَّ مدة طويلة من الزمان حتى جمع فيها عددًا من التآليف النادرة والتصانيف العزيزة المنال

وكان يرى ان للذين تعرضوا لاذاه اسبابًا وعللًا تحملهم على ذلك لكنهُ لم يكن يخطر لهُ ببــال أنّهم يتصدون للكتب التي جمعها . ومما سبق بيانه ترى ان هذا الرجل العظيم وحيد دهره قد نظر ببصرهِ الثاقب الى علماء الزمان الحاضر الذين يجتهدون بقوّة البحث والتنقيب في تحليــل المشاكل التاريخيّة لكنهم يتوقفون عنهــا لعدم وجود تصانيف يعوّلون عليها ولهذا فقد اجتهد مقــدّماً في إعداد التصانيف المذكورة . غير انهُ خوفًا من ضياعها عُني بتكثير نُسخ الثمين منها وكان يظن انهُ بهــذه الوسيلة قد ضمن بقاءهــا للعصور التالية ولم يخطر لهُ ببال انهُ سيندفع

عليها غضب جوسلين ويُسلمها الى النار بواسطة طواغيته فمن ثم اصابه من الكآبة لدى علمه بحريقها ما لا يحيط بهِ وصفٌ

ودرى الامير رزق الله بما يمزّق قلبه من الآلام بسبب هذه الخسارة التي لا تعوّض فاحبَّ ان يصرف فكره عنها فخاطبهُ قائلًا :

هلمَّ نسافر الآن يا أبتِ . تعالَ نرجع الى لبنان الى هذه الارض التي تحتفي بنازليهـا وتحفُّهم بالاكرام . الى حيث ترى القلوب كلها مخلصةً لك . هلمَّ فاني محتاج الى مشوراتك ونصائحك تكميلًا للاصلاح الذي شرعتُ فيهِ من زمان مديد . هلمَّ فعلِّمني هذه الصناعة الصعبة صناعة سياسـة الناس وتدبيرهم . . .

— بل دعني أتعلَّم كيف أموت فقد مضى عليَّ خمسون سنة وانا اتمرّس على هذه الصنـاعة وما اظنك تريد ان يلحق ادنى ضررٍ بالعمل الذي قضيتُ في انجاحهِ مثـل هذا الزمان الطويل . أُترك الشجرة حيث هي راقدة ولماذا كل هذا الاهتمام بالجسد الترابي الحقير وبما ان دير القديسة تقلا قد خرب وانقطع الامل من مشاهدة اخواني فيـهِ فلم يعد من فائدة للسفر الذي تدعونني اليهِ . واذا كنتُ قد هجرت العـالم في ايام الشباب وعنفوان العمر فلا اشتهي ان اعود اليهِ وقد فني الجسم وانهـدَّ الحيل . وبناء عليهِ لم يبقَ لي الّا ان استعدَّ للسفر الابدي العظيم الذي قرب اوانه ودنا وقت حلوله

فاجاب فرا غريفون قائلًا : اننا جميعًا نأمل عكس ما تقول على انك اذا كنت مصمّمًا على انفاق بقية العمر في الخلوة والوحدة فاي بأس عليك اذا اتيتَ الى جبل لبنان فاتخذتَ لك مقامًا إمّا في وادي قنوبين

او في وادي قديشا. هذا ما لم تتنازل لقبول الضيـــافة في محبستنا بمار سركيس بشراي فتوليني بذلك اعظم مسرَّة

امَّا الاب يوحنَّا فاجاب قائلًا : دعني يا اخي انتظر داعي العناية الالهيَّة في المكان الذي انزلتني بهِ. واعلم ان جسدي الحقير لا يستأهل كلَّ هذا الاهتمام. ثم انك تعلم ضعفه واسقامهُ فكيف يستطيع تحمُّل مشاقّ السفر

فقال المقدَّم : انَّا نحملك على اكتافنا بل في قلوبنا. قل كلمـــةً فنسافر

— اشكر لكم كل الشكـــر يا اولادي فاني غير مستحق لهذه المجاملة

— فقال فرا غريفون: ماذا نجاوب دوق بورغندية نسيبك فقد اوصاني في زيارتي الاخيرة لاوربة ان أُعلمهُ باخبارك

— قل لهُ ان الاب يوحنا قد مات لان موته صار منتظرًا من وقت الى آخر. واماَّ انتم يا اولادي الاعزاء فعودوا الى لبنان وحافظوا دائمًا على وديعة الايمان وانزلوهـــا منزلة أنفس الكنوز واعتبروها بمقام درقـــةٍ لاستقلالكم وحريتكم فقد طالما عادت على بلادكم بالعظمة والفخار. ترى ماذا يحل بكم لولا هذه الوحدة الثمينة الغالية. فمن اجل صيانتها بينكم لا تحجموا عن احتمال اكبر الضحايا. ولا تصيخوا الى دسائس الساعين في القاء الزؤان بينكم. يخاطبونكم عن الاستقلال الديني ونبذ التعلق بمركز الوحدة . . . فاعلموا ان مصدر ذلك كلهِ الكبرياء والعجرفة والمبادىء التي تسوق الى الهلاك. واذا شئتم ان تتحققوا نتائجها المحزنة

فانظروا فقط الى من حولكم وشاهدوا ما احدثتهُ في سائر الطوائف الشرقيَّة فتجزَّأت وتقسَّمت وفقدت الحياة الروحيَّة والعقليَّة وهيهات ان يتهيأ لها استرجاعها ما دامت على هذه الحال. واذا كان اللبنانيُّون قد تألفوا طائفةً فانهم قد توصلوا الى ذلك بانضمامهم الى رعاتهم المرتبطين اشد الارتباط بالكرسي الرسولي. ولو افترضنا انكم بقيتم منفردين ومتكلين على حيثيتكم الخصوصيَّة لما كنتم شيئاً مذكوراً ولصرتم اشبه بقطرات قليلة ضائعة في اوقيانوس البشريَّة العظيم ولكنكم باتحادكم مع اخوانكم في المغرب تتقدمون بقوتهم

تذكروا ان رومية في اَيامكم السود قد طالما عاملتكم نظير امّ رؤوف ولا يخفى عليكم ان الولد يشين نفسهُ اذا احزن قلب والدتهِ. انضمّوا اذًا حول رؤسائكم الروحيين والزمنيين اي حول بطريرككم الجليل مار بطرس (١ واساقفتكم اعوانه ومقدَّمكم الباسل الامير رزق الله. اسمعوا نصائح فرا غريفون فانَّ فضائلهُ وبقاءَهُ مدة خمس وعشرين سنة يشتغل فيها لصوالحكم بكل اخلاص (٢ تخوّلهُ الحق بان تكونوا لهُ اولادًا طائعين. الآن استودعكم الله ايها الابناء الاحباء وأباركم من صميم قلبي». ثم رفع يديهِ وعينيهِ الى العلاء

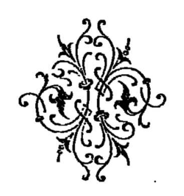
وكان الامير رزق الله قد تأثَّر كثيرًا من هذا الخطاب فصاح بجنودهِ فركعوا جميعًا كرجل واحدٍ وقبلوا بركة الاب يوحنا وهو يقول: بسم الآب...والابن...والروح القدس...امين

---

١) سلسلة البطاركة (المشرق ٤: ٣٥٠)

٢) المشرق ١. مقالتنا في فرا غريفون

وكانت هذه الكلمات آخر ما نطق بهِ فلم يستطع بعدها لا الامير رزق الله ولا فرا غريفون ان يزعزعا شيئاً من عزمهِ . وغاية ما امكنهما انهُ رضي بان يبقى لديه لاجل العناية بهِ احد اخوانهِ القدماء في الرهبانيَّة وهو الاب جرمانوس الذي مرَّت اخبار اخلاصه لحبيس بحيرة قدس



خاتمة

مرّ على الحوادث التي سبق بيانها نحو من خمس وعشرين سنة وصار القرن الخامس عشر على وشك الانقضاء والزوال

وكان اكثر الذين مثّلوا ادوار هذه الرواية قد غابوا اثناء الفترة المذكورة عن ساحة الوجود. وكان الاب يوحنا حبيس بحيرة قدس اول من غادر الدنيا منهم لانهُ بعد مفارقة اعزّائهِ اللبنانيين لم يلبث طويلًا حتى ادرك نهاية المحن الارضيّة مجيبًا داعي الله الذي استقدمهُ اليهِ ليكافئهُ على حياةٍ صرفها بالاوجاع والعذاب وخدمة البشر باخلاص

وكما ان رجلًا آخر عظيمًا أتى بعده بنصف قرن اعني بهِ القديس فرنسيس كسافاريوس أتمّ انفاسه في جزيرة مقفرة اسمها سنسيان واقعة تجاه الصين هكذا الاب يوحنا اسلم روحه بهدوء في جزيرة بحيرة قدس غير انهُ كان أسعد حظًّا من رسول الهند واليابان لانهُ مات بحضور الاب جرمانوس احد رفقائه القدماء في الرهبانيّة

وبقيت وفاته مستترة غير معروفة نظرًا لما توالى من الحوادث الهامّة في جبل لبنان فان الامير رزق الله حالما عاد من جبل اللكام أصابهُ داء غريب اعجز حيلة الاطباء في ذاك الزمان. وبما ان القوم في شرقنا يرون ان عظماء الدنيا لا يموتون كسائر البشر وان الامراض وحدها لا تقوى على ان تصرعهم مالوا الى القول بوجود سرّ في الداء الذي اصاب امير الطائفة اللبنانيّة واخذ يسوقهُ بتدريج الى شفا القبر ولذلك كانوا في خلوتهم يتحدثون عن عبد المنعم ابن اخيهِ ويقولون بان لهُ يدًا في سقمهِ لكي يستبد بالولاية بعده

على اننا لا نبحث الآن في هل كانت اقوالهم صحيحة او فاسدة بل نقول انهُ بعد ان مضت بضع سنوات على حكومة المقدم رزق الله الموصوف بشجاعته واصالة رأيه وقويت آمال الرعية بحسن المآل وازدهار الاستقبال رزح المشار اليهِ تحت عبء المهمة التي وليها فكانت لوفاته رنّة اسف شديد في جميع انحاء لبنان لاسيما لان الولاية أفضت من بعده الى ابن اخيه عبد المنعم (١ مقدم جبيل الذي مرّ من اخباره ما هو كافٍ لاطلاع القرّاء على سوء حاله فهذا ما كاد يتولى شؤون الجبل حتى عادت اليهِ القلاقل والاضطرابات المدنيّة والدينيّة بل اشتدّ الخوف ايضاً من استفحال امر اليعاقبة الذين كان يعضدهم لولا ان الاب يوحنا وفرا غريفون كانا قد خلّفا وريثًا لغيرتهما اعني بهِ جبرائيل ابن القلاعي الذي عاد وقتئذٍ الى لبنان فافحم

---

١) الدويهي : تاريخ الموارنة

الهراطقة بسديد اقواله (١. وهكذا حافظت الطائفة المارونيَّة هذه المرَّة ايضاً على وحدتها التي كثيرًا ما عمل الاعداء على نقضهـا بمساعيهم الخبيثة

وبعد وفاة حبيس بحيرة قدس وامير بشراي جاءَت نوبة صديقهمـا فرا غريفون فان هذا الرسول القدام لمَّا كان قد كُلِّف من قبل البلاط البابوي ودوق بورغندية بقضاء مهمَّة في بلاد العجم أَبى ان يعتـذر بكبر سنّهِ البالغ ٧٥ عاماً فركب البحر قاصدًا طيّتهُ ولكنهُ ما كاد يصل الى جزيرة قبرس حتى أُصيب بمرض الموت (٢ فقضى هناك نحبهُ وافكاره متجهة الى لبنان الذي قد طالما احبَّـهُ ووقف عليهِ اعزَّ سني حياتهِ واثمنها

على ان اللبنانيين لم ينسوا تذكار هذا الرجل العظيم فان بطريركهم لما كتب في القرن السادس عشر الى البابا لاون العاشر سألهُ ان يبعث اليهِ مرسلين يضاهون فرا غريفون في غيرته (٣

واما زين وراحيل فكانا يعيشان في قصر البترون بسـلام ووئام محفوفين باولادهما وكانا قد انقطعا الى حسن تدبير الرعية التي سُلمت اليهمـا والعناية بايرادها موارد السعادة والهناء. فجاء خبر وفاة الاب يوحنا أَشبه بسحابة صيف طرأَت على جوّ افراحهما الذي لم تعرهُ منذ اتحادهما شائبة كدر ولا نريد بهذا ان معرفتهما لجميل ذاك الرجل البار

---

١) الدويهي والمشرق

٢) المشرق

٣) تواريخ رهبنـة مار فرنسيس

قد ثقلت عليهما أو انهما ذهلا ما هما مديونان بهِ لعنايته الابويَّة بل المقصود ان الحزن هو كسائر العواطف البشريَّة لا يستتبُّ لهُ دوام . والحق يقال انهُ لا شيء ينشف سريعاً مثل الدمع وان الانسان لا يقوى على تخليد أحزانهِ ولو كان يؤكد أحياناً بالأقسام المحرَّجة انهُ لا ينساها

وكان الموارنة قد شرعوا في ذاك العصر يستوطنون جبال كسروان محتلّين شيئاً بعد شيء هذه الناحية التي كانت قد اوشكت ان تُقفر بعد الحملة المشهورة على سكانها (١ القدماء وكان ذلك بداية لانتشارهم في جنوبي لبنان حتى أدَّاهم الامر مع كرور الازمان الى احتلال قسم كبير منهُ

وكان النصيريَّة بعد طردهم من عكار وجبل لبنان قد تجمعوا في جبل اللكام واستأنفوا المعارك القديمة مع الاسماعيلية حتى انجلى الامر اخيرًا عن انتصارهم نظرًا لوفرة عددهم (٢ وكانت امائر الانحطاط على الاسماعيليَّة قد ظهرت من قبل ثم اخذت تزيد ظهورًا في القرون التابعة متنذرةً بقرب تلاشيهم من سوريَّة

اما دير القديسة تقلا فبقي خرابًا لانهُ لم يجسر احد على تجديده من بعد اختطاف الاب يوحنا وكذلك قصر القليعة الواقع بالقرب منهُ

---

١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ومقالتنا في نصيرية لبنان (مجلة الشرق المسيحي)

٢) راجع مجلَّة الشرق المسيحي ثمَّ رحلتنا الى بلاد النصيرية ومجلَّة الابحاث

اصبح مأوى للوحوش بعـد وفاة جوسلين ولم يبقَ منهُ اليوم سوى طلل دارس (١

وقصارى القول انهُ في مدة ربع قرن من الزمان حدث تغيير عظيم في لبنان وسوريّة المتوسطة ولم يبقَ شيء ناجياً من التغيير سوى الطبيعة وخدها فان ميـاه بحيرة قدس استمرّت تتلألأ بلا انقطاع تحت سماء صافية الاديم زرقاء الاهاب

وكذلك ضفافها المخضلّة بالنبات ما فتئت حركة الحياة منتشرةً في أرجائهـا لان اسراباً كبيرةً من الجواميس ما برحت ترعى في منابت القصب الواقعة غربي البحيرة وهكذا الطيور بقيت تغرد في الآجام الطيفة بمنعرجات العاصي. وكانت قبّة تلّ نبي مند تظهر دائماً بيضاء بين الخضرة الكثيرة التي تكتنفها

اما جزيرة بحيرة قدس فازدادت وحشـةً لانّ القوارب ما عادت تقربها من بعـد وفاة الاب يوحنا فلم يكن يأتيها سوى قوم قلائل من الفلاحين من اهالي كفر عبده وسومارية يذهبون اليها في ايام البـذار والغلال على ظروف ينفخونها لاجل ان يزرعوا ما فيها من الاراضي القليلة الصالحة للبذار

وكان في قمة التلّ بالقرب من الكوخ الحقير الذي اتخذه الاب يوحنا لسكناه ركام من الحجارة البركانيّة يعلوه صليب من الخشب ويظلّل الصليب بعض اشجـار من الخِلاف. وكان كل صباح ومساء يأتي الى

---

١) مجلة الشرق المسيحي

هناك رجل مسنّ فيركع ويقضي الساعات الطوال متأملًا ومصليًا. ومتى همّ بالانصراف يسجد مقبِّلًا تلك الحجارة السوداء. وكان الرجل المذكور طويل اللحية مبيض الشعر مرتجف القدم وهو الاب جرمانوس الذي سبق الكلام عليهِ في هذه الرواية وكان آخر رفقاء الاب يوحنا واوفى اصدقائهِ فكان كل يوم يأتي المحل المذكور على ما تقدم الوصف زائرًا ضريح صديقه ومصليًا عندهُ ومتوقعًا اليوم الذي يستطيع فيهِ هو ايضًا ان يرقد رقاده الاخير الى جانب معلمه وصديقه حبيس بحيرة قدس




Bibliotheca Alexandrina
0432866